جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

نظم الحكم في السودان

في الفترة من

١٢٣٥ - ١٣٠٠هـ

١٨٢٠ - ١٨٨٥م

بحث مقدم لدرجة الماجستير

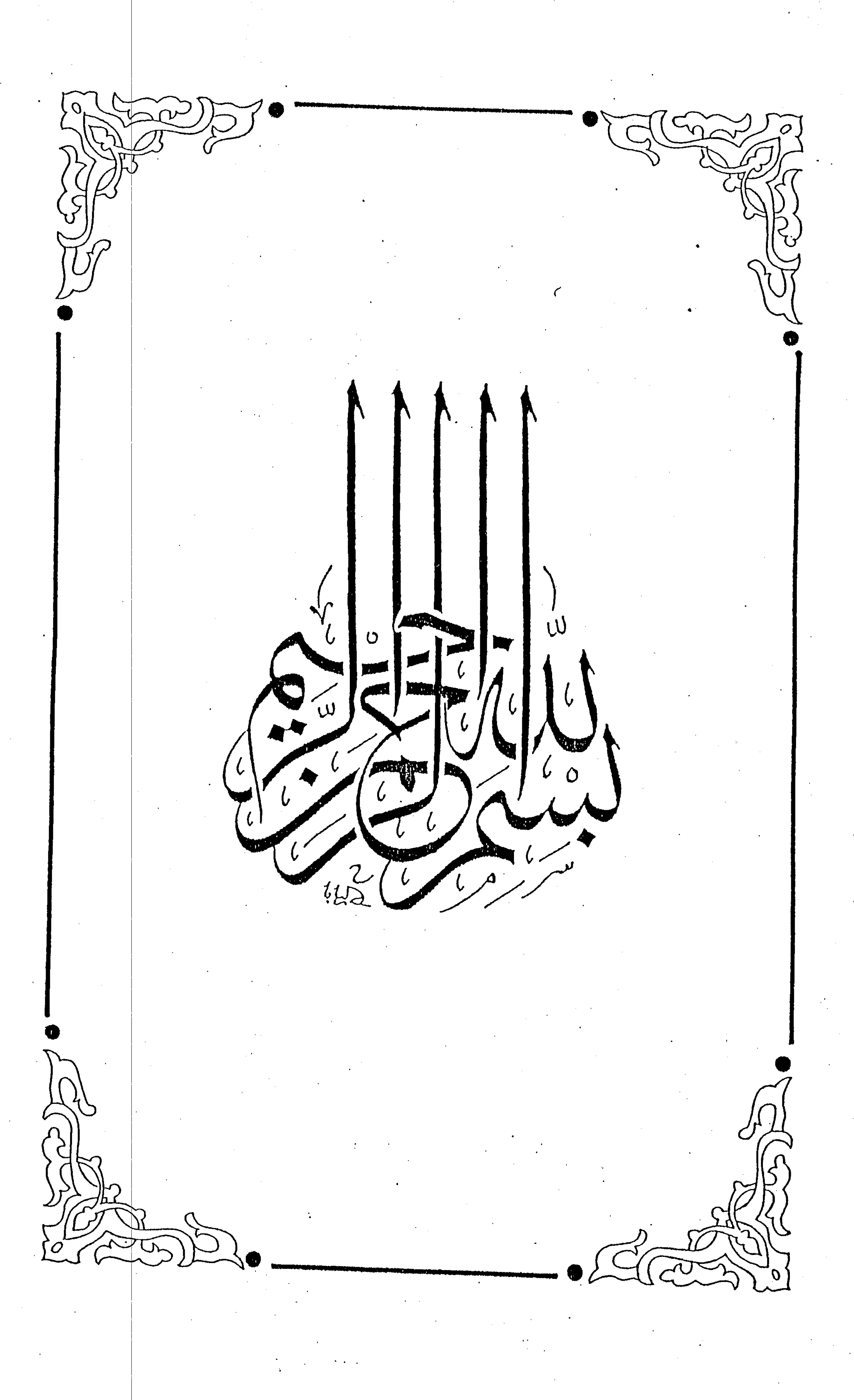
إعداد الطالب

خوجلي أحمد صديق

إشراف الدكتور

إبراهيم نجيب محمد عوض

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدى وقائدى محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين .

اداءً منى لبعض الواجب الذى على فأنني أتقدم بالشكر اجزله لكل من أعانني على اخراج هذا البحث بصورته هذه ، وأخص بالشكر أستاذى الجليل الدكتور ابراهيم نجيب محمد عوض رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية بجامعة أم القرى والذى رعى هذا البحث وأشرف عليه منذ أن كان فكرة إلى أن رأى النور فجزاه الله عنى كل خير .

كما أتقدم بجزيل شكرى لجامعة أم القرى التى أتاحت لى ولزملائى فرصة الدراسة فى هذا البلد الحرام و أخص بشكرى القائمين على ادارة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية على مابذلوه تجاهنا من جهد يستحق الشكر والثناء .

كما أشكر اساتذتى فى قسم الحضارة على مابذلوه لنا من علم ومعرفة فجزاهم الله عنا خير الجزاء .

وختاما اشكر أخوانى وزملائى الطلاب على تشجيعهم المستمرونصائحهم المفيدة .

...

المقدّمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاه والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .. وبعد :

فان الأرض التى يشغلها السودان بحدوده المتعارف عليها اليوم كانت تقوم عليها قبل فترة هذا البحث ممالك وسلطنات اسلامية مستقلة عن بعضها البعض وتتمتع كل سلطنة فيها بكامل سيادتها ولايربطها بغيرها من السلطنات والممالك إلا رباط الدين وحسن الجوار .

أولى هذه السلطنات وأعظمها أثراً هى سلطنة سنّار، والتى كانت عبارة عن تحالف سياسى بين قبائل الفونج التى تنتسب إلى احد فروع البيت الاموى . وبين قبائل العبدلاب العربية ،ولهذا السبب كان كثير من المؤرخين والكتاب يطلقون على هذه السلطنة اسم سلطنة الفونج باعتبار أنّ الفونج هم الطرف الأقوى فى هذا التحالف ،كما تطلق بعض المصادر على هذه السلطنة اسم السلطنة الزرقاء وذلك بسبب اللون الذى اكتسبته هذه القبائل نتيجة لاختلاطها بالعناصر الزنجية وكانت بداية هذه السلطنة فى سنة ١٥٠٤م حيث اتخذت سنّار عاصمة لها وكان أول حكامها من الفونج عمارة دنقس ومن العبدلاب عبدالله جماع وتعتبر دولة سنّار من السلطنات الاسلامية التى عملت على نشر الاسلام كما كانت لها صلاتها بالعالم الاسلامى . وقد حكمت هذه السلطنة معظم السودان الشمالى وانتهت على يد اسماعيل بن محمد على فى عام ١٨٢٠م .

وإلى جانب سلطنة سنّار كانت توجد سلطنة الفور فى الطرف الغربى من السودان حيث تسكن قبائل الفور الزنجية . ولايعرف تاريخ محدّد لدخول الفور فى الاسلام ولا لبداية سلطنتهم . إلا أنّ هذه السلطنة قد استمرت فترة طويلة بعد زوال سلطنة سنّار وانتهت فى عهد الخديو اسماعيل سنة ١٨٧٤م على يد القائد السودانى الزبير باشا رحمة . وهذه السلطنة مثل سابقتها عملت على نشر الاسلام فى أفريقيا كما كانت لها

صلاتها بالعالم الاسلامى[1] .

أمّا فى كردفان فقدكانت توجد سلطتنتان صغيرتان هما سلطنة تقلى التى كانت تتمركز فى منطقة جبال تقلى وسلطنة المسبعات . ولايعرف الكثير عن تاريخ هاتين السلطنتين إلا أنّ سلطنة المسبعات كانت قد دخلت فى حروب مع سلطنة الفور انتهت بسيطرة الفور عليها بينما استمرت سلطنة تقلى إلى قيام المهدية .

أمّا السودان بحدوده المتعارف عليها اليوم فقدوجد حديثاً بعد أن ضم محمد على وأولاده من بعده هذه السلطنات السودانية إلى إدارته .

ولقد كان من الموضوعات التى لفتت نظرى فى تاريخ السودان وأعطيتها اهتماماً كبيراً هذه الفترة التى أطلقت عليها مصادر التاريخ السودانى فترة التركية السابقة أو فترة الحكم المصرى التركى فى السودان .

ورأيت أن ادرس هذه الفترة من حيث النظم التى كانت سائده فى الادارة والتعليم والقضاء والمال والاقتصاد مع مقارنة كل نظام من هذه النظم بما يقابله فى فترة السلطنات التى سبقت هذه الفترة . وقد قصدت من هذه المقارنة ملاحظة التطور الذى يمكن ان يكون قد حدث فى هذه النظم .

وقد قسمت الموضوع إلى أربعة أبواب ،والأبواب إلى فصول كما يلى :

---

(١) انظر د. يوسف فضل حسن – مقدمة فى تاريخ الممالك الاسلامية فى السودان الشرقى (١٤٥٠ – ١٨٢١) معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧١م (ص ٤٥) ومابعدها .

الفصل الثالث فى نظام التعليم من (١٨٦٣ - ١٨٨٥م) .

الباب الثالث فى النظام القضائى ويشتمل على :

الفصل الأول فى النظام القضائى من (١٨٢٠ - ١٨٤٨م) .

الفصل الثانى فى النظام القضائى من (١٨٤٩ - ١٨٨٥م) .

أمّا الباب الرابع فيتحدث عن النظام المالى والاقتصادى ويشتمل على:

الفصل الأول : النظام المالى والاقتصادى فى السودان من (١٨٢٠ - ١٨٤٨م) .

الفصل الثانى : النظام المالى والاقتصادى فى السودان من (١٨٤٩ - ١٨٨٥م) .

والله تعالى أسأل أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه ،خاصة وأنّ دراسة التاريخ الحضارى من الدراسات التى لم تجد اهتماماً كبيراً من الكتّاب والباحثين من المهتمين بتاريخ السودان حيث أنّ أُغلبهم وجّه جل إهتمامه إلى التاريخ السياسى وأغفلوا دراسة التطور الاجتماعى والحضارى .

الباب الأول

النظام الإدارى

ويحتوى على :

(١) - النظام الإدارى فى السودان فى الفترة من ١٨٢٠ - ١٨٤٨ م
(٢) - النظام الإدارى فى السودان فى الفترة من ١٨٤٩ - ١٨٦٣ م
(٣) - النظام الإدارى فى السودان فى الفترة من ١٨٦٣ - ١٨٨٥ م

الفصل الأول

النظام الإدارى فى السودان
فى الفترة من ١٨٢٠-١٨٤٨م

تمهيـــــــد :

بعد أن تمكن الوالى العثمانى محمد على[1] من السيطرة على مقاليـــــد الأمور فى مصر وقضائه النهائى على سلطان المماليك سنة ١٨١١م ،قام بعـــدة حملات باسم السلطان العثمانى فى سوريا والجزيرة العربية ،كما قـــام بتأسيس دولة عصرية فى مصر تأثر فيها بالنظم الغربية .

وفى سنة ١٨٢٠م اتجهت أفكار محمد على جنوبًا نحو السودان بقصد ضمه إلى دولته التى أنشأها .

وقد عزا المؤرخون الأسباب التى دفعت محمد على لضم السودان إلـــى الآتـــى :

(١) تأمين حدوده الجنوبية وذلك بالقضاء على فلول المماليك الذيـــن هربوا بعد مذبحة القلعة جنوبًا واستقروا باقليم النوبة وحـــول مدينة دنقلة وبدأوا فى شراء الأسلحة واعداد الجنود لتكويـــن جيش قوى يستعيدون به سلطانهم المفقود ،وقد خشى محمد على مـــن تحالف المماليك مع سلطان سنّار أو تحالفهم مع ملك الحبشة فقـــرر القضاء عليهم .

(٢) كان محمد على يحلم بانشاء دولة مترامية الأطراف ولذلك فكّر فـــى بناء جيش حديث يكون قوامه من السود الذين يتميزون بالقـــوة

---

(١) محمد على باشا ـ تركى الجنسية ولد فى سنة ١٧٦٩م فى مرفأ قولـــة الذى يقع الآن فى بلاد اليونان . وكان موظفاً حكومياً صغيرًا ثـــم تزوج ابنة عمدة قولة وأنجب منها ثلاثة أولاد هم ابراهيم وطوســون واسماعيل . كان أول ظهوره فى مصر سنة ١٧٩٩م متطوعاً فى الجيـــش التركى حيث كان يتولى قيادة فرقة ألبانية وصلت سنة ١٨٠٣م إلـــى مايزيد عن عشرة آلاف رجل . استفاد من الصراع بين المماليك والأتراك وتسلّم زمام الأمور فى القاهرة بحجة المحافظة على الأمن وبعـــد قضائه على المماليك فى القلعة سنة ١٨١١م أصبح هو الحاكم الوحيـــد فى مصر .
انظر عبدالرحمن الرافعى ـ عصر محمد على ـ مكتبة النهضة المصريـــة القاهرة ١٩٥٦م (ص ١٦) ومابعدها ،الان مورهيد ـ النيل الازرق ـ ترجمـــة نظمى لوقا ط/دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥م (ص ١٨٥) ومابعدها .

والطاعة والشجاعة بدلاً منجيشه المكوّن من الأتراك والألبان والمغاربة والأكراد، الذين كثيراً مايعصون الأوامر .

وقد ذكر الرحالة الانجليزى (هل) Hill أنّ المحرك الأول لمحمد على لفتح السودان هو الحصول على الرقيق اللازمين له للعمل فى الزراعة والصناعة والجيش ليحقق أحلامه عن طريقه . ويبدو من خلال المكاتبات التى كانت تتم بين محمد على وأبنائه فى السودان أنّ هذا الهدف كان من الأهداف الأساسية لحملة السودان .(١)

(٣) كذلك يعتبر المؤرخون أنّ الحصول على الذهب كان هدفاً من الأهداف التى سعى محمد على لتحقيقها حيث كان قد سمع عن كميات الذهب فى جبال بنى شنقول بشرق السودان . وفى فاز وغلى على الحدود الأثيوبية ،وممّا يؤكد حرصه على هذا الهدف اصراره على زيارة مناطق التنقيب بنفسه بعد ضم السودان .(٢)

(٤) بعض المراجع تشير إلى أنّ من دوافع محمد على فى هذه الحملة التخلص من جنوده الذين أصبحوا مصدر خطر وازعاج له فى مصر .

(٥) من أسباب حملة محمد على إلى السودان طموح محمد على فى امتلاك وادى النيل من منبعه إلى مصبه .

---

(١) لمعرفة أسباب ضم السودان لمصر انظر : نعوم شقير ـ تاريخ السودان ط/دار الجيل بيروت ١٩٨١م (ص١١٥)،د. مكى شبيكة ـ السودان عبر القرون ـ دارالثقافة ـ بيروت (ص١١٤)،عبدالله حسين المحامى السودان من التاريخ القديم إلى قيام رجلة البعثة المصرية ـ المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٥م (ص٣٥) ،د. شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩ (٢/٩) ومابعدها د. محمد فؤاد شكرى ـ صفحة من تاريخ السودان الحديث ـ مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة عدد ٨ المجلد الثانى ديسمبر ١٩٤٦م ـ (ص ٢٨ ـ ٣٢) . Hill, Richard _ Egypt in The sudan 1820-1881. Oxford university press . London 1959.

(٢) حسن أحمد أبراهيم ـ محمد على واستخدام الأرقاء السود ـ مجلة الدراسات السودانية ـ شعبة أبحاث السودان ـ جامعة الخرطوم العدد الأول ـ المجلد الثالث أكتوبر ١٩٧١ (ص ٩٨ ـ ٩٩) .

وقد ذكر هذا السبب الرحالة وادنجتون .[١]

(٦) ويضيف الدكتور محمد فؤاد شكرى أنّ من أكبر العوامل شأناً في حملة السودان مطالبة أهل السودان أنفسهم بانشاء حكومة قوية على يد محمد على تقضى على أسباب الفوضى المنتشرة فى بلادهم وتستبدل بها عهداً من النظام والأمن والطمأنينة والرخاء.[٢]

ويؤكد هذا وفود عدد من السودانيين من الحكّام والملوك المغلوبين على أمرهم يطلبون العون لاستعادة سلطتهم على أن يعترفوا بالتبعية لمحمد على .[٣]

هذه هى أهم الاسباب التى رأى المؤرخون أنّها دفعت محمد على لضم السودان لحكمه إلا أنّ الدكتور شوقى الجمل يرى أنّ هناك عوامل غير التى يراها المؤرخون، إذ يعتبر أنّ العوامل التى ذكرها المؤرخون ماهى إلاعوامل ثانوية أمّا العوامل الأساسية فهى :

(١) عوامل طبيعية تتعلق بوجود النيل والصحراء وامتداد القطرين إلى بعضهما البعض يجعل من الصعب استغناء أحدهما عن الآخر .

(٢) عوامل خارجية ويحصرها فى أطماع إنجلترا فى السودان ومصر فبادر محمد على بضم السودان حتى يقطع عليها الطريق .

(٣) عوامل داخلية حيث لم تكن بالسودان قوة تستطيع الوقوف فى وجه

---

(١) جورج وادنجتون ـ زميل بكلية الثالوث بجامعة ويلن بايرلندا كان عمره سبعة وعشرين عاماً عندماجاء إلى مصر فى سنة ١٨٢٠م بصحبة قس من كلية يسوع فى البندقية والتقى بمحمد على وذهب فى رحلة إلى النيل الأعلى أثناء حملة محمد على إلى السودان . انظر آلان مورهيد ـ النيل الأزرق ـ مرجع سابق (ص ١٣٥) .

(٢) انظر محمد فؤاد شكرى ـ مصر والسودان الوضع التاريخى للمسألة دار الفكر العربى ـ القاهرة (ص ٧ ـ ٨) .

(٣) من هؤلاء الشيخ نصر الدين ملك بربر والملك إدريس ولد ناصر من سنّار وإدريس ولد عدلان من فازوغلى وأبو مدين من أقارب السلطان محمد الفضل سلطان دارفور ـ انظر د. شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل ـ مرجع سابق (١٠/٢) .

جيش محمد علـى[1] ٠

ولـكنه يرى أنّ العوامل الـتى رجحت كفة ضم السودان عند محمد علـى تنحصر فى عـاملين :

(١) العـامل الأول يتعلق بدواعى الأمن فى الـولاية الأصلية مصر ٠

(٢) العـامل الـثـانى يتعلق بـالاهتمـام بشئون الـبحر الأحمر وسواحله ٠

وهذا العـامل يتصل بـامتداد نفوذ محمد على إلـى سواحل الحجاز[2] ٠

وعلـى كل حال يصعب علينـا تقديم أحد العوامل علـى العـامل الآخر رغـم أنّها تكـاتفت سويّـا ونجحت فى أن تقرر مصر أمر الذهاب إلـى السودان، سـواء كـان ذلك لأسبـاب اقتصادية أو سيـاسية أو معنوية أو استراتيجية "[3] ٠

ضـم الســودان :

أعدّ محمد علـى حملة تكونت من مغـاربة وأتراك وألبـان وأكراد اضافـة إلـى مجموعة من العربـان وقد بلغ تعداد هذا الجيش نحو سبعة آلاف وثمـانمـائة مقـاتل وقد قسم هذا الجيش إلـى فرقتين :

الأولـى بقيـادة اسمـاعيل أصغر أبنـاء[4] محمد علـى ،وقوام هذه الحملـة أربعة آلاف مقـاتل من عنـاصر مختلفة أكثرهم من العرب والمغـاربـة والألبـانيين والأتراك ومعهم أربعة وعشرون مدفعـاً وألف وخمسمـائة فـارس وكـان مع الحملة بعض علمـاء الدين علـى رأسهم الشيخ أحمد السلاوى المغربـى الذى عين مفتيـاً للممـالك السودانية[5] ٠

---

(١) انظر د٠ شوقى الجمل ـ تـاريخ سودان وادى الـنيل ـ مرجع سـابـق (٨/٢) ومـابعدهـا ٠

(٢) انظر المرجع السـابق (ص٩) ٠

(٣) د٠ جلال يحيى ـ مصر الأفريقية والأطمـاع الاستعمـارية فى الـقرن الـتـاسع عشر ـ دار المعـارف ١٩٨٤م (ص٣٢) ٠

(٤) أصغر ابنـاء محمد علـى من زوجته الـتركية ابنة حـاكم قولة ٠ قدم إلـى مصر بعد أن استتب الأمر لـوالـده ٠توفى فى اكتوبر ١٩٢٢م ٠

(٥) عبدالرحمن الجبرتى ـتـاريخ عجـائب الآثـار فى الـتراجم والأخبـار دار الجيل (٦١٢/٣) ٠

أمّا الحملة الثانية فقد كانت بقيادة محمد بك الدفتردار (١) صهر محمد على .

الحملة الأولى كان خط سيرها مع النيل ومهمتها اخضاع سلطنة سنّار أمّا الحملة الثانية فكانت مهمتها ضم كردفان إلى الادارة المصرية .

سارت الحملتان من حلفا ولم تجد حملة اسماعيل أية مقاومة فى دنقلة التى أصبحت مركزاً للمماليك حيث سلّم بعضهم لاسماعيل وهرب البعض الآخر جنوباً حيث تبعهم اسماعيل بعد أن ترك فى دنقلة قوة من الجيش لحفظ الامن وتأمين إرسال الامدادات .

سارت الحملة جنوباً إلى سنّار عاصمة دولة سنّار المسماه بالسلطنة الزرقاء ولم تجد مقاومة إلا من قبيلة الشايقية (٢) التى قاومت جيش اسماعيل ولكن تقدم جيش اسماعيل وتسليحه الحديث قضى على مقاومتهم .

وفى بربر أعلن الملك نصر الدين ملك بربر ولاءه لاسماعيل فأبقاه اسماعيل فى منصبه تحت إمرة محوبك أورفالى الذى عين مديراً لبربر (٣) .

ثم سار جيش اسماعيل من بربر إلى شندى حيث سلّم له الملك نمر

---

(١) محمد بك الاستانلى المعروف بالدفتردار . نشأ فى الاستانة . كان من الموظفين الذين عينهم سلطان تركيا فى مصر - عهد إليه محمد على بالاشراف على أعمال الخزينة وجمع الضرائب فلفت أنظار محمد على إليه لهمته ونشاطه وزوّجه من ابنته الاميرة نازلى هانم ثم عينّه حاكماً على السودان بعد مقتل اسماعيل فانتقم من قتلته ثم دعى إلى مصر ليستأنف عمله الأول فى المالية . توفى فى ظروف غامضة . انظر عبد الرحمن زكى - حكمدارو السودان - المجلة التاريخية المصرية المجلد الأول ١٩٤٨م (ص ٤٢٨) .

(٢) من قبائل شمال السودان . يسكنون على ضفاف النيل من نهاية الشلال الرابع إلى مصب وادى الملك فى مسافة تزيد على مائتين من الكيلو مترات . انظر محمد عوض محمد - السودان الشمالى سكانه وقبائله مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٦م (ص ١٨١- ١٨٢)

(٣) انظر د. شوقى الجمل - تاريخ سودان وادى النيل - مرجع سابق (٢٦/٢) .

ملك الجعليين[١] ومنها إلى الحلفاية وسنّار حيث سلّم له الملك بادى ملك سنّار .

أمّا الحملة الثانية فقد اتجهت إلى كردفان عبر الصحراء ولم تجد أية مقاومة إلا من المقدوم مسلّم الذى كان يحكم مدينة باره نيابة عن سلطان الفور ،وبمعركة باره سقطت كردفان فى يد الجيش المصرى[٢] .

---

(١) الجعليون ينسبون إلى ابراهيم الملقب بجعل ،وهو حسب الروايات أبى سعد بن فضل بن عبدالله بن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم . ويسكنون شمال الخرطوم وعاصمتهم بربر . انظر محمد عوض محمد ـ السودان الشمالى ـ مرجع سابق (ص،١٦٤) .

(٢) للمزيد من التفاصيل حول حملات فتح السودان انظر : نعوم شقير تاريخ السودان ـ مرجع سابق ،د. مكى شبيكة ـ مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ـ معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٧٢م .

النظام الاداري في السودان قبل امتداد الادارة المصرية



النظام الادارى فى السودان قبل امتداد الادارة المصرية .

يقول الدكتور السيد يوسف نصر فى كتابه الوجود المصرى فى أفريقيا من ١٨٢٠ – ١٨٩٩م " عاشت معظم البلدان الأفريقية فى مطلع القرن التاسع عشر فى ظل نظام قبلى متخلف،تمثّل فى قيام الدويلات والممالك الصغيرة التى عاشت كل منها على حسب مايحلو لها بعيده عن مسايرة التطور الحضارى والتقدم العلمى "(١) .

هذا الوصف ينطبق تماماً على الوضع فى السودان فى ذلك الوقت ،فقد كان السودان – كما سبقت الاشارة – تحكمه ثلاث ممالك أكبرها مملكة سنّار التى كانت تحكم معظم السودان الشمالى ولكنهاكانت فى أواخر أيامها ضعيفة مفككة ترهقها الصراعات ثم مملكة تقلى فى كردفان ومملكة الفور فى السودان الغربى . وكانت القبائل والمشيخات تنضوى تحت هذه الممالك الثلاث ولكن العلاقة بينها كانت اسمية فقد كان زعيم القبيلة يعترف بسلطة السلطان عليه ويقدم له قدراً من المال ثم ينفرد بحكم القبيلة أوالمشيخة ،وكان لايوجد نظام واضح للحكم كما لايوجد جهاز متكامل للقيام بأعباء الحكم .

وخلاصة القول أنّه لم يوجد بالسودان قبل امتداد الادارة المصرية إليه ،دول أو حكومات بمعنى الكلمة ،تشرف وتنظم نواحى النشاط المختلفة فى البلاد، إذ فيما عدا الضرائب والرسوم التى كان السلاطين والملوك يقومون بجمعها من التجار،والمزارعين والبدو،والحرص على تنظيم قوافل التجارة التى كان لهم فيها النصيب الأكبر،فقد ترك كل شئ على طبيعته يكيف نفسه وفق ظروفه الطبيعية الخاصة (٢) .

---

(١) د. السيد يوسف نصر – الوجود المصرى فى أفريقيا فى الفترة من ١٨٢٠ – ١٨٩٩م – الطبعة الأولى – دار المعارف ١٩٨١م (ص ١٠٩) .

(٢) انظر د. نسيم مقار – الاسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان ،دراسة فى العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية ١٨٢١ – ١٨٤٨م – الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٥م (ص ٢٨ – ٢٩) .

ومملكة الفور فى ادارتها ونظمها لاتختلف كثيراً عن مملكة سنّار من حيث أنّ كل مملكة تتكون من مشيخات صغيرة عمادها القبيلة الواحده وقد ظلت مملكة دارفور مستقلة إلى أن قدّر لها أن تفتح فى عهد الخديو اسماعيل[(١)] .

ادارة اسماعيل بن محمد على :

بعد فتح سنّار وكردفان أُصبح السودان الشمالى تحت الحكم المصرى الذى كان يستمد سلطته من حكومة الاستانة حيث أنّ محمد على كان يعتبر نفسه والياً عثمانياً خاضعاً للسلطان العثمانى رغم النزعات الاستقلالية التى كانت لديه . "ولقد ترتب على الأوضاع التى كانت سائده فى مصر والسودان عند تحقق الوحده السياسية أن تكون مصر باشوية أو ولاية عثمانية وأن تكون حكومة القاهرة هى موئل السلطة فى شطرى الوادى، مصر والسودان مع تبعيتها للباب العالى صاحب السياده الشرعية على مصر نفسها وعلى السودان[(٢)] " .

ولذا نجد أنّ محمد على باشا قد استأذن السلطان العثمانى فى فتح السودان فأذن له بذلك . ولمّا تم الفتح عين الامير اسماعيل ابن محمد على حكمداراً على السودان بفرمان سلطانى حيث تم الفتح باسم السلطان العثمانى ، وعلى هذا الأساس قدّم السلاطين والرؤساء فى السودان ولاءهم وعندما تنازل بادى السادس ملك سنّار عن عرشه فقد تنازل للسلطان العثمانى[(٣)] .

---

(١) انظر ابراهيم شحاته حسن ـ مصر والسودان، دراسة وثائقية مقارنة فى الأُصول التاريخية والفكرية للثورتين العرابية والمهدية ـ توزيع منشأة المعارف ـ الاسكندرية ١٩٨٠م (ص ١٠٧) .

(٢) محمد فؤاد شكرى ـ مصر والسودان ـ الوضع التاريخى للمسألة مرجع سابق (ص ٧) .

(٣) انظر د. زاهر رياض ـ السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال ١٨٢١ ـ ١٩٥٣م ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٦م (ص ٥٨) .

وفى هذا الصدد نذكر أنّ الأمر الذى أصدره الباب العالى بشأن تعيين الأمير اسماعيل حكمداراً على السودان لم يوضع موضع التنفيذ كأجراء مباشر بل صدر تقليد الحكم لاسماعيل من محمد على رأساً . كما أنّه لم تأت بعد هذا الاجراء أية أوامر أخرى من الباب العالى بتعيين الحكمداريين فى السودان ،بل صار يصدر تقليدهم من محمد على مباشرة (١) .

بدأ اسماعيل فى ادارة الأقاليم التى خضعت لسلطتة ولكن يبدو أنّ محمد على باشا شعر بأنّ اسماعيل لايستطيع لقلة خبرته أن يدير شئون الجهات المفتوحة فأرسل اليه ابراهيم باشا (٢) . لما له من خبرة بشئون الحرب والادارة وعينه قائداً عاماً للقوات المصرية فى سنّار وكردفان . وصل ابراهيم باشا إلى سنّار فى نهاية أغسطس سنة ١٨٢١م وبقى مع اسماعيل فى سنّار بعض الوقت ولكنه أصيب بمرض سافر على إثره إلى القاهرة . أمّا اسماعيل فقد رجع من سنّار إلى واد مدنى التى اتخذها عاصمة له لصلاحية جوها (٣) . ومنها سافر إلى شندى حيث لقى حتفه على يد ملكها نمر

---

(١) انظر محمد فؤاد شكرى- مصر والسودان الوضع التاريخى للمسألة مرجع سابق (ص ٨) .

(٢) كلمة باشا كلمة تركية مختلف فى أصلها الاشتقاقى . قيل من باش أغا أى رئيس الأغوات أو كبير الخصيان وقيل أنّها من الكلمة الفارسية بادشاه وقيل أنها من باش بمعنى الرأس. وفى مصر كانت تطلق على رجال الجيش إذا صاروا ألوية ،وعلى أعيان المدنيين ووكلاء الوزارات ومحافظى الأقاليم وكبار التجار . وقد ألغى هذا اللقب فى مصر سنة ١٩٥٢م انظر د. أحمد السعيد سليمان - تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل - دار المعارف ١٩٧٩م (ص ٣٦) .

(٣) أحمد بن الحاج أبو على كاتب الشونة -مخطوطة كاتب الشونة فى تاريخ السلطنة السنّارية والادارة المصرية ،تحقيق الشاطر بصيلى عبدالجليل - مراجعة الدكتور محمد مصطفى زياده - دار إحياء الكتب العربية ١٩٦١م (ص ٨٩) .

وذلك فى أكتوبر ١٩٢٢م[1] .

ترتب على مقتل اسماعيل أن أصبح محمد بك الدفتردار[2] المسئول الأول عن الادارة والجيوش المصرية بالسودان فقام بحملات إنتقامية لمقتل اسماعيل إبتداءً من النيل الأبيض وحتى شندى وقد قتل من الجعليين قرابة الخمسين ألفاً ، الأمر الذى أعطى السكان انطباعاً سيئاً عن الحكم الجديد[3] .

وحرصاً من محمد على على سمعة نظام الحكم الجديد فقد استدعى الدفتردار إلى القاهرة .

وفى الصفحات التالية سنستعرض ادارة محمد على باشا للأقاليم السودانية وسنتعرف على ايجابياتها وسلبياتها والهيكل الادارى الذى قامت عليه وأهم الحكام الذين أمروا على البلاد مع ذكر منجزاتهم .

حكمدارية اسماعيل باشا :

شهد السودان على عهد محمد على عدداً من الحكام كان أولهم اسماعيل ابن محمد على الذى صدر أمر تعيينه من السلطان العثمانى . وقد مارس اسماعيل صلاحياته كحاكم أثناء الفتح حيث نجده قد أقرّ بعض الملوك

---

(١) تضاربت روايات المؤرخين فى سبب مقتل اسماعيل ولكن معظمها يؤكد على فداحة الضرائب التى حاول اسماعيل فرضها على الأهالى وإهانته للملك نمر .

(٢) كلمة دفتر يونانية بمعنى جلد الحيوان لأنه كان يكتب عليه ،وقد دخلت العربية قديماً وفيها ثلاث لغات الدفتر بفتح الدال كجعفر ومن العرب من يقول تفتر بالتاء على البدل والدفتر بكسر الدال على وزن درهم والدفتر جماعة الصحف أو الكراس ودخلت كلمة دفتر الفارسية أيضاً بلفظها وبمعنى جماعة الصحف وأمّا دار ففارسية ومعناها الصاحب او القيم . فالدفتردار لغويا هو صاحب الدفتر وكان الدفتردار بمثابة وزير المالية وفى مصر العثمانية كان هذا المنصب يعنى ناظر المال أو كبير الكتبة .

انظر د. أحمد السعيد سليمان ـ تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ـ مرجع سابق (ص ٩٨ ـ ١٠٤) .

(٣) انظر د. شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل ـ مرجع سابق ج٢ (ص ٢٩) .

والمشايخ الذين أُذعنوا له فى مناصبهم ـ وبعد وصوله إلى سنّار اتخذها عاصمة له ،وفى هذه الأثناء حضر أُخوه الأكبر ابراهيم باشا ليساعده فى وضع الأُسس الادارية والعسكرية لهذا الاقليم حيث أُنّ ابراهيم قد اكتسب تجربة كبيرة من خلال حروبه فى سوريا والحجاز كما سبقت الاشارة ٠

نزل ابراهيم فى ضواحى سنّار وظل الأخوان يجتمعان ويتشاوران وأُخيرًا استقر رأيهما على القيام بحملتين للحصول على السود ٠

الأُولى يقوم بها ابراهيم باشا إلى مناطق الدنكا على النيل الأُبيض ٠

والثانية يقودها اسماعيل إلى جبال الصعيد المتاخمة لأُثيوبيا لأنّ والدهما يلح فى طلب الزنوج للجندية (١) ٠ وقد سار اسماعيل بحملته إلى جبال الصعيد أُمّا ابراهيم فقد سار قليلاً فى جهات النيل الأُبيض ولكن المرض اشتد عليه فرجع إلى سنّار ٠

وقبل مغادرته سنّار إلى القاهرة قام بتقدير مايمكن جمعه من الضرائب ٠

ولتنظيم الادارة رأى ابراهيم أُن يُجرى احصاءً تقريبياً لعدد القرى فى الأُقاليم السودانية من أُفواه الذين يوثق بكلامهم وكانت النتيجة أُنّ قرى سنّار والحلفاية تبلغ ثلاثمائة قرية وفازوغلى مائة قرية وقرى كردفان ألف وخمسمائة قرية ٠ ورأى ابراهيم أُن يُعين قائمقام مع عشرة من الفرسان وعشرة من المغاربة على كل من ١٣ ـ ١٧ قرية ويقدر أُنّه يمكن الحصول على أُلف أُو أُلفين من الريالات (٢) من كل قرية (٣) ٠

هذا وقد كوّن اسماعيل قبل خروجه فى حملة الصعيد لجنة من سعيد أُفندى وكيله والمعلم حنّا الطويل والأُرباب دفع الله ولد حمد وذلك

---

(١) انظر د٠ مكى شبيكة ـ السودان عبر القرون ـ مرجع سابق (ص ١١٤) ٠

(٢) يذكر ألان مورهيد أُنّ الريالات التى كانت مستخدمة فى السودان فى هذه الفترة هى الريالات الأُسبانية المعروفة بريالات ماريا تيريزا انظر النيل الأُزرق (ص ٢٦٦) ٠

(٣) انظر د٠ مكى شبيكة ـ السودان عبر القرون ـ مرجع سابق (ص ١١٥) ٠

لتقدير الضرائب فاجتمعت هذه اللجنة وفرضت ضرائب باهظة حيث فرضت على سنّار ١١١٠٠كيسه وحلفا ٢٩٤ كيسه وجهات النيل الأُبيض ٣١٤ كيسة (١) وقد بلغ مجموع مافرضته من ضرائب ١١٧٠٨ كيسة أُى مايعادل ٥٨٥٤٠ جنيهاً (٢) ٠

وقد اعتبرت هذه الضرائب باهظة لان السكان لم يألفوها ٠ وقد كانت هذه اللجنة لجهلها بحال السودان تقدر الضرائب قياساً على ماهو موجود فى مصر مع الفارق الكبير فى القياس " فأهل السودان آنذاك أُغلبيتهم تتعامل بالذرة والدمور كنقد والريالات المتداولة بين الناس قليلة والسودانى الذى يريد أُنيقوم بتأدية هذه الضريبة قد يعوزه السوق الذى يمكن أُنيبيع فيه ماشيته (٣) ٠

بعد تقدير هذه الضرائب قامت اللجنة باقفال الدفاتر التى قدرت فيها الضرائب وأُرسلتها لمصر للموافقة عليها ٠

وإزاء هذا الوضع فرّ فريق من السكان إلى الحبشة وفريق آخر بدأ يفكر فى الثورة على النظام الجديد ٠

ولمّا عاد اسماعيل منحلمته ورأى هذا الوضع بدأ فى استمالة الأُهالى حتى يعودوا إلى سابق اطمئنانهم ووعدهم خيراً فيما يتعلق بالضرائب وبعث بعض جنوده ليلحق بالدفاتر التى أُرسلت إلى مصر لإرجاعها ٠

وقد ذكر كاتب الشونة أُنّه قد خفضها بالفعل حيث يقول :" وعرضت عليه دفاتر المطاليب وشكت إليه الرعية من عظم الكتابة لأنّه وضع على صاحب الحمار خمسة ريال وكذلك صاحب الشاه فحصلت له الرقة العقلية والرحمة الاسلامية فتجاوز عن ذلك وعمل عليهم ريالين وأُمرهم فى الخلاص بالسهولة والمياسرة والرفق بالفلاحين " (٤) ٠

---

(١) الكيسة : تعادل خمسمائة قرش ٠

(٢) انظر الشاطربصيلى عبد الجليل ـ معالم تاريخ سودان وادى النيل ط الثانية ـ مكتبة العرب ١٩٦٦م القاهرة (ص ١٣٨)،وضرار صالح ضرار تاريخ السودان الحديث ـ دارمكتبة الحياه بيروت ط الرابعة ١٩٦٨م (ص ٤٤)٠

(٣) انظر د٠ مكى شبيكة ـ السودان عبر القرون ـ مرجع سابق (ص ١١٨) ٠

(٤) انظر كاتب الشونة ـ مخطوطة كاتب الشونة ـ مرجع سابق (ص ٩) ٠

ولكن باحثاً حديثاً يقول : " وبالرغم من أنّ اسماعيل اكتشف أنّها جائرة (يعنى الضرائب) إلا أنّه لم ينقص منها شىء بل زاد فى بعضها وبدىء فى جمعها عام ١٨٢٢م" (١) . ولكنى أرجح ماقاله كاتب الشونة من تخفيض للضرائب نظراً لمعاصرته الأحداث .

لم يطب المقام لاسماعيل وجنده فى سنّار وذلك لرداءة مناخها كما ذكرنا ـ وقد عرفت بذلك منذ القدم ـ فرحل عنها اسماعيل إلى واد مدنى إلى الشمال من سنّار وبنى فيها الثكنات ومكاتب الحكومة كما رتب حكومة للقرى قوامها قائمقامات لكل عدد منها ويساعد القائمقام مشايخ الأخطاط .

فكّر اسماعيل فى السفر إلى مصر بعد غياب دام سنتين واتجه صوب مصر ومعه مائتين وخمسين خيالاً ولكنّه لقى حتفه على يد الملك نمر فى شندى (٢) .

أمّا فى كردفان ففى أيام قليلة سيطر الدفتردار على الأبيّض العاصمة وأجزاء كبيرة من كردفان وقسّم المنطقة إلى خمسة أقسام إدارية هى خورس وباره وكشعر وأبو حراز وديرا بينما بقيت منطقة البقارة والنوبا خارج هذا التقسيم (٣) .

ولكن محمد على باشا وجّه الدفتردار بعد مقتل اسماعيل باعطاء كردفان لأحد السلاطين أو الملوك على سبيل الاقطاع لتتفرغ الادارة المصرية لحكومة سنّار ورأى محمد على هذا الرأى لانه لم تمض سنتان تقريباً على حكمه فى السودان حتى حدثت الثورات وحركات التمرد و قتل ابنه ولكن

---

(١) ضرار صالح ضرار ـ تاريخ السودان الحديث ـ مرجع سابق (ص ٥٢) .

(٢) انظر د. مكى شبيكة ـ تاريخ شعوب وادى النيل مصر والسودان دار الثقافة ـ بيروت (ص ٣٤٣) .

(٣) عوض عبد الهادى العطار ـ تاريخ كردفان السياسى فى المهدية ١٨٨١ ـ ١٨٩٩م ـ المجلس القومى لرعاية الآداب والفنون وزارة الثقافة والاعلام ـ جمهورية السودان الديمقراطية ـ ط الأولى ١٩٧٣م (ص ٢٢) .

الدفتردار لم يوافق على هذا الرأى بحجة أنّه لم يبق فى كردفان من يستطيع حكمها، فصرف النظر عن هذا الرأى وترك بالأبيّض حامية لحفظ الأمن وقفل راجعاً لاقليم سنّار (١) .

تولى الدفتردار السلطة العسكرية والادارية فى السودان بعد مقتل اسماعيل وظل يحتل هذا المنصب وتلك السلطة حتى أكتوبر ١٨٢٤م . ولقد أثرت عملية انتقامه لاسماعيل على علاقته بالأهالى فى بعض المناطق فاستدعى الى مصر وحل محله عثمان بك جركس (٢) .

منجزات ادارة اسماعيل :

استطاع اسماعيل باشا أن يحقق بعض الأغراض التى أرادها والده من ضمه للأراضى السودانية ومن ذلك :

(١) أنّه استطاع تأمين حدوده الجنوبية ببسط سلطته عليها وقضائه على قوة المماليك التى كانت مصدر خطر يهدده .

(٢) فى مجال الأرقاء السود لم يوفق اسماعيل بالصورة التى كان والده يحلم بها حيث لم يستطع الوصول إلى مناطق السود فى جنوب السودان وجبال النوبة . حيث أنّ ابراهيم باشا منعه المرض من القيام بحملته فى النيل الأبيض. أمّا اسماعيل فلم يكن ناجحاً فى حملته إلى جبال الصعيد إذ أنّه لم يأت بأكثر من ٤٧٧ رجلاً يصلح للجندية على الرغم من خطابات والده التى يركز فيها على هذه المهمة بقوله : " وإنّ المقصود الأصلى من هذه التكلفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا ذات مرة بعد أخرى بل الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا " (٣) .

---

(١) د. مكى شبيكة - السودان عبر القرون - مرجع سابق (ص ١٢٣) .
(٢) د. جلال يحيى - مصر الأفريقية - مرجع سابق (ص ٣٥ - ٣٦) .
(٣) دفتر معية تركى - مكاتبة رقم ٣٢٥ - بتاريخ غرة القعده سنة ١٢٣٧ هـ نقلاً عن مكى شبيكة - السودان عبر القرون - مرجع سابق (ص ١١٧) .

(٣) أمّا موضوع الذهب الذى كان محمد على مهتماً به إلى درجة كبيرة كما وصفه أحد المهندسين المشتركين فى التنقيب فقد اهتم به اسماعيل كذلك، فقد مرّ أثناء غزوه لأعالى النيل الأزرق على إقليم فازوغلى وفتش أماكن استخراج الذهب وشدّد على زعيم المنطقة لارشاده على أماكنه وملأ جوربين منترابها وأرسله إلى مصر[1].

ورد محمد على فى ٨ شعبان سنة ١٢٣٧هـ قائلاً : " وقد جاء الجوربان واطلعنا على معدن الذهب الذى يحتويانه ولقد استقدمت من أوروبا أستاذاً عاقلاً نابغاً فى العلم ملماً بطبايع (هكذا) المعادن وسنرسله إن شاء الله تعالى إلى تلك الديار ليقوم بالبحث والتحرى عما أفاض الله عليها من المعادن وسيطوف معكم بتلك الديار بعد موسم الأمطار ويتردد على المواضع التى اطلعتم عليها فيعاين المواضع التى يرى وجود المعدن فيها يحتبين من حقيقة الحال بمقتضى صنعته ثم يقدّم تقريراً بتوقيعه عن نتيجة أبحاثه سلباً أو ايجاباً[2] " .

حقيقة إنّ أعظم إنجازات اسماعيل باشا هى توحيد السودان لأول مرة فى وحده سياسية تحكمها ادارة واحده " فقد انضوت تحت لواء الحكم المصرى جميع الأقاليم السودانية التى تم فتحها على يد اسماعيل والدفتردار وهى النوبا وسنّار وكردفان وجميع توابعها وملحقاتها من الشعوب والقبائل الرحل المنتشرة فى الصحراء[3] " بالرغم من أنّ اسماعيل لم يستطع إنشاء جهاز للحكم قوى وفعال وذلك لأنّ محمد على كما يبدو لم يكن قد أعدّ بادئ ذى بدء خطة شاملة التنظيم لحكم الأقاليم السودانية تقوم على دراسة كاملة لظروفها وأحوالها، وكذا الاحتمالات والصعوبات التى قد تواجهه عند حكمها . ومن ثم فقد جاء النظام الذى

---

(١) انظر الاسس التاريخية للتكامل الاقتصادى ـ مرجع سابق (ص ٥٧) .

(٢) انظر د. مكى شبيكة ـ تاريخ شعوب وادى النيل ـ مرجع سابق (ص ٣٣٦).

(٣) د. نسيم مقار ـ الاسس التاريخية للتكامل الاقتصادى ـ مرجع سابق (ص ٤٠) .

وضع لحكم السودان وقدغلب عليه طابع التنظيمات الادارية التى كان معمولاً بها فى مصر وقتذاك ،رغم الاختلاف الظاهر بين ظروف وأحوال البلدين - فالسودان كان النظام القبلى هو السائد فيه والمواطنون لم يألفوا أن تكون علاقاتهم بالحكم مباشرة حتى فى المناطق التى قامت فيها الممالك والسلطنات إذ كان الخضوع لرئيس القبيلة وهذا بخلاف ماكان جاريا فى مصر وقتذاك حيث لم يكن للنظام القبلى او العشائرى وجود يذكر (١) .

وانصافاً لاسماعيل فانه لم يستبح ممتلكات الأهالى أو أعراضهم وأنّه كان يدفع أجرة الجمال للحملة وأثمان الغلال والمواشى للمؤن (٢) .

وقد ذكر الرحالة إنجلس الذى كان يرافق الحملة أنّ بعض الخدم والجند قد سلكوا مسلكاً مخالفاً لما أصدره من أوامر بشأن معاملة الأهالى فأنزل بهم العقاب الصارم ودفع للأهالى تعويضاً عما أخذه منهم أولئك الافراد (٣) .

هذا وقد كان محمد على يرغب فى أن تساس البلاد السودانية بطرق أكثر انسانية إلا أنّ الحكام الذين أرسلهم لم يكونوا على نفس المستوى من التفكير فأساءوا الى حكم محمد على فى السودان (٤) .

---

(١) انظر الشاطر بصيلى عبدالجليل - معالم تاريخ سودان وادى النيل مرجع سابق (ص ١٣٧) .

(٢) انظر د. مكى شبيكة - السودان عبر القرون - مرجع سابق (ص ١٢٦) .

(٣) انظر الشاطر بصيلى - المرجع السابق (ص ١٣٣) .

(٤) انظر ضرار صالح ضرار - تاريخ السودان الحديث - مرجع سابق (ص ٥٠) .

ملامح النظام الاداري في فترة محمد علي .

ذكرت أنّ محمد علي لم يكن قد أعدّ خطة مدروسة لادارة الأقاليم السودانية وذلك يرجع في اعتقادي إلى جهل محمد علي التام بالأقاليم السودانية ولذلك ترك الأمر لقواده . ولم يكن لمصر أن تفعل أكثر ممّا فعلت في ذلك الحين لان امتداد الادارة ليشمل شطري الوادي كان أول تجربة من نوعها ،ومما يدل على أن الحملة لم تكن مزوده بخطة واضحة أنّها تركت الأمر في المناطق التي تسلمت ولايتها في طريقها إلى سنّار في أيدي المشايخ المحليين والكشّاف (١)، وبعض الجنود من المرتزقة المعروفين بالباشبوزق في المدن الرئيسية . وفي هذا مافيه من تجزئة للمسئولية الادارية ،وبخاصة في بلاد واسعة الأرجاء كالسودان،لاتربط بينها مواصلات سريعة . وكان من أثر هذه التنظيمات إحياء التقاليد القديمة بشأن تحصيل الضرائب ،ممّا كان له أسوأ الأثر على المدى البعيد (٢) .

الهيكل الاداري .

(١) الحكمدار :

جعل على رأس الادارة في السودان حاكم له السلطة العسكرية والمدنية المطلقة ويتبع ديوان الداخلية بمصر . هذا الوالي يطلق عليه أحياناً مأمور عموم بلاد السودان ويعينه والي مصر وتصدر إليه من

---

(١) الكشّاف جمع كاشف وهم في الأصل من الجنود الأتراك الذين كان السلطان سليم الاول قد أرسلهم لغزو النوبا ففتحوها حتى الشلال الثالث واستقروا فيها وكانت عاصمتهم الدر واستمروا في حكمهم إلى قيام الثورة المهدية . انظر محمد أحمد محجوب ـ الحكومة المحلية في السودان ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي ١٩٤٥م (ص ٢١) .

(٢) انظر الشاطر بصيلي ـ معالم تاريخ سودان وادي النيل ـ مرجع سابق (ص ١٣٧ ـ ١٣٨)،ضرار صالح ضرار ـ تاريخ السودان الحديث مرجع سابق (ص ٥٢) .

الوالى مباشرة الأوامر والتعليمات التى يقوم بتبليغها للمديرين والمأمورين فى أقاليم السودان المختلفة . وإليه يرجع هؤلاء الحكام فى مختلف الشئون المتعلقة بالادارة دون الرجوع لحكومة القاهرة .

وبالجملة كان هوالمسئول المباشر أمام والى مصر عن ادارة الأقاليم السودانية (١) .

ويدخل ضمن اختصاصات الحكمدار التفتيش على أعمال الموظفين والقيام بجولات تفتيشية فى المديريات والمراكز المختلفة وبخاصة عند وقوع حوادث رشوة أو اختلاسات مالية . وفى تلك الحالة تتولى لجان فنية فحص أوراق وحسابات الجهة التى تقع فيها مثل هذه الحوادث .

وهومايعرف بنظام التفتيش المالى . كذلك جرت عادة الحكمداريين على عقدمجالس للمشورة تضم المديرين وكبار الموظفين للتشاور فى المسائل الهامة وارسال قراراتها لحكومة القاهرة . وقد كان على الحكمداريين بصفة عامة أن يقدموا للجناب العالى (٢) تقارير دورية أوشهرية يبسطون فيها أحوال المديريات المختلفة وسير الاعمال بها (٣) .

ولفظ الحكمدار يحمل إلينا فكرة أنّ الادارة فى السودان كانت عسكرية إذ كان كل من شغل منصباً إداريا فى الحكومة الجديده من السلك العسكرى (٤) .

---

(١) انظر عبدالرحمن الرافعى ــ عصر محمد على ــ مرجع سابق (ص ١٨٦) ، د. شوقى الجمل ــ تاريخ سودان وادى النيل ج٢ مرجع سابق (ص ٣٣) وقد ذكر ضرار صالح ضرار فى تاريخ السودان الحديث مانصه : " عين محمد على حاكماً على السودان أُطلق عليه فى سنة ١٨٢٤م لفظ الحكمدار وكان يتمتع بالباشوية وأُعطيت له السلطات العليا الادارية والتنفيذية والعسكرية " . مرجع سابق (ص ٥٣) .

(٢) لفظ يقصد به الوالى أو الخديو .

(٣) انظر نسيم مقار ــ الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى ــ مرجع سابق (ص ٤٤ ــ ٤٥) .

(٤) زاهر رياض ــ السودان المعاصر ــ مرجع سابق (ص ٦٥) .

(٢) المديـــــرون :

كذلك قام محمد على بتقسيم السودان الى مديريات بلغت فى نهاية حكمه سبع مديريات هى دنقلة ،بربر، الخرطوم ،كردفان،سنّار،فازوغلى والتاكة • وعين لكل مديرية مدير وحددّت حدود كل مديرية وضم اليها العرب الرحل الضاربين فى وديانها • وقد كان من فوائد هذا النظام أن قلل العصبية القبلية التى كانت متحكمة فى زمن الفونج (١) • ويخضع المدير مباشرة لرئاسة الحاكم العام "الحكمدار" ويرأس قوة من الجند لحفظ الأمن فى المديرية ويساعده فى شئون الادارة وكيل وعدد من المعاونين والكتّاب وقاضى ووكيل قاضى ومفتى ومجلس أهلى وضبطية (٢) •

ويجمع المدير فى يده السلطة العسكرية والمدنية • وقراراته نافذه فيما عدا الشئون الهامة التى يرجع فيها إلى الادارة المركزية فى الخرطوم •

أمّا الشئون القضائية فكان القاضى هو الذى يفصل فيها ويصدر الأحكام طبقا للشريعة الاسلامية (٣) ،أمّا مهمة المدير فهى تنفيذ هذه الأحكام •

أمّا الشئون المالية والضرائبية فى المديرية فقد اختص بها المباشر أو الباشكاتب وهو الذى كان يتولى تقدير الضرائب وتوزيعها على أقسام المديرية المختلفة ويقوم بعمل حسابات المديرية لتقدم للخزانة العامة فى القاهرة فى الوقت المعين • ويكون ذلك بجمع دفاتر حسابات الأقسام التى تضمها المديرية ،وعمل حساب إجمالى لها فى دفتر خاص يصدق عليه مدير المديرية والحكمدار ويشفع بالمستندات المالية اللازمة ويعاون الباشكاتب فى الشئون المالية والضرائبية الصرّاف ويتولى رؤية الحسابات النقدية فى المديرية • وفى المناطق التى يكثر فيها التعامل

---

(١) يطلق كثير من المؤرخين على دولة سنّار اسم دولة الفونج أو السلطنة الزرقاء لأنّ القائمين على الحكم كانوا من قبائل الفونج •

(٢) عبدالرحمن الرافعى ــ عصر محمد على ــ مرجع سابق (ص١٨٦) •

(٣) انظر د• نسيم مقار ــ الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى ــ مرجع سابق (ص٤٧) •

بالسلع التى تصنع محلياً كالاقمشة ويقدمها الأهالى من حساب الضريبة المقررة عليهم كما هو الحال فى مديرية دنقلة مثلاً، كان يعين فيها صرّاف آخر لرؤية أمور الجوالات والقماش . وكذلك فى المناطق التى كان يكثر فيها التعامل بالذهب والفضة وتكون أكثر المعاملات التى ترد لخزانة المديرية أو تصرف فيها من هذين المعدنين كما فى مديرية سنّار وفازوغلى ، كان يعين منها صرّاف مختص باختيار الذهب والفضة وضبط عيارهما ويعرف بالمعيارجى (١) .

كذلك قسمت المديريات إلى عدد من الأقسام أو المراكز (٢) جعل على كل منها حاكم يعرف بالكاشف أو المأمور أو الناظر وهو ضابط فى الجيش وله سلطات واسعة يستقيها من المدير ويرأس عدداً من العساكر وكاتبين للحسابات وصرّاف (٣) .

هذه الأقسام أو المراكز يضم كل منها عدداً من القرى على كل قرية منها شيخ يختاره القرويون ليمثلهم ويكون مسئولاً عنهم أمام الكاشف أو المأمور .

كذلك كان على كل قبيلة من قبائل البدو الرئيسية شيخ مسئول أمام حاكم المنطقة التى تعيش فيها القبيلة .

وكانت مهمة الكاشف أو المأمور أو الناظر (وهذه كلها تسميات لوظيفة واحده) هى الاشراف على شئون الزراعة والأمن فى مركزه وتحصيل الضرائب بمعاونة الجند ومشايخ القرى .

ولقد كان للمشايخ وغيرهم من الزعماء المحليين نصيب فى ادارة شئون البلاد وخاصة فيما يتعلق بشئون جمع الضرائب وغيرها من المطلوبات الحكومية من المواطنين . هذا وقد كان بعض الحكمداريين

---

(١) انظر نسيم مقار - الأسس التاريخية للتكامل - مرجع سابق (ص ٤٩ - ٥٠).
(٢) قسمت مديرية كردفان مثلاً إلى خمسة مراكز .
(٣) انظر ضرار صالح ضرار - تاريخ السودان الحديث - مرجع سابق (ص٥٢) .

يأخذون برأى الثقاه منهم فى بعض المشكلات العامة كمشكلة المتأخرات من الضرائب وفرار الأهلين من دفعها .

وبصفة عامة حرصت الادارة المصرية فى السودان على الابقاء على المشايخ والملوك الذين أظهروا الولاء خلال عمليات ضم الأقاليم السودانية فى مراكزهم يتمتعون بشىء من السلطة ليعاونوا رجالها من المديرين والكشاف فى الحكم .

لعل أبرز ميزات هذا النظام الذى وضعته الادارة المصرية لحكم السودان وذلك بتقسيمه إلى أقسام إدارية لكل منها إدارة محلية ،للعنصر الوطنى نصيب فيها،وتمثل الحكومة المركزية فى الخرطوم ،ويخضع الجميع لأوامرها وتعليماتها - لعل أبرز ميزاته - أنّه يجعل جميع المواطنين فى مختلف المناطق والجهات التى شملتها الادارة المصرية مسئولين مسئولية مباشرة أمام حكومة وادارة واحده ،وبذلك أخذ نظام القبائل والعشائر والخضوع لزعامات مختلفة فى الزوال التدريجى ممّا مهد فى نهاية الأمر السبيل لوحدة البلاد وقيام دولة تشرف على جميع نواحى الحياه الإجتماعية والإقتصادية والسياسية وتعمل على تقدمها .

ويرى الدكتور زاهر رياض أنّ العلاقة بين المشايخ والمأمورين أو علاقة هؤلاء المأمورين بالحكمدار لم تكن واضحة ،فبينما كان الحكمدار يحاول أن يجعل نفسه مركز السلطة فى السودان ومنه تصدر الأوامر إلى المأمورين ،كان هؤلاء الأخيرون يحاولون التخلص من سلطته بالكتابة إلى القاهرة رأساً (1) .

والملاحظ على هذا النظام الادارى الذى طبقه قادة محمد على فى السودان أنه لنظام يكاد يكون مطابقاً للنظام الذى أنشأه محمد على فى مصر،فنظام الادارة المصرية بالسودان قام على بسط السلطة الادارية الحكومية فى كافة أوجه النشاط الادارى وفى مختلف مناطق السودان بقدر ماتسمح به إمكانيات هذه الادارة وو سائل المواصلات القائمة فى هذا البلد.

---

(١) انظر زاهر رياض- السودان المعاصر - مرجع سابق (ص ٦٩) .

وهذا الاتجاه الادارى إنما ينبع من الجهاز الادارى الذى أقامه محمد على فى مصر والذى ارتبط بتنظيم مصر تنظيمًا شاملًا بغية استغلال مواردها جميعها والسيطرة على مناطقها كلها،هذا التنظيم الذى شكّل جانبًا أساسيًا فى قيام دولة مصر الحديثة (١) .

وقد اعتبر محمد على الأقطار السودانية جزءًا من الأقطار المصرية تسرى فيها جميعها نظم واحده ويجرى الانفاق عليها من خزينة واحده" (٢) .

حكمدارية عثمان بك جركس البرنجى (٣) :

جاء ليحل محل الدفتردار فى حكم السودان ويعتبر بذلك ثالث حكمدار ولكن بعض المؤرخين يعتبرونه أول حكمدار لأنّ ملامح النظام الادارى قد اتضحت فى عهده بينما اقتصرت جهود اسماعيل والدفتردار على الفتح وتثبيت السلطة . ولكنى أرى خطأ هذا الرآى لأنّ تعيين اسماعيل باشا كأول حكمدار قد جاء من السلطان العثمانى إلى محمد على . أمّا الدفتردار فلم يحاول محمد على ابعاده عن ادارة البلاد إلا بعد أن ارتبط فى أذهان السكان بعملياته الانتقامية البشعة .

وصل جركس إلى السودان سنة ١٨٢٤م . وكانت الحالة آنذاك فى السودان قد وصلت إلى درجة تحتاج إلى شخص معتدل وحازم يبعث فى النفوس الطمأنينة ويعيد الثقة بين الحكام والمحكومين ويقضى على عوامل الفوضى والاضطراب التى أوجدتها حملات الدفتردار الانتقامية . وقد أرسلت مع عثمان بك جركس قوة من الجيش المصرى الجديد الذى أعيد تنظيمه

---

(١) انظر د. ابراهيم شحاته حسن ـ مصر والسودان ـ مرجع سابق (ص ١١١).

(٢) د. محمد فؤاد شكرى ـ مصر والسودان الوضع التاريخى للمسألة مرجع سابق (ص ٩ ـ ١٠).

(٣) اضطلع فى البداية بقيادة الألاى المصرى الموجود فى السودان ثم تولى الحكم بعد استدعاء الدفتردار . توفى بالجدرى ودفن فى الخرطوم وقد ترك ولدًا وبنتًا . انظر عبدالرحمن زكى ـ حكمدارو السودان ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الأول ١٩٤٨ ـ مرجع سابق (ص ٤٢٩) .

وتدريبه على الأُسس الحديثة التى كانت متبعة فى ذلك الوقت فى الجيوش الأُوربية (١) .

كما أُرسلت معه نخبة من المعاونين لمساعدته فى تنظيم الادارة فى سنّار ومن هؤلاء سليمان بك الخربوطلى الذى عين قائمقام فى الابيّض (٢) ..

وجد عثمان أن واد مدنى لاتصلح كمركز لادارة الأُقاليم السودانية التى امتدت إليها الادارة المصرية ،ولفت نظره موقع قرية صغيرة على النيل الأزرق على بعد ميل تقريباً من نقطة التقائه بالنيل الأبيض ،وكانت هذه بداية نشأة مدينة الخرطوم التى أُخذت تنمو بسرعة حتى أُنّ بعض الذين زاروها سنة ١٨٢٦م دهشوا من التغيير الذى طرأ عليها فى خلال عامين فقط من اختيار عثمان جركس لها كمركز لادارته .

وكان اختيار هذا المكان للعاصمة الادارية اختياراً موفقاً فهو مكان وسط بالنسبة للسودان وعلى الطريق الرئيسى للقوافل المتجهة إلى القاهرة كما إنّها فى مفترق الطرق النهرية للجنوب (٣) .

رسم عثمان بك جركس خطته لوضع الضرائب الجديده بعد حقبة الاضطراب والفوضى ووصف بانه " كان فظّاً غليظ القلب نكل بالناس أُثناء زياراته فى الجزيرةواقليم القضارف واتسم عهده بالظلم والقسوة التى عرف بها عهد الدفتردار،وقيل أُنهقبل أن تتم له اقامة ثمانية أُشهر فى اقليمه الجديد أُصيب بداء السل (٤) وقضى نحبه وكان أُول دفين من الحكام فى العاصمة التى أُسسها (٥) .

---

(٢) د. شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل ـ مرجع سابق جـ٢ (ص ٤٦) .

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) يذكر د. جلال يحيى أنّ عثمان جركس مات مقتولاً سنة ١٨٢٦م انظر مصر الأفريقية ـ مرجع سابق (ص ٣٦) كما أنّ عبدالرحمن زكى قد ذكر انه مات بالجدرى كما سبق فى ترجمته .

(٥) السودان عبر القرون ـ مرجع سابق (ص ١٢٥)، عبد الرحمن الرافعى عصر محمد على ـ مرجع سابق (ص ١٨٩) .

وقد عم البلاد القحط والوباء فى أيامه[1] .

حكمدارية محو بك :

علم محوبك مدير بربر بوفاة عثمان بك جركس حكمدار السودان فخف فى الحال إلى الخرطوم واستلم الحكومة إلى أن ورد الأمر بتعيينه حاكماً على سنّار خلفاً لعثمان بك. بعدها رجع إلى بربر وأقام بها مدده ثم قفل راجعاً إلى الخرطوم ليقيم بهانهائياً .

قضى محو بك فى الحكمدارية بضعة أشهر وكان رجلاً عادلاً حيث غيّر السياسات الظالمة ،وأغرى الأهالى بالرجوع إلى أوطانهم التى هجروها بسبب حملات الدفتردار من ناحية وفداحة الضرائب التى وضعها عليهم عثمان جركس من ناحية أخرى . كما منع عساكر الجهادية من التعدى على الأهالى. وقد حالفه الحظ فى يمنه بان هطل الغيث وفاض النهر ودر الضرع وعم الرخاء بعد ايام القحط والجدب والمرض التى شملت عهد عثمان جركس[2] .

ويعتبر محوبك أول من فكر فى اشراك الأهلين فى حكومة بلادهم اشراكاً حقيقياً وقد هدته حصافته إلى الاستعانة بآراء الشيخ عبدالقادر الزين شيخ مشايخ الجزيرة ـ هذا وقد بنى محو بك بناية خاصة للادارة الحكومية فى الخرطوم[3] ،كما بنى شكنة لاقامة الجند وأمر بحفر الآبار فى المناطق البعيده عن النيل والتى تقع فى طريق القوافل أوالتى يتجمع فيها عدد من الأهالى وذلك لتوفير المياه الصالحة للشرب[4] .

وقد أُطلق على منصب محوبك ناظر بلاد السودان حيث أنّ كردفان كانت تحت ادارة سليمان بك الخربوطلى ـ كما سبقت الاشارة ـ وكان يحكمها

---

(١) د. محمد صبرى ـ الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر القاهرة ـ مطبعة مصر ١٩٤٨م (ص١٠) .

(٢) د. مكى شبيكة ـ السودان عبر القرون ـ مرجع سابق (ص١٢٠) .

(٣) انظر شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل ـ مرجع سابق (ص٢٧) .

(٤) عبدالرحمن الرافعى ـ عصر محمد على ـ مرجع سابق (ص١٩٠) .

طوال فترة عثمان بك جركس ومحوبك . وفى خطاب مرسل للمعية[(١)] من حاكم كردفان سليمان بك الخربوطلى يذكر فيه أنّها عانت الكثير بسبب القحط الذى اجتاحها لعدم نزول أمطار لمدة عامين ممّا ترتب عليه جفاف كثير من المحاصيل التى زرعها المصريون فى الوديان حول مدن باره والطياره وغيرها من مدن كردفان – لكن الأمن الذى ساد المنطقة والجهود التى بذلتها الادارة الجديدة ساعدت على تخفيف وطأة المجاعة . كما أرسل سليمان بك لمصر عينة من الحديد من جبال كردفان لاختبارها وكذلك كمية من الصمغ العربى وريش النعام والعاج[(٢)] .

حكمدارية على خورشيد[(٣)] :

فى ٢٨ من ربيع الأول سنة ١٢٥١هـ الموافق ٢٤ يوليو ١٨٢٥م عيّن محمد على باشا ابن أخته خورشيد باشا حكمداراً على السودان وبعث إليه بالخطاب التالى :

" حضرة أمير الأمراء الكرام وكبير الكبراء الفخام وصاحب المجد والاحتشام خورشيد باشا مدير الأقاليم السودانية الجسيمة التى هى احدى الأقاليم المصرية الممنوح له لقب حكمدار تلك الأقاليم منعماً عليه برتبة الميرميران (أمير لواء) الجليلة دام اقباله . اعلم أنّ توجيه همتك إلى العناية بسكنة هذه الأقاليم التى كلفت بتنظيم أمورها تنظيماً حسناً وبادارة شئونها ادارة طيبة ،وكذلك نجاحك فى القيام بخدمات تشكر عليها فى هذا السبيل بفضل الكفاءة التى هى صفة خالده تلازم شخصك دواماً وبفضل النبوغ الذى يشرق فى جبينك دائماً ،قد زاد عطفى الخاص

---

(١) لفظ المعية يقصد به الخديو وحكومته .

(٢) انظر شوقى الجمل – تاريخ سودان وادى النيل – ج ٢ مرجع سابق (ص ٤٧) .

(٣) ابن شقيقة محمد على – تولى الحكم بعد محوبك – نال رتبة البكوية ثم الباشوية . وصفه الرافعى بانه أعظم ولاة السودان شأناً وأنبههم ذكرا وأحسنهم سيرة وأطولهم عهداً . انظر عبد الرحمن الرافعى – عصر محمد على – مرجع سابق (ص ١٩٠) .

عليك حتى أصبح اعجابى بك مضاعفاً ،فوجب أن أكافئك بمكافأة اظهار أ لهذا الاعجاب،فأصدرت أمرى اليك لتبشيرك بأننى مع ابقائك مديراً لهذه الأقاليم قد أنعمت عليك برتبة الميرميران الجليلة وبوسام رفيع مرصع بالجواهر من هذه الرتبة ،فاذا علمت أنّ هذا الانعام مما يشرح صدرك ويعلى جبينك ويرفع اسمك حتى يصل عنان السماء،فأرنى نشاطك فى هذا السبيل أيضاً،تقديراً من بعد الآن لهذا العطف الجليل الذى بزغت شمسه عليك بهذا البزوغ الجميل،وقم بجولات متواصلة فى فيافى البلاد السودانية ليلاً ونهاراً كالأنجم السيارة السبعة فى سبيل تمشية أمور البلاد تمشية حسنة والعناية بها كل العناية ،وسس كافة الأهالى بسياسة طيبة واجعل الاهتمام ببسط العمران والرفاهية فى هذه الأقاليم كالأقاليم المصرية نصب عينيك كما هو المنتظر منك من بعد الآن حتى تستحق به المزيد من عطفى الذى مازال متجلياً عليك من القديم بلا شك فينبغى أن تعمل بهذا الأمر فتجنب المخالفة " (١) .

ومن هذا الخطاب يمكن أن نخلص إلى عدد من الملاحظات منها :

(١) الانعام الذى كان ينعم به محمد على – من الرتب والنياشين – على ولاته حتى يقوموا بأعمالهم كاملة وأسلوب التشجيع والمكافآت يعتبر من الأساليب الفعالة فى نظم الادارة .

(٢) أمر محمد على هذا الحكمدار بالقيام بجولات تفتيشية فى بلاد السودان وذلك بقصد تسيير أمور البلاد والوقوف على مشكلاتها .

(٣) توجيه الحكام بسياسة الأهالى سياسة طيبة والعمل على راحتهم .

(٤) يعتبر محمد على أنّ الأراضى السودانية جزءاً من الأقاليم المصرية ولذلك نجده يسعى لتطويرها وتعميرها مثلما فعل بمصر .

هذا وقد وصل خورشيد باشا إلى السودان فى سنة ١٢٥١هـ (٢) وتسلم

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى – الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ – ١٨٨٥م – دار الفكر العربى ١٩٤٧م (ص ٢٤٥ – ٢٤٦) .

(٢) انظر مخطوطة كاتب الشونة (ص ١٢٠) .

الادارة من محو بك وشملت ادارته فى البداية الخرطوم وسنّار . أمّا كردفان فقد كانت فى ذلك الوقت تحت ادارة رستم بك خلفاً لسليمان بك الخربوطلى وكانت اتصالاته تتم مع القاهرة مباشرة . (١)

توسعت ادارة خورشيد بعد ذلك حيث شملت فى سنة ١٨٢٦م اقليم بربر الذى كان تحت ادارة محوبك . وفى سنة ١٨٣٢م أُضيفت إليه كردفان التى كانت تحت ادارة رستم باشا . ثم تلاها اقليم دنقلة فى سنة ١٨٣٣م فأُصبح مديراً للسودان بلقب باشا . (٢) ويبدو أنّ محمد على قد أُدرك أنّ تركيز الادارة فى يد خورشيد القريب من مركز الحوادث، أُفضل من تقسيم السودان لادارات متعدده ومنفصلة تتلقى أُوامرها من القاهرة رأساً .

بمجرد وصول خورشيد إلى الخرطوم عقد مجلساً مع كبار ضباط جيشه لبحث حالة الاقليم الذى وقع تحت ادارته، والوسائل المقترحة للنهوض به وقد أبرق خورشيد لمحمد على بتقرير حول هذا المجلس. وعقد محمد على جلسة خاصة لمجلس المشورة (٣) لبحث هذا التقرير . وقد حضر هذه الجلسة الدفتردار وحنّا الطويل وموسى الكاشف وغيرهم ممن كانوا بالسودان .

وقد أُشار التقرير بنوع خاص للحالة الاقتصادية ولعجز الأُهالى عن دفع المطلوب منهم من الضرائب. (٤) وقد تحدث موسى الكاشف فى هذا الاجتماع قائلا : " أمّا الحكام الذين كانوا هناك (يقصد فى السودان) منذ مده عثمان بك جركس لغاية الآن،لم يبحثوا عن شئ ما ولم يقوموا بأى عمل فلم تعمر البلاد وظلت آخذه فى الخراب ـ أُعنى ذلك أنّه عند

---

(١) انظر عبدالرحمن زكى ـ حكمدارو السودان ـ المجلة التاريخية المصرية جـ١ مرجع سابق (ص ٤٢٩) .

(٢) انظر د. شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل جـ٢ مرجع سابق(ص ٤٨).

(٣) مجلس المشورة نواه لنظام نيابى أُنشأه محمد على بمصر سنة ١٨٢٩م ويضم العلماء وكبار موظفى الحكومة وأُعيان القطر المصرى ويرأسه ابراهيم باشا ابن محمد على . عدد أُعضائه ١٥٦ عضواً منهم ٣٣ من كبار العلماء والموظفين و ٢٤ من مأمورى الأُقاليم و ٩٩ من كبار أُعيان القطر المصرى . انظر عبدالرحمن الرافعى ـ عصر محمد على ـ مرجع سابق (ص ٦٠٨) .

(٤) انظر د. شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل جـ٢ مرجع سابق (ص ٤٨) ومابعدها .

بفصل أي حاكم وتعيين آخر بدلاً منه ،لم تكن تجرى بينهما محاسبة ولاكان الحاكم المفصول يسلّم البلاد إلى خلفه ... وقد طُلب استخدام كتّاب فاذا تم هذا التفتيش كما يريده مولانا فان الكتّاب المرسلين إلى تلك الديار سيوزعون على الأعمال التى تحتاج إليهم لاحتياج البلاد الى أمثالهم ،لأنّ الاقليم ملك فسيح،وقد كان علم الكتابة مهملاً فى العهد القديم ،وقد طلبنا الآن كتاباً للحاجة الماسة بهم (هكذا) ولضبط أمور الديوان "(١) .

كان خورشيد رجلاً حليماً متديناً كريماً،عمل جهده فى رفع المعاناه عن الناس بعد المجاعة التى اجتاحت البلاد سنة ١٢٤٠ - ١٢٤١هـ وممّا قام به فى هذا المجال أشار إليه كاتب الشونة بقوله :"إنّ الأمير خورشيد باشا لمّا كثر التعب على المسلمين أُخرج ماية أردب من نفسه وتصدق بها وأمر ببيع ماية (هكذا) مثلها من الديوان لأجل بيعه للسعة على المسلمين،وأمر بصلاه الاستسقاء وخرج لها وصلاها وهو فى غاية الشفقة على المسلمين "(٢) .

اضافة إلى ذلك عمل خورشيد بنصيحة سلفه محو بك باشراك العناصر الوطنية فى الادارة فاتخذ الشيخ عبدالقادر الزين مستشاره الأول فى شئون الحكم وادارة البلاد(٣) . وبمعاونة الشيخ عبدالقادر بدأ خورشيد فى حل المشكلات التى جابهته،وكانت أهمّ تلك العقبات هى فرار السودانيين من أوطانهم إلى تخوم الحبشة ودارفور والبحر الأحمر حول سواكن التى كانت تحت حكم العثمانيين وواليهم فى جده ،وكان من آثار تلك الهجرات أن قلّ الزرع واستغلال الأراضى وهرب عدد من الرعاة بثروتهم الحيوانية وقلّ السكان فى القرى وتعذّر جمع الضرائب(٤) .

---

(١) الشاطر بصيلى عبدالجليل - معالم تاريخ سودان وادى النيل مرجع سابق (ص ١٤٣) .

(٢) مخطوطة كاتب الشونة (ص ١١٩) .

(٣) انظر ضرار صالح ضرار - تاريخ السودان الحديث - مرجع سابق (ص ٦٠)، د. مكى شبيكة -مختصر تاريخ السودان الحديث مطابع دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٥م ص ٢٨.

(٤) المرجع السابق (ص ٦١) .

أشار الشيخ عبدالقادرعلى خورشيد بأن يعفى مشايخ القبائل من الضرائب وكذلك الفقهاء لأنه إذا اطمأن هؤلاء لنزاهة الحكم اطمأنت العامة وعادوا إلى أوطانهم . كذلك اقترح عليه بان تلغى متأخرات الضرائب وأن يعطى الأمان لكبار الزعماء الفارين ومن معهم . وسار هو شخصياً كرسول من خورشيد إلى بعض هؤلاء الزعماء . كذلك أقنع الشيخ عبدالقادر خورشيد باشا بعدم تطبيق التجنيد الاجبارى الذى كان محمد على قد طبقه فى مصر وطلب من خورشيد تطبيقه فى السودان.(١)

كذلك طلب خورشيد أن ترسل له من مصر طائفة من المزارعين لتدريب الأهالى على الزراعة واستطاع بذلك أن يتوسع فى زراعة الشعير والذرة والقطن والقمح والنيلة وغيرها من المحاصيل التى أخذت تزدهر فى السودان(٢) اضافة إلى الموالح وغيرها من الفواكه . وقد تحقق ذلك بفضل توفير مياه الرى بحفر الترع وتعميم استخدام السواقى . كما اهتم أيضاً بالثروة الحيوانية ومنتجاتها، كذلك أرسل إلى مصر بعض السودانيين لتعلم بعض الصناعات والحرف وممارستها فى بلادهم .(٣)

كما قام خورشيد بتوسيع فتوحات مصر فاحتل القلابات فى شرق السودان وكان موقعها هاما من الوجهة الحربية والاقتصادية لوقوعها بالقرب من حدود الحبشة، فجعل بها حامية ثابتة . وأخضع جبال قلى وغزا قبائل الشلك وقبائل سيدرانه.(٤)

أما فى مجال المواصلات فقد نجح خورشيد إلى حد كبير فى تيسير المواصلات النهرية بين مصر والسودان، بالاضافة لربط أجزاء السودان الشمالى التابعة للادارة المصرية ببعضها عن طريق السفن النيلية، وقد أخضع

---

(١) نعوم شقير – تاريخ السودان – مرجع سابق (ص ٢١٨).

(٢) ذكر الدكتور مكى شبيكه أن الخولية الذين أرسلوا من مصر كان عددهم يفوق المائة . انظر السودان عبر القرون – مرجع سابق (ص ١٢٨).

(٣) انظر د.شوقى الجمل – تاريخ سودان وادى النيل ج٢ مرجع سابق(ص ٤٨) .

(٤) انظر عبدالرحمن الرافعى – عصر محمد على- مرجع سابق (ص١٩٠) .

مناطق الجنادل الصخرية التى تعترض مجرى النهر من جنوب أسوان إلى الخرطوم . كما أقام على النيلين الأبيض والأزرق مراسى صالحة لاستقبال السفن النيلية واصلاحها وعلّم بعض الأهالى الصناعات المتعلقة بالسفن والملاحة بجانب من أمدته بهم مصر من الفنيين والخبراء فى هذه الصناعات (١).

وبذل خورشيد جهداً كبيراً فى تعمير البلادكما عمّر مدينة الخرطوم وبنى بها مسجداً، أقيمت أول جمعه به فى ٧ جمادى سنة ١٢٣٥هـ (٢). كما نظّم دواوين الحكومة وعلّم الأهالى استخدام الطوب والأخشاب فى المبانى بعد أن كانوا يبنون بيوتهم بالغاب والجلود (٣).

هذا وقد وصل سكان الخرطوم فى فترة حكمدارية خورشيد إلى خمسة عشر ألفاً . كما أسس خورشيد كذلك سراى من دورين للحكومة وثكنة للجنود فى شرقها،كما أنشأ بها مصنعاً للبارود (٤).

وفى سنة ١٨٣٨م مرض خورشيد مرضاً شديداً فالتمس من محمد على اعفاءه من منصبه والسماح له بالرجوع إلى القاهرة فوافق محمد على على طلبه ،ولكنّه قبل توجهه إلى القاهرة سمع أنّ الأحباش يعدون جيشاً كبيراً للاغارة على السودان فاستنجد بمحمد على الذى اهتم بالموضوع وبعث له بقوة عظيمة على رأسها قائد برتبة أمير لواء هو أحمد باشا المعروف بأبى ودان . وتحرك خورشيد باشا رغم مرضه بجيشه إلى حدود الحبشة ولكن الاحباش يخرجوا للقائه فعادإلى الخرطوم وتقابل مع أحمد باشا أبوودان فى واد مدنى (٥) . ومنها اتجه إلى الخرطوم ثم القاهرة .

---

(١) انظر د. شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادي النيل جـ٢ ـ مرجع سابق (ص ٤٩) .

(٢) انظرمخطوطة كاتب الشونة (ص ١٢١) .

(٣) انظر مكى شبيكة ـ السودان عبر القرون ـ مرجع سابق (ص ١٢٧) .

(٤) د. شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل(جـ٢ ص ٤٩) وعبدالرحمن الرافعى ـ عصر محمد على ـ مرجع سابق (ص ١٩٤) .

(٥) انظر د. مكى شبيكة ـ السودان عبر القرون ـ مرجع سابق (ص ١٣٢) .

وقد وصف الشيخ أحمد كاتب الشونة وداع الأهالى لخورشيد باشا بقوله :

"إن رحيله صعب على الأهالى جميعاً وصاروا يتباكون بالدموع حتى قيل أنّ الشيخ عبدالقادر الزين هجر نفسه من الأكل والشراب يومين حزناً على فراقه " (١) .

هذا وقد شهد لخورشيد الأجانب الذين زاروا السودان خلال فترة ادارته . وقد استرعى انتباههم التغيير الذى شمل مختلف نواحى الحياة فى السودان والأمن الذى أصبح مستتباً يعكس ماكان معروفاً فى الماضى (٢) .

تحدث هؤلاء الأجانب عن ظاهرة الرق التى لاحظوها فىالمجتمع السودانى كما لاحظوا كذلك أنّ بعض الجند والضباط يعطون رواتبهم رقيقاً لانقداً فنقلواهذه الملاحظات إلى قنصلإنجلترا العام فى مصر المستر كامبل الذى كان يتمتع بثقة محمد على وتقديره - فنقل بدوره هذه الملاحظات إلى محمد على الذى تأثر وكتب إلى الحكمدار فى السودان يأمره بابطال ذلك وعندما استلم الحكمدار هذا الأمر جمع مجلساً كبيراً للنظر فيه وفى بعض الأمور الأخرى التى تتعلق بالأمن العام والمالية . فاجتمع المديرون فى الخرطوم ومعهم ٢٧ من مشايخ الأخطاط والأقسام على رأسهم شيخ مشايخ جزيرة سنّار الشيخ عبدالقادر الزين وقرروا العمل بالأمر الكريم وتوزيع هذا الرقيق على الجهات ليباع،وتدفع أثمانه مرتبات (٣) .

وهذا الاجراء فى اعتقادى نوعمن التحايل على النظام،فبدلاً من الغاء الرق وتحرير هؤلاء المساكين بيعواودفعت أثمانهم مرتبات للجند .

وقد كان هذا المجلس أول مجلس من نوعه يعقد فى الحكمدارية

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة (ص٥٠) .

(٢) من هؤلاء الأوربيين الذين زاروا السودان فى هذه الفترة رويل الالمانى وادولف ينات دى يلفوڤ والرحالة الفرنسى كومب وبالم وهوسكنس الانجليزى وعالم الآثار ليسيوس.

(٣) انظر د. مكى شبيكة - السودان عبر القرون - مرجع سابق (ص ١٣١) .

للنظر فى الشئون العامة ٠

وبعد سفر خورشيد إلى القاهرة خلفه على الحكمدارية أحمد باشا أبو ودان ٠

حكمدارية أحمد باشا أبو ودان [١] :

يعتبر أحمد باشا من أقدر حكام السودان ٠ ودامت فترة حكمه للسودان خمس سنوات تقريبا ، حيث تولى الحكم فى ربيع الأول سنة ١٢٥٤هـ اثر مغادرة خورشيد إلى مصر ٠ وقد أوصاه خورشيد بالشيخ عبدالقادر الزين فقربه ، ولم يقطع أمرًا يتعلق براحة الرعية إلا بمشورته ، وشرع فى الحكم بحسن سياسة وبعد نظر ، فنظم الدواوين والمديريات وحسن حال الكتبة والموظفين ٠ ثم التفت الى أمر الضبط والربط فمنع تعدى العساكر على الفلاحين [٢] ووطد الأمن فى البلاد ، حتى أمن المسافر والمقيم فى كل نواحى البلاد [٣] ٠ " وبذلك اطمأن الأهالى وزادت عمارتهم وخصبت أرضهم حتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وأوقع الله هيبته فى قلوب العباد ومع أنه لم يكن بذىء اللسان ولاسفاكًا للدماء ، بل كان وقورًا كثير الصمت وكانت أوامره ونواهيه مقصورة على ماقل ودل كقوله افعلوا أو لاتفعلوا ، ولم يجسر أحد على مخالفتها ٠ وسرت هيبته إلى جميع فروع الحكمدارية حتى قيل أن الموظفين والمأمورين فى الجهات كانوا يتوهمون أنه مقيم بينهم

---

(١) أحمد باشا جركس المعروف بأبى ودان كان من مماليك مصطفى بك شقيق زوج محمد على ٠ اقترن باحدى بنات محمد على ٠ رافق ابراهيم باشا فى حملة الشام كما اشترك فى حروب الحجاز ٠ أرسل إلى السودان على رأس قوة من الجيش لمساعدة الحكمدار خورشيد باشا وتسلم الحكمدارية منه ٠ فى عهده زار محمد على السودان ٠ توفى بالحمى وقيل أنه مات مسموما بواسطة زوجه وكانت وفاته فى رمضان سنة ١٢٥٩هـ ٠ شيدت له زوجته مقبرة رائعة البناء فى الخرطوم ٠ انظر عبدالرحمن زكى ـ حكمدارو السودان ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الأول ـ مرجع سابق (ص ٤٣٠ ـ ٤٣١) ٠

(٢) انظر عبدالرحمن زكى ـ حكمدارو السودان ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الأول ١٩٤٨م (ص ٤٢٨) ٠

(٣) انظر د٠شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل (٢/٥٠) ٠

يسمع ويرى فيحذرون فيما يفعلون كل الحذر "(١).

وقد تم في عهد أحمد باشا فتح التاكة واخضاع الاقليم الشرقي وزيارة محمد على للسودان .

زيارة محمد على للسودان :

بعد نحو عشرين عاماً تقريباً من امتداد الادارة المصرية إلى السودان .. قام محمد على باشا في أكتوبر سنة ١٨٣٨م برحلة إلى السودان وكان عمره إذاك سبعين عاماً تقريباً ،وقد تحمل في هذه الرحلة الكثير من المشقات والصعاب وكاد يهلك غرقاً في النيل بسبب إنكسار سفينته (٢) .

وقد نشرت جريدة الوقائع المصرية نص تقرير هذه الرحلة (٣) .

هذا وقد اختلف المؤرخون في أهداف هذه الرحلة إذ يرى محمد فؤاد شكري أنَّ محمد على باشا عندما فتح السودان كان يستند الى نظرية "الخلو" بمعنى أنَّ محمد على عندما فتح السودان كان السودان خالياً من تبعيته لأية سلطة وعليه كان غرض الباشا من رحلته اذاعة نظرية الخلو والاستناد عليها في صون وحدة وادي النيل ،أي بقاء شطريه

---

(١) نعوم شقير – تاريخ السودان – مرجع سابق (ص ٢٢٠) .

(٢) انظر شوقي الجمل – تاريخ سودان وادي النيل (٥٢/٢).

(٣) عدد رقم ٦١٨، صدرت بالاسكندرية في ٦ صفر ١٢٥٥هـ الموافق ٢١ أبريل ١٨٣٩م . انظر د. محمد فؤاد شكري – مجلة كلية آداب القاهرة العدد الثامن المجلد الثاني (ص ٤٤) وهذا النص موجود في مركز أبحاث تاريخ مصر المعاصر، عملية السودان ،رحلة ساكن الجنان مولانا الكبير محمد على الى السودان – مترجمة عن وثيقة تركية – محفوظة في ملف المتفرقات من المحفظة نمرة ١٢٣ عابدين . انظر د. حسن أحمد ابراهيم – رحلة محمد على باشا إلى السودان ١٨٣٨ – ١٨٣٩م – كراسة رقم ١٥ معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية – جامعة الخرطوم (ص ٣٢) .

مصر والسودان فى نظام سياسى واحد [١] .

على أنّ معظم المؤرخين يرون أنّ محمد على فى هذا العام كان يمر بأزمة مالية حاده دفعته إلى البحث عن مصادر ذات عائد سريع . ولمّا كانت له محاولات لاستخراج الذهب فى السودان فقد قام بهذه الرحلة ليقف بنفسه على هذا الموضوع [٢] . ويدلل مكى شبيكة على أزمة محمد على المالية بأن جيوش محمد على كانت تحتل سوريا منذ ثمان سنوات وتضخمت المصروفات دون أن توازن بما يعادلها من ايرادات ولذا كان الباشا يلح على أحمد باشا حكمدار السودان فى ارسال الصمغ ليفرج بعض الشىء من الضائقة المالية . ولمّا طلب أحمد باشا ربط مرتبات لمشايخ القبائل والقرى أبدى الباشا اعتراضه دون أن يمنعه منعاً باتّاً . وأخيرا فكّر فى الاهتمام بأمر المعدن ورأى أن يقوم برحلة إلى السودان خصيصاً لهذا الغرض. وطلب أولاً أنْ يأتى إلى مصر مصطفى بك الذى كان مشرفاً على شئون المعدن وسافر بالفعل بمعية خورشيد [٣] .

ولعل محمد على باستدعائه للمشرف على شئون المعدن أراد أن يأخذ تقريراً قبل سفره .

وتقرير الرحلة يؤكد على الغرض الذى من أجله قامت إذ يقول :

" ويتضح من هذا أن معدن الذهب موجود بالفعل فى هذه البلاد ولهذا اعتزم جنابنا العالى زيارة السودان لما فى هذه السياحة من مبررات حسنة . وقرر الوصول إلى حقيقة هذا التبر [٤] " .

---

(١) د.محمد فؤاد شكرى ـ مصر والسودان،تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ـ القاهرة ١٩٥٨م (ص ١٢) . والغريب أن الدكتور شكرى نفسه ينقل عن محمد على فى موضع آخر أنّ هدف رحلته الحصول على المال حتى يتمكن من إرضاء الباب العالى أو الانفصال عنه . انظر مجلة آدب القاهرة ـ الجزء الثامن ـ المجلد الثانى (ص ٣٥ ـ ٣٦) .

(٢) انظر المؤرخون شوقى الجمل ـ تاريخ سودان وادى النيل (٢/٥٢،٥٣)، نعوم شقير ـ تاريخ السودان (ص ٢٢)،مكى شبيكة ـ السودان عبر القرون (ص١٣٤)،د. حسن أحمد ابراهيم ـ رحلة محمد على باشا إلى السودان (ص ١٤) .

(٣) انظر مكى شبيكة ـ السودان عبر القرون ـ مرجع سابق (ص ١٣٤) .

(٤) د.حسن أحمد ابراهيم ـ رحلة محمد على باشا إلى السودان ـ مرجع سابق (ص ١٤) .

كذلك قابل محمد على فى رحلته هذه المشايخ المحليين فقد استقبل الشيخ عبدالقادر الزين والشيخ إدريس ولد عدلان شيخ الهمج والشيخ أحمد أبو سن شيخ الشكرية وسائر مشايخ العربان والقرى فقابلهم بالبشر والايناس وأمر لهم بالكسى على حسب رتبهم (١) .

تبين لمحمد على من خلال لقاءاته مع الأهالى والحكّام استغلال كثير من الموظفين لسلطتهم من أجل الاثراء والاتجار فى الرقيق إلى حد أن ارتفعت الأصوات بالشكوى منهم . فألغى محمد على منصب الحكمدار وجعل أحمد باشا مديراً للخرطوم وسنّار والجزيرة وجعله كما جعل بقية المديرين يتصلون به فى القاهرة رأساً فى كل أمر من أمورهم كى يأخذهم بالشده والحزم وجعل الحكمدار لايزيد عن كونه منظماً للعمل بين المديرين (٢) .

كما عمل محمد على على القضاء على أسباب الاستياء بتقييد سلطة الحكّام والمأمورين، وعزل من ثبت عليه سوء ادارته، كما فعل حين عزل حاكم كردفان وهيئة أركان حربه وعدداً من الكتبة وقدّمهم جميعاً إلى المحاكمة وصودرت أملاكهم ، كما أفهم الباقين أنّ خطة الحكومة ترمى إلى التقدم بهذه البلاد وأهلها نحو الحكم الصالح ، فأوصاهم بتكريم شيوخ السودان ورؤسائه الذين قلدهم الأوسمة وألبسهم كساوى التشريفة وقربهم إلى مجلس الحاكم واستمع إلى آرائهم وطلب منهم النصح فى كثير من الأمور، فكان ذلك سبباً فى اختفاء كثير من أسباب الشكوى (٣) .

وصل محمد على إلى مناطق فازوغلى فى ١٨ يناير ١٨٣٩م بصحبة الحكمدار أحمد باشا وهناك أنشأ مدينة عرفت بمدينة محمد على كانت عبارة عن معسكر متكامل بغرض التنجيم عن الذهب . وقد بنيت فى هذه المدينة مساكن العمال وشيدت المستشفيات وثكنات الجند وقصر محمد على (٤) .

---

(١) انظر نعوم شقير – تاريخ السودان – مرجع سابق (ص ٢٢١) .

(٢) انظر د. زاهر رياض – السودان المعاصر – مرجع سابق (ص ٦٦) .

(٣) انظر المرجع السابق (ص ٧١)، د. جلال يحيى – مصر الأفريقية مرجع سابق (ص ٣٧) .

(٤) انظر د. مكى شبيكة – السودان عبر القرون – مرجع سابق (ص ١٣٥) .

وبعد أن شاهد محمد على العمليات الأولى لتصفية وصهر المعادن قفل راجعاً من فازوغلى إلى الخرطوم التى أقام بها أياما قليلة ،ثم عاد إلى مصر عن طريق صحراء النوبة من أبى حمد إلى وادى حلفا فى مارس سنة ١٨٣٩م وقضى فى رحلته خمسة أشهر (١) .

- فتح التاكة :

بعد سفر محمد على إلى القاهرة فكّر أحمد باشا فى توسيع رقعة ادارته بأن يفتح بلاد التاكة الغنية بمواردها ، فتجهز لذلك وسار بجيشه إلى شندى ومنها الى فوز رجب فخضعت له بعض القرى وتقدم فى هذا الاقليم الشرقى ولم يجد مقاومة إلا من قبائل الهدندوة التى قاتلت الجيش ولكنهم طلبوا الصلح والمفاوضة فتم لهم ذلك (٢) وأقام معسكره فى المنطقة التى عرفت فيما بعد بمدينة كسلا التى أنشا فيها الاستحكامات وشيد بها مبانى لمقر الحكومة وكانت هذه هى بداية تأسيس مدينة كسلا التى أصبحت عاصمة الاقيم الشرقى فيما بعد(٣) .

وقد دهش أحمد باشا لخصوبة الأراضى حول كسلا التى يرويها نهر القاشى وبنى سداً يحول المياه نحو أراضى جديدة حتى تجف الغابات التى كانت ترويها هذه المياه حتى لاتكون كميناً طبيعياً للعربان الخارجين على سلطة الحكومة ووجد أنّ الاهالى يستخدمون أنواعاً من السدود ويزرعون القطن والذرة. ومن الأقاليم التى بسط أحمد باشا سيطرته عليها رتّب مديرية جعل كسلا عاصمة لها.

---

(١) عبدالرحمن الرافعى ، عصر محمد على : مرجع سابق ص ١٩٢. ويذكر الرافعى ان البحث عن الذهب لم يفض إلى نتيجة ترضى محمد على .
(٢) انظر د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، مرجع سابق ص ١٣٦.
(٣) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ، مرجع سابق ص ٢٢٢ .

وبعد أن أقام شهراً ترك بها مديراً وحامية عسكرية ورجع إلى الخرطوم (١)

بعد فتح التاكة رسمت خارطة السودان وقسّمت إلى سبع مديريات وهي فازوغلي وسنّار وكسلا وبربر ودنقله وكردفان . وجعل قمندان الجنود في كل مديرية مديراً عليها وجعلت الخرطوم مركز السودان ومقر الحاكم العام (٢).

بدأت الاشاعات حول نية أحمد باشا أبو ودان في الانفصال بالسودان عن مصر وذكرت تلك الاشاعات أنه بدأ يكاتب سلطان تركيا بذلك فأرسل له محمد علي عدة خطابات لكي يأتي إلى القاهرة ولكنه تباطأ ممّا أزعج محمد علي فأرسل له قوة من الجيش ولكن أبو ودان مات فجأة وقيل أنّه مات مسموماً حتى اضطر محمد علي أن ينفي عن نفسه تهمة قتله وذلك حين قال لورثته " والله العظيم وبالله الكريم أنني لا أحمل في نفسي للباشا المرحوم شيء من السخط ولا أشك في اخلاصه وإني لأقدر مبلغ جهوده وقيمة خدماته وأعرف ما كان يكنه لي من المودة والولاء وأنا واثق من ذلك "(٣) .

وبوفاته تضعضع حال الحكمدارية واختل نظامها واستغل كل مدير بمديريته وصار يفعل فيها مايشاء (٤) .

لقد حذا أحمد باشا حذو خورشيد باشا فأحسن السيرة بين الأهالي وحبب فيه الأمراء ورؤساء القبائل من السودانيين وأتم عمل خورشيد باشا في تعمير مدينة الخرطوم وتنظيم المديريات وضم العرب الرحل الصناريين في أوديتها وبذلك انتظمت اداراتها وجلب من مصر كثيراً من الحيوانات

---

(١) انظر مكي شبيكة : تاريخ السودان عبر القرون ، ص ١٣٧.

(٢) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ص ٢٢٣ ومحمد صبري : الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ص ١٤.

(٣) مكي شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٣٧.

(٤) نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ١٢٣.

والنباتات النافعة فتحسنت الزراعة وارتقت شئونها ونشطت الصناعة في ترسانة الخرطوم واستكثر من السفن الاميرية في النيل وزاد من طرق المواصلات فاتسعت حركة التجارة والمعاملات بين مصر والسودان والبلاد القاصية في أواسط أفريقيا ، وصارت الخرطوم ملتقى المتاجر وكثر ورود التبر وريش النعام والعاج والصمغ إليها (١) .

دفن أحمد باشا في الخرطوم وخلفه في ادارة السودان أحمد باشا المنكلى .

– ادارة أحمد باشا المنكلى :(٢)

بموت أحمد باشا أبو ودان انتهى عهد الحكمداريين العظام في السودان ، ولم يفكّر محمد على في تعيين حاكم قوى الشخصية حتى لاتحدثه نفسه بالانفصال بالسودان عن ادارة محمد على(٣) . ولذلك نجد محمد على يلجأ إلى نظام اللامركزية حيث نجده قد عين أحمد باشا المنكلى منظماً للسودان لاحكمداراً إذ جعل مهمته تنحصر في تنظيم عمل المديرين الذين أصبحوا يتصلون بالقاهرة مباشرة . وكان محمد على قد أصدر امره بتعيين اللواء حسن باشا لمديرية دنقله التى وسعت حدودها حتى المتممة وشندى وأمين باشا للجهات العليا من السودان وهى التى تبدا من المقمة وشندى وتشمل الخرطوم والنيل الأبيض والجزيرة حتى ود مدنى والأقسام الشرقية للنيل الأزرق وسليمان باشا لمديرية سنار وهى مايلى ود مدنى جنوباً من الجزيرة حتى حدود فازوغلى وشرق النيل الأزرق كأقسام القضارف ورشاد وأرض العطيش والقلابات وسليم باشا لمديرية فازوغلى وهى اكمال النيل الأزرق وفرهاد باشا لمديرية التاكة ومصطفى

---

(١) انظر عبد الرحمن الرافعى – عصر محمدعلى – مرجع سابق ص ١٩١.

(٢) أحمد باشا المنكلى من قادة الجيش المصرى فى بلاد الشام والحجاز بتركيا كما شغل منصب ناظر الجهادية بمصر ثم بعد ذلك أصبح حاكماً على السودان . أصيب بمرض الروماتيزم وتوفى بمصر فى مارس سنة ١٨٦٢م ودفن بالامام الشافعى . انظر عبد الرحمن زكى – حكمداروا السودان – المجلة التاريخية المصرية . المجلد الأول ١٩٤٨م ص ٤٣١–٤٣٢.

(٣) انظر مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١١٧ .

باشا لمديرية كردفان[1] .

وكانت وظيفة المنظم هى التنسيق بين عمل هؤلاء المديرين وتوزيع العساكر على مديرياتهم وكذلك توزيع الكتبة والموظفين والمساعدة فى استتباب الامن وكان محمد على يستبشر خيراً بالنظام الجديد ويقر بأن من كانوا يحكمون البلاد قبل هذا النظام وخاصة فى المديريات لم يكونوا من ذوى الكفاءة والمقدرة ويقول للمنظم فى احدى مكاتباته أن بلاد السودان من البلاد التى تدر الكثير من الخيرات غير أن الذين عينوا لادارة مختلف جهاتها حتى الآن لم يكونوا من طراز اللواءات الذين اختيروا أخيرا لتولى شئونها ولذا لم تتقدم البلاد السودانية وظلت فى حاجة إلى الادارة الرشيدة الحازمة "[2] .

لم تكن مهمة المتكلى بالمهمة السهلة ولا كان النظام الجديد بالنظام المفيد كما توقع محمد على . فقد بادره المديريون بعدم الطاعة والانقياد لأوامره لعلمهم أنه ليس حكمداراً ولاسلطة له عليهم وكانوا يتصلون بالقاهرة مباشرة . وأصبحوا مستقلين بمديرياتهم خاصة مدير الخرطوم الذى أعلن للأهالى أنه الحاكم والمتصرف ولاسلطة فوقه فاذا تقدم الأهالى بعرائض شكواهم إلى المتكلى وحولها المتكلى إليه قام هو بالتنكيل بالأهالى لأنهم تجاوزوه . وبلغ من غضب المتكلى على مدير الخرطوم أن شكاه فى مكاتبة طويلة إلى الباشا[3].
ويبدو أن محمدعلى قد أدرك أن الاحوال فى السودان لايمكن أن تصلح إلا بعد عودة الحكمدارية . ولكن من ينتخب لهذا المنصب يجب ألا يكون فى قوة ومطامع أحمد باشا أبو ودان .

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٨.
(٢) دفتر ٦٣٩ معية تركى وثيقة رقم ٣٥٣٧ بتاريخ ٢٤ ذى القعدة ١٢٥٩ هـ نقلاً عن مكى شبيكة: السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٣٩.
(٣) المرجع السابق ص ١٤٠.

على الرغم من ان أحمد باشا المنكلى كان لايتمتع بسلطات واسعة إلا أنه استطاع أن يقضى على ثورة أهالى التاكة وجنودها الذين ثاروا لسوء ادارة الموظفين وعدم كفاءتهم اضافة إلى تأخير مرتباتهم لأكثر من ستة أشهر . حيث جدّد المتكلى جيشاً كبيراً وسار لقتالهم ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الـزين والشيخ أحمد أبوسن كبير الشكرية فأسر رؤوس العصاة وعاد بهم إلى الخرطوم حيث تم اعدامهم (١) .

امتازت فترة المتكلى فى السودان بالاهتمام الزائد بترحيل المواشى من كردفان والنيل الأبيض لمصر وكانت ترد المكاتبات من مصر ملحة بضرورة ارسالها وجهزت لها محطات على النيل مبتدئة من الترعة الخضراء (٢) على النيل الأبيض ومنتهية بأسوان وعددها خمس وتسعون محطة . كما نشطت فى عهده حركة التجارة بالمراكب فى النيل الأبيض . ورأى المتكلى أن تحتكر الحكومة التجارة فى سن الفيل والريش وهى التجارة التى تأتى من جنوب السودان، بدلاً من أن تترك للأجانب ولكن محمد على خشى أن يفسر هذا الاحتكار بأنه تعدياً على الامتيازات التى يتمتع بها الأجانب فى ممتلكات الدولة العثمانية (٣) .

كما نلاحظ فى فترة المتكلى ورود المكاتبات من مصر بارسال بذرة القطن المزروع فى السودان إلى القاهرة . كما اهتمت ادارة كردفان برفاهية الأهالى وحمايتهم من الآفات الزراعية حيث أنها جندت العساكر والأهلين لمقاومة خطر الجراد وابادته .

---

(١) انظر نعوم شقير ـ تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٢٣.

(٢) الترعة الخضراء ترعة بدأ الخديو محمد سعيد فى حفرها من النيل الأبيض الى كردفان ولكن توقف العمل فى حفرها . انظر محمود طلعت : غرايب الزمان فى فتح بلاد السودان مطبعة الاسلام بمصر ١٣١٤ هـ ص ٣٣ .

(٣) انظر مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٤١.

حاول المتكلى التخفيف عن المواطنين حيث طلب من محمدعلى تخفيض الضرائب المربوطة على الأهالى ، ولكن الباشا رد عليه بقوله : " يا أحمد هل مرادك أن اتخلى عن بلاد السودان باستئذانك منى بالتجاوز عن تلك المقادير من النقود من المديريات المذكورة من غير موازنة يداعى أن الوارد لايقوم بالمنصرف أم تريد أن تتظاهر بانك مخلص فى عبوديتك ؟ اجمع الباشوات المديرين واعمل معهم مقايسة بين كل مديرية مصرفاً وواردًا بعد تنزيل ما أردت تنزيله فان كان الوارد يغطى المنصرف فيكون ذلك التنزيل فى محله وأمّا إذا كان الوارد أقل فانظر فى صورة حسنة توجدها للموافقة بين المنصرف والوارد وأخبرنى بها "(١) .

عموماً كانت الادارة فى هذه الفترة رشيدة لابأس بها سوى ماظهر من اختلافات ومشاكسات بين الحكّام أنفسهم .

بقى أحمد باشا المتكلى فى الخرطوم إلى أواخر سنة ١٢٦١هـ /١٨٤٥م ثم عاد إلى مصر ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الزين فأنزلهما محمد على باشا فى المسافر خانة وأمر باكرامهما وبعد ثلاثة أيام طلبهما وكلمهما بلاواسطة فأعجب بذكاء الشيخ عبد القادر وفصاحته وقال: " ماكنت أظن أنّ بلاداً ليس فيها شىء من أسباب التمدن والتهذيب كبلاد السودان يخرج منها مثل هذا الرجل "(٢) . وأمر له بنيشان وعين لضيفيه ياوراً فطاف بهما فى جميع دواوين الحكومة والأماكن المشهورة فى مصر(٣) .

---

(١) دفتر رقم ٣٧٦ صادر عن ديوان المعية وثيقة رقم ٢٨٧٧ بتاريخ ٢٧ جمادى الاخرة ١٢٦٠ هـ نقلا عن المصدر السابق ص ١٤٠.

(٢) نعوم شقير – تاريخ السودان . مرجع سابق ص ١٢٣.

(٣) انظر محمد صبرى: الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر، مرجع سابق ص ١٥.

- حكمدارية خالد باشا : [١]

بعد تجربة المنظّم ونظام اللامركزية أُرجع محمد على نظام الحكمدارية فعين خالد باشا خسرو حكمداراً على السودان وأكد ذلك فى فرمان تعيينه الذى بعث به الى المديرين والقضاء والعلماء والنظار والمشايخ ، وكان الحكمدار الجديد ورعًا تقيًا هادىء النفس ولكنه ليس على غرار خورشيد باشا وأحمد باشا أبوودان من حيث القوة والكفاءة . [٢]

فى محرم سنة ١٢٦١ هـ الموافق يناير سنة ١٨٤٦م حضر إلى الخرطوم الحكمدار الجديد ومعه الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الزين الذين كانا فى زيارة إلى مصر كما سبق أن ذكر وكذلك حضر معه الشيخ الهيتمى قاضيًا على السودان [٣] .

والظاهر أنّ محمد على فى هذه المرة بث عيونه وأرصاده كما يقول أحد الباحثين وذلك ليرى مسلك الحكمدار الجديد فكانت النغمة الغالبة فى مكاتباته للحكمدار هى بلغنا واتصل بنا [٤] .

بعد تاسيس مديرية كسلا كان عربانها يهربون إلى سواكن ومصوع اللتين كانتا تحت السيادة العثمانية وذلك فراراً من دفع الضرائب أو أى التزامات حكومية أخرى فرأى محمد على أن يطلب من الباب العالى ضم سواكن ومصوع إلى ممتلكاته فى السودان نظير مبلغ من المال يدفع سنويًا الى خزينة جده فوافقت حكومة الاستانة على ذلك [٥] .

---

(١) خالد باشا خسرو من استانبول ويحتمل أن يكون تركيًا بالرغم من أن البعض يرون ان جنسيته يونانية . يعرف فى السودان بأبى عهود

Hill, Richard - Egypt In the Sudan - op cit p. 82.

(٢) انظر د. مكى شبيكه : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ٢٠١.

(٣) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ١٢٣.

(٤) انظر د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٤٢.

(٥) انظر: محمد صالح ضرار : تاريخ سواكن والبحر الاحمر . الدار السودانية للكتب . الطبعة الاولى ، ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١م — ص ٥٨.

تجدّد كذلك فى عهد حكمدارية خالد باشا الاهتمام بالذهب ثانية حيث وصلت تقارير تفيد أن منطقة شيبون فى جبال النوبة بها من الذهب مقادير عظيمة ويزيد فى جودته على ذهب فازوغلى فجهزت الحملات العسكرية لتوسيع ممتلكات الحكومة فى المناطق التى يظن وجود الذهب بها فى جبال النوبة وأرسل عدد كبير من الأسطوات وآلات استخراج الذهب وتصفيته وسبكه مع عدد من المهندسين والأطباء والكتّاب والمحاسبين وذلك من أجل الحصول على هذا المعدن النفيس [١] .

قضى خالد باشا أكثر مدته فى الأسفار فذهب إلى التاكة ثم عاد منها إلى جبال فازوغلى ومنها إلى كردفان ليشرف على استخراج الذهب [٢] .

فى هذه الفترة تدهورت صحة محمد على باشا لما أصاب مصر من الأوبئة ولم يعد قادراً على القيام بمهامه فتولاها ابنه الأكبر ابراهيم باشا فى منتصف سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨م وكان ابراهيم نفسه مريضاً فاشتد عليه المرض بغتة وتوفى فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨م فتولى زمام الأمور عباس باشا بن طوسون ابن محمد على . وفى ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩م توفى محمد على بعد أن أسس لأبنائه دولة عظيمة استمرت حتى قيام الثورة المصرية فى ١٩٥٢م [٣] .

استمر خالد باشا حكمداراً على السودان حتى أوائل عهد عباس ولكن فى أواخر عهده " وجدت الفرصة أمام الموظفين الماليين الأقباط فى استغلال جهل رؤسائهم الأتراك للتعقيدات الحسابية ولم يوجد بذلك من يقف بينهم وبين الشعب السودانى لمنع الاستغلال والظلم وزاد الأمر سوءاً موت محمد على سنة ١٨٤٩م فاختفى بموته ذلك المحرك الفعال المؤثر فى أحداث السودان" [٤] .

---

(١) انظر مكى شبيكه : السودان عبر القرون، مرجع سابق ص ١٤٣.
(٢) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ، مرجع سابق ص ٢٢٤.
(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٢٤.
(٤) د. ابراهيم شحاته حسن : مصر والسودان ، مرجع سابق ص ١٠٨.

أهم منجزات ادارة محمد على :

حكم محمدعلى السودان حوالى تسعة وعشرين عاماً كانت السنوات الست الأولى منها فى الفتح غير مستقرة وقد تمكنت هذه الادارة من احراز بعض النجاحات فى بعض المجالات نذكر منها :

أولاً : العمارة وتأسيس المدن :

أ ـ مدينة الخرطوم :

يقول المؤلف الفرنسى مسيو ديهيران فى كتابه السودان المصرى فى عهد محمد على : " إن المصريين حينما فتحوا السودان لم يختاروا بلدة من بلاده القائمة مثل بربر أو سنّار أو الأبيّض عاصمة لأملاكهم بل أنشاوا عاصمة جديدة هى الخرطوم ولم يكن فى مكانها قبل الفتح المصرى سوى محلة صغيرة للصيادين تتكون من عدد من البيوت المبنية من القش والطين وكانت شوارعها عبارة عن حوارى ضيقة وبحالة قذرة بسبب تراكم أكوام القمامة التى يتكاثر عليها الذباب والبعوض ، وكان يسكنها عدد قليل من السكان "(١) . وفى سنة ١٨٢٢م أسس بها معسكر ثابت للجنود . وفى سنة ١٨٣٠ اتخذها خورشيد باشا مقراً للحكم بعد أن سبقه إليها عثمان باشا جركس . فصارت الخرطوم منذ ذلك الحين عاصمة السودان . وقد تم اختيار هذا الموقع لأهميته الاستراتيجية حيث يلتقى النيلان الأبيض والأزرق وهو موقع وسط بالنسبة للسودان . كما أنها فى ملتقى الطرق بين مصر وأفريقيا . وقد أقيمت فيها العمائر والمبانى منذ انشائها وأهمها سراى الحكومة التى كانت مبنية بالطوب الأحمر ومؤلفة من دورين وكانت فخمة المنظر . وسراى مديرية الخرطوم مقر مدير المدرية والموظفين ومسجدان، أحدهما كبير بناه خورشيد والآخر صغير أقيم من بعده . كما كانت بها

---

(١) هرست ـ النيل .ترجمة احمد الشربينى ص ٢٨٤ نقلاً عن السيد يوسف نصر الوجود المصرى فى الفريقيا . مرجع سابق ص ١١٤.

دار لاحدى البعثات الدينية النصرانية أنشئت سنة ١٨٤٨م فى أواخر عهد محمد على . كما أنشئت بها ثكنة كبيرة للجنود فى شرق المدينة ومستشفى ومعمل للبارود تصنع فيه ذخائر الجيش ومخازن للمؤن والمهمات . كذلك كانت بها ترسانة كبيرة كانت تشمل مسبكاً للحديد ومعملاً للنجارة وفيها بنيت السفن النيلية التى أخذت تنقل الجنود والمتاجر على النيل ويتخلل تلك العمائر الكبيرة بيوت للسكن . وكان خورشيد باشا قد وزع الأخشاب ومواد البناء على السكان حتى يشيدوا منازلهم على طراز حديث (١) . وقد أكسب المدينة موقعها على النيل روعة وجمالاً كما زادها الحدائق التى أنشأها المصريون حولها رونقاً ونضرة وكانت هذه الحدائق كما ذكر بعض الكتّاب تشغل مساحات واسعة من الأرض كما أنّها موضع عناية القائمين بها . ولها منظر بديع وكان معظمها يحاذى النيل الأزرق ولا يفصلها عنه إلا رصيف ضيق وفيها كل ما تنبت الأرض من الخضرة والتين والبرتقال والليمون والموز والنخيل والدوم ويتألف من مجموعها منظر بهيج يدخل السرور فى نفوس القادمين (٢) .

وبعد تأسيس المدينة صارت ملتقى للتجارة القادمة من أنحاء السودان ، وباطن أفريقيا أو الواردة إليها من مصر والخارج فازدهر العمران فيها وصارت محطة تجارية عظيمة على مستوى أفريقيا . كما أنها صارت مركزاً للرحلات والاكتشافات الجغرافية والعلمية ومرسى للسفن النيلية التى تنتقل فى أنحاء النيل الأزرق والأبيض .

كما تزايد مع الزمن عدد سكانها فقد جاءها الناس من مختلف أنحاء السودان كسنّار وبربر ودنقلة وشندى وغيرها وقدموا اليها للتجارة كما أقام

---

(١) انظر الدكتور محمد ابراهيم ابوسليم : تاريخ الخرطوم ، دار الجبل ، بيروت ، ط. الثانية ١٩٧٩م ، ص ١٧-١٨ .

(٢) انظر ديهيران - السودان المصرى فى عهد محمدعلى ، ص ١٢٠ نقلا عن : الرافعى : عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ١٩٤ .

فيها الموظفون ورجال الجهادية وبلغ عدد سكانها فى نهاية عصر محمد على حوالى الثلاثين ألف نسمة (١)

ب – مدينة كسلا :

بعد فتح اقليم التاكة وضمه إلى أملاك الحكومة المصرية في السودان أنشأ أحمد باشا أبوودان حكمدار السودان فى ذلك العهد مدينة كسلا وكان أغلب سكانها من المصريين وكانت محصنة بسور منيع من الحجارة وبه أبراج ومعدات الدفاع متوفرة فى المدينة منذ انشائها (٢) .

وقد ذكر المسيو ديهران أن مدينة كسلا أنشئت على عهد أحمد باشا وذلك أنه أثناء فتح التاكة اتخذ معسكره على نهر القاشى بسفح جبل كسلا ولمّا غادرها ترك بها حامية ثابتة من الجنود فأقبل عليها الأهالى المجاورون واتخذوها موطناً لهم وبذلك تأسست مدينة كسلا التى تعتبر من أهم مدن السودان (٣) .

ج – مدينة محمدعلى :

كذلك أنشئت مدينة محمد على على النيل الأزرق سنة ١٨٤٠م فى اقليم سنّار على بعد ٢٥ ميلا جنوب الرصيرص وجعلت عاصمة مديرية فازوغلى وقد بنى محمد على باشا نحو خمسة أميال جنوبا قصراً ومعملاً لاستخراج الذهب (٤) وكانت أبعاد القصر هى ١٦ × ١٦ × ٨ أمتار. أمّا أبعاد المستشفى فكانت ٦٠ متر طولاً وستة أمتار وكسور عرضاً وثلاثة أمتار ونصف ارتفاعاً . كما أنشئت ثكنات للجنود المكلفين بحراسة تلك الجهات (٥) . وكان بها شونتين ومبنى

---

(١) انظر د. السيد يوسف نصر : الوجود المصرى فى أفريقيا. مرجع سابق ص ١١٤– ١١٥.

(٢) انظر ابراهيم فوزى : السودان بين يدى غردون وكتشنر– القاهرة ، ١٣١٩هـ ص ٦٥.

(٣) ديهيران السودان فى عهد محمد على نقلاً عن الرافعى . عصر محمد على مرجع سابق ص ١٩٦.

(٤) انظر عبدالرحمن الرافعى .عصر محمدعلى ص ١٩٦.

(٥) د. السيد يوسف نصر : الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر. دار المعارف ط. الأولى ١٩٨٠م ص ٩٨–٩٩.

للجبخانة وديوان على شاطىء النيل الأزرق كما حفر بها بئران ولكن هذه المدينة لم تعمّر إذ أنها هجرت بمجرد وقف أعمال التنقيب عن الذهب ولكن بقيت آثارها حتى اليوم (١) .

- حفر الآبار :

قامت الادارة المصرية فى السودان بحفر عدد من الآبار فى عهد الحكمدار محو بك وفى عهود أخرى . والغرض من حفر هذه الآبار هو توفير مياه الشرب فى المناطق البعيدة عن مصادر المياه وخاصة فى المنطقة الواقعة بين كورسكو وأبو حمد . وقد بدأ الحفر فى هذه الآبار منذ سنة ١٨٤٠م وكان محمد على قد عين البكباشي (٢) محمد أفندى للاشراف على حفر هذه الآبار بعد أن زوده بعدد من القرب بلغ حوالى ٦٤ قربة من الحجم الصغير وستة قرب من الحجم الكبير بالاضافة الى تزويد البعثة بما يلزمها من مؤن وخلافه (٣) .

وكان من المهندسين الأجانب الذين عينوا فى هذه البعثة المهندس ايموبك الذى رفض السفر مع البعثة بحجة أنه يعمل فى منجم الفحم فى السودان ولكن لما علم محمد على بذلك أصدر أمره إلى مجلس الشورى لكى يعين مهندساً غيره فاختير المهندس حافظ أفندى ومعه رزق الحتانى خبير حفر الآبار والذى صرف له مقدماً مرتب شهرين زيادة على حصوله على يومية قدرها ستة قروش (٤) .

---

(١) د. حسن أحمد ابراهيم . رحلة محمد على باشا إلى السودان . مرجع سابق ص ١١٠.

(٢) يبناشي او بكباشي كلمة تركية مركبة وتعنى رأس الألف وهى رتبة عسكرية عثمانية استبدلت بها الآن كلمة مقدم . انظر د. احمد السعيد سليمان تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ص ٤٤ .

(٣) دفتر ٢٠٩ معاونة اقاليم وثيقة ٦٩٨ فى ١٧ رجب ١٢٥٦ نقلاً عن الوجود المصرى فى أفريقيا ص ١١٢ .

(٤) دفتر ٢١٠ صادر ديوان المعاونة وثيقة ١٤١٩ فى ٢٠ جمادى الاولى سنة ١٢٥٩ الموافق ١٨٤٣م .

كان محمدعلى يتابع سير العمل فىحفر الآبار فكان يسأل من وقت لآخر عن عدد الآبار التى تم حفرها وعن المسافة التى تقع بين كل بئر والأخرى وكان يحث رئيس البعثة أن ينجز حفر هذه الآبار فى وقت قصير (١) .

لم يقف محمدعلى عندحفر الآبار فقط بل نجده يصدر أوامره فى سنة ١٨٤٣م إلى ديوان المدارس يطلب منه حفر قناة فى طريق العتمور الكائن بين كورسكو وأبو حمد وقد أسند ديوان المدارس هذه المهمة إلى المهندس دارنو الذى اصطحب معه كلا من المهندس محمد سليمان وعبدالرحمن عمر وهما منمدرسة الهندسة . وقد زود أعضاء هذه البعثة بالأدوات والمهمات اللازمة لعملية الحفر . وكان قد صرف مقدماً لدارنو جميع مرتباته بالاضافة إلىتخصيص ذهبية لكى تنقله من القاهرة إلى أسوان ومن هناك يركبون الجمال إلى مواقع العمل (٢) .

هذا ولم يقتصرحفر الآبار علىمنطقة كورسكو وأبى حمد فقط بل امتد إلى المنطقة الواقعة بين سواكن وبربر وذلك بحفر عدد آخر من الآبار وقد عين للكشف عنهذه المنطقة اليوزباشى أحمد أفندى الذى كان برفقته حسنخليفة شيخ قبائل العبابدة وكان الغرض من ارسال هذه البعثة هو معرفة المناطق التى يمكن حفر الآبار فيها (٣) .

ـ الأمن ووحدة البلاد :

لعلمن أعظم انجازات ادارة محمد على أنه أعطى للسودانيين حكومة مركزية موحدة بسطت سلطانها وقانونها علىمساحة واسعة من البلاد وهى وإن لم تكن حكومة مستبدة عادلة إلا أنها وضعت الأسس الأولى لتوحيد السودان من الناحية

---

(١) دفتر ٣٢١ المعاونة وثيقة ١٥٤٢ فى ٨ ربيع ١٣٥٩ نقلا عن الوجود المصرى فى افريقيا ص ١١٦.

(٢) دفتر ٢٨٩ ديوان المعاونة وثيقة ١٦٢٨ فى ٢٨ جمادثانى ١٢٥٩ هـ نقلا عن الوجود المصرى فىافريقيا ص ١١٦.

(٣) دفتر ٢٠٩ معاونة اقاليموثيقة ٣٩٤ فى غرة ربيع الثانى ١٢٥٩ هـ نفسالمرجع والصفحة السابقة .

القومية والادارية والمالية والقانونية ، فقوضت بذلك أركان الممالك الصغيرة التى تقسم البلاد وتضعفها ، ووضعت نظماً أحدث على كل حال مما كانت عليه السلطنة الزرقاء . وباخضاع القبائل السودانية إلى حكومية استطاع محمد على ان يقضى كذلك على الحروب الاهلية التى كانت تقوم بين القبائل بل بين العشائر المختلفة من القبيلة الواحدة "(١).

وقد تحدث عن استتباب الأمن فى الديار السودانية فى الفترة المشار اليها عدد من الرحالة الذين زاروا البلاد كما سبقت الاشارة الى ذلك (٢) .

- الرحلات الكشفية :

اهتم محمد على بالرحلات العلمية لاكتشاف أصقاع السودان النائية وبذل مجهوداته فى الكشف عن منابع النيل وتشجيع الباحثين والعلماء حتى صارت الخرطوم مركزاً للرحلات الجغرافية بغرض الكشف عن منابع النيل وأواسط أفريقيا (٣) ولما عاد محمد على من رحلته إلى السودان تولى بنفسه تنظيم الحملات والرحلات البعيدة المدى للكشف عن منابع النيل ، فأرسل البكباشى سليم بك قبطان فى ثلاث حملات متعاقبة كانت موضع اعجاب علماء الجغرافيا ورواد الاكتشاف حتى أن المسيو ديهيران الفرنسى قد قال " إن محمد على بانفاذه الرحلات والبعثات لاكتشاف منابع النيل قد حقق الأمل الذى كان يطمح اليه علماء الجغرافية وكافة رجال العلم فى عصره "(٤) .

بدأت الحملة الأولى لاكتشاف منابع النيل سنة ١٨٣٨م فقد طلب محمد على من حكمدار السودان أن يعد عدداً من المراكب اللازمة لنقل الجنود الذين يقومون

---

(١) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٦٦ .
(٢) انظر شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ج ٢ ، ص ٥٠ .
(٣) انظر الرافعى : عصر محمد على . مرجع سابق ص ٢٠٠ .
(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

بالكشف عن منابع النيل ويتضح ذلك من خطابه الذى جاء فيه " لقد صدر الأمر العالى بتجهيز الذهبيات الثلاث التى ستقوم الى البحر الأبيض (النيل الأبيض) مزودين بمدفعين خفيفين لاستعمالهما ضد اللصوص وقطاع الطرق فينبغى لذاتكم الكريمة أن تنتخبوا ستة مدافع متينة جداً من هذا النوع بكافة مهماتها وقذائفها وأن تكون سليمة من كل عيب وخلل بحيث يتم ذلك بمعرفة القميودان: سليم الذى سياتى من أجل السفر الى النيل الأبيض نظراً لان المسافة التى ستقطعها هذه الذهبيات طويلة (١) .

أمّا الحملة الثانية فقد غادرت الخرطوم فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠م لاكمال مابداته الحملة الاولى التى كانت قد وصلت الى جزيرة جانكير عند خط العرض ٤٢ ، ٤° ولم تستطع المسير نحو الجنوب أبعد من ذلك .

أمّا الحملة الثالثة فقد غادرت الخرطوم فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤١م ولكنها لم تحرز نجاحا يذكر إذ أنها عادت من نفس الموقع الذى عادت منه الحملة السابقة .

وكان من أهم نتائج هذه الحملات الثلاث أنها ألقت الضوء على القبائل الزنجية التى تقطن المنطقة الممتدة على طول النهر ابتداء من الخرطوم وحتى جزيرة جانكير زيادة على ذلك فأن هذه الحملات الثلاث تمكنت من ربط شمال السودان بجنوبه وفتحت الطريق أمام تجارة الجنوب لتتجه نحو الشمال وبالعكس، كما أنها مكنت الاوربيون من التوغل إلى قلب أفريقيا (٢) .

وهذه الاكتشافات كما يشير الرافعى قد مهدت السبيل للرحلات التى جاءت من بعد إلى أن تم اكتشاف منابع النيل . فلا نزاع فى أنّ الرحلات والحملات

---

(١) دفتر ٣٠٢ معاونة الجهادية وثيقة ٣١٠ فى ٣ جمادى الاخرة سنة ١٢٥٤ هـ الموافق ١٨٣٨م نقلاً عن د. السيد يوسف نصر : الوجود المصرى فى أفريقيا . مرجع سابق ص ١١٧ .

(٢) انظر د. السيد يوسف نصر . المرجع السابق ص ١١٩-١٢٠ .

فى عهد محمد على قد عبدت الطريق للمكتشفين وأنارت لهم السبيل وفتحت بلاداً ومناطق لم يكن فى مقدورهم أن يجوبوها لو لم يبسط الحكم المصرى رواق الأمن فى أنحائها فالفتح المصرى فضلاً عن نتائجه القومية قد ساعد العلم والحضارة مساعدة كبرى من تلك الناحية وقد كان العامل الأول فى الرحلات التى تمت فى عهد محمد على اتجاه فكره وفكر أبنائه إلى اكتشاف المنابع التى كانت إلى ذلك الوقت مجهولة لعلماء الجغرافيا (١) .

هذا وقد حققت ادارة محمد على فى السودان الكثير من النجاح فى مجال الزراعة حيث شجعت المواطنين عليها وعملت على تطويرها وكذلك فى مجالات التجارة والصناعة والتعدين التى سنتحدث عنها ان شاء الله بالتفصيل فى الفصل الخاص بالنظام الاقتصادى والمالى فى عصر محمدعلى .

أمّا فى الجانب السلبى لادارة محمد على فنجد أنّ حملات الدفتردار الانتقامية قد كانت مثالاً سيئاً لنوعية الحكم الجديد وقد جعلت هذه الحملات الكثير من السودانيين لاينظرون إلى الايجابيات التى أحدثتها ادارة محمد على أثناء تقييمهم لهذه الفترة بل يركزون على بشاعة الانتقام ومثال ذلك ماقاله الأستاذ ضرار صالح ضرار "لئن كان محمدعلى قد أزال الفوارق القبلية ومنع الحروب الصغيرة إلا أنه أباد من السودانيين فى عامين على يد الدفتردار أضعاف ماكاد يقتل فى الحروب الاهلية "(٢) .

الجانب السلبى الآخر بجانب الحملات الانتقامية هو بشاعة الضرائب التى فرضت على المواطن السودانى الذى كان لايملك شيئاً والقسوة فى تحصيلها ممّا تسبب فى تشريد آلاف العائلات من مناطقهم وسكناهم . وبدلاً من أن تنتج الارض أجديت فنتج من هجرها نقص فى المواد الغذائية فى البلاد بأسرها كما تسبب ذلك فى هبوط مستوى المعيشة (٣)

---

(١) انظر عبدالرحمن الرافعى ـ عصر محمدعلى ، مرجع سابق ٢٥-٢٠٠.

(٢) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٦٦.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

الجانب السلبى الآخر فى هذه الادارة هو فساد الموظفين الذين غلب عليهم الطمع " فقد كانوا آفة الادارة فى السودان إذ كان شغلهم الشاغل هو الاثراء عن طريق الرشوة وابتزاز الأموال من السكان واحتكار بعض التجارة لأنفسهم والاختلاس أحياناً ولبعدهم عن القاهرة كانوا آمنين من أعين محمد على وبذلك أدخلوا الفساد فى الحكم الى بلاد لم تعرف عن ذلك شيئاً من قبل بسبب بدائية نظامها الادارى السابق الذى لم يعرف الضرائب أو احتكار التجارة "(١).

- الحكم على الادارة المصرية خلال عهد محمد على :

اختلف حكم المؤرخين والباحثين على الادارة المصرية فى السودان اختلافا متباينا فبعضهم اعتبرها شراً محضاً ولعل هؤلاء كانوا ينظرون إليها من خلال حملات الدفتر دار وفداحة الضرائب وسوء الاداريين . وبعض الباحثين غلّب عليها صفة السوء مع ذكر بعض المحاسن " على أنه يجب أن يعترف بأنّ الحكم المصرى التركى لم يكن شراً كله بل كانت له حسنات فى النظام التربوى وفى الادارة والتنمية الاقتصادية "(٢) . وبعضهم اعتبر أن معظمها كان خيراً(٣) . ومعظمهم ذكر السلبيات بجانب الايجابيات(٤) وهؤلاء هم أصحاب النظرة الموضوعية من الكتّاب والباحثين .

ولكن هناك حقائق هامة يجب أخذها فى الاعتبار عند الحكم على هذه الادارة ، وهى :

١- لاينتظر أن يحدث تغيير كامل فى أحوال السودان بمجرد امتداد الادارة المصرية إليه وذلك للاتى :

أ - وجود استحالة مادية لاحداث تغيير شامل وذلك لبعد المسافات فى السودان .

---

(١) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٦٨.

(٢) محمد أحمد محجوب : الديمقراطية فى الميزان . دار النهار للنشر . بيروت ، ١٩٧٣م ص ٢٤ .

(٣) كمثال على ذلك انظر : د. نسيم مقار : الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى . مرجع سابق.

(٤) كمثال على ذلك انظر الدكتور رافت غنيمى الشيخ . مصر والسودان فى العلاقات الدولية . عالم الكتب ١٩٧٩م ص ٩٠ ومابعدها.

ب - انعدام وسائل المواصلات إلا القديم منها .

جـ - قيام حكومة واحدة يخضع لها الجميع أمر مفاجئ وجديد على المجتمع السودانى .

د - هناك عادات متأصلة فى هذا المجتمع تحتاج لعشرات السنين لاستئصالها كتجارة الرقيق مثلاً .

٢- إنّ امتداد الادارة المصرية للسودان وماتبعه من استتباب للأمن أتاح الفرصة لزوار كثيرين للحضور للسودان فبدأوا يكتبون عن السودان ولذا ظهرت أشياء كثيرة قديمة قرنت خطأً بالحكومة الجديدة .

٣ - ارتبطت الادارة فى السودان بالادارة فى مصر فنظم الادارة فى السودان، نقلت من مصر والمديرون الذين أوفدتهم الحكومة المصرية للسودان تكونوا وتدربوا فى الادارة المصرية .

٣ - البيئة السودانية كانت لها خواصها المختلفة عن البيئة المصرية ونذكر من أوجه الاختلاف مثلاً :

أ - بعد المسافات وقيام عقبات ممّا يترتب عليه صعوبات خاصة فى ذلك الزمن .

ب - تنوع موارد معيشة السكان ففى السودان بعض الأقاليم زراعية وبعضها رعوى بينما فى مصر نجد الزراعة والتجارة .

جـ - المجتمع السودانى فى ذلك الوقت يقوم على العصبية القبلية بينما فى مصر نجد أنّ القبليات لا دور لها .

د - الحكم الموحد فى السودان جديد وغير مألوف بعكس مصر .

هـ - الاقتصاد السودانى فى ذلك الوقت اقتصاد بدائى قوامه التبادل بالسلع بينما التعامل فى مصر بالنقود.(١)

---

(١) انظر د.شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ، جـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٣١-٣٣ .

وأخيراً فان كانت لنا كلمة يمكن أنتقال في خاتمة هذا الفصل هي أن ادارة محمد على فى السودان كجهد بشرى فيها السلبيات والايجابيات ولايمكن أن تكون إلا كذلك مادام أنها جهد بشر ٠

...

الفصل الثاني

النظام الإداري في السودان
في الفترة من ١٨٤٩-١٨٦٣م

أولاً : النظام الادارى فى عهد عباس الأول :[1]

ذكرت فى الفصل السابق أنّ ابراهيم باشا الابن الأكبر لمحمدعلى تولى الحكم فى حياة والده فى منتصف سنة ١٨٤٨م ولكن المرض اشتد عليه وتوفى فى نوفمبر سنة ١٨٤٨م وخلفه عباس الأول بن طوسون بن محمدعلى الذى كان غائباً فى مكة أثناء وفاة ابراهيم باشا .

اهتم عباس بحكم مصر وشغلته مشاكله مع أفراد أسرة محمد على عن الاهتمام بالسودان أو اكمال كشف منابع النيل التى كان جده محمد على قد بدأفيها[2] .

عندماتولى عباس مقاليد الحكم فى مصر كان الحكمدار فى السودان هو خالد باشا خسرو الذى يبدو أنّ عهده قد انتهى إلى عكس مابدأ به ففى بداية عهده وصفته المصادر والمراجع بالورع والتقوى ولكنّه فى نهاية عهده حسب بعض هذه المراجع قد اتخذ منصبه أداة للغنى " ولم يكفه ماكان يأخذ من رشوة أو ابتزاز لأموال الناس بل امتدت يده أيضاً إلى الأموال الحكومية حيث حول مبالغ كبيرة لمصلحته الشخصية وفى نوفمبر سنة ١٨٤٩م وُجد أنّ هذا الحكمدار قد اختلس حوالى نصف مليون جنيه مصرى مما كان له أسوأ الأثر على تقدم البلاد ، كما سبب للادارة ضائقة مالية "[2]

---

(١) تولى عباس الأول بن طوسون بن محمد على حكم مصر فى حياة جده محمد على فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٤٨م بعد وفاة عمه ابراهيم باشا . وعلى اثر توليه مقاليد الحكم ذهب الى الاستانة لتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان العثمانى وعاد منها فى ١٣ فبراير ١٨٤٩م واستمر يحكم مصر حتى سنة ١٨٥٤م حيث أدى عدم وفاقه مع أسرة محمدعلى إلى اغتياله .
انظر عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل . دار المعارف . الطبعة الثالثة ١٩٨٢م ص ١٥ ومابعدها .

(٢) انظر عبد الرحمن الرافعى ،عصر محمد على – مرجع سابق ص ٢٠٠ .

حاول عباس باشا تلمس مشكلات السودان الادارية فعرف أنّ من أسباب سوء الادارة إعتقاد الاداريين بأنّهم فى منفى وأنّهم يجب عليهم أن يفتنوا فى المدة التى يقضونها فى السودان.. " وكان لهذا الشعور السائد أثره النفسى على الاداريين المصريين والأتراك إذ يبلغ الضيق بهم مبلغاً عظيماً وينظرون إلى السودان والسودانيين بمنظار أسود وليس لديهم الاستعداد للعمل من أجل رفاهية السودانيين "(١).

ولذلك نجد أنّ عباس قد قرر أن يجعل فترة الخدمة فى السودان محددة فكان على الاداريين الذين يعملون فى دنقله فى شمال السودان أن يمكثوا ثمانية أعوام . وفى الخرطوم ست سنوات وفى كل من كردفان وسنّار وفازوغلى والتاكة أربع سنوات . ولايصح لأى موظف أن يغادر مقر خدمته إلا إذا حضر من يحل محله ولايسمح له بالذهاب إلى مصر أثناء تلك الفترة إلا بشهادة طبية تمتحن صحتها فى القاهرة ويعاقب الطبيب والموظف إذا ثبتت اللياقة الطبية . وإذا ألف الموظف الاقامة فى مركز خدمته وطلب البقاء وكانت الشهادة عن عمله مرضية فله أن يبقى مدة أخرى(٢) .

أمّا فى مجال تخفيف حدة الرشوة والتى كانت منتشرة بين الاداريين والموظفين كبارهم وصغارهم فقد حاول عباس أن يعالج ذلك الداء بوضع موظفين برتب عالية فى الوظائف المسئولة ، وكانت أول خطوة قام بها هى تعيين المديرين من رتبة الأميرالاى (أمير لواء) بعد ان كان فى رتبة القائمقام من قبل(٣). ويرى باحث آخر أنّ العكس قد حدث حيث يقول " وجاء عباس الأول بسياسته التى ترمى إلى أضعاف قوة موظفيه وممثليه واختار لحكم السودان حكاماً أقل من رتبة أمير لواء وكان يقوم بارسالهم لفترات قصيرة يحل بعدها حكام غيرهم فلا تتاح

---

(١) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٧٠.
(٢) د.مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٤٨.
(٣) ضرار صالح ضرار : المرجع السابق ص ٧٠.

لاحد منهم فرصة ادراك حقيقة الظروف المحيطة بالسودان وادارته»(١) .

وللحقيقة فأن محمدعلى هو الذى كان يعين الحكّام من ذوى الرتب الصغيرة فى أواخر أيامه وذلك خوفاً من المطامع كما أشرنا . أمّا عباس فقد رفع رتب الحكام والموظفين اعتقاداً منه بأنّ الموظف المسئول إذا كان فى رتبة عالية وتناول مرتباً أعلى خفت حدة رغبته فى استلام الرشاوى كما أنّ رتبته العظيمة وكبرياءها سوف تمنعانه من قبول الرشوة »(٢) .

كذلك أعاد عباس توزيع بعض المديريات حيث كانت تتداخل فى بعضها أحياناً أو تكون المديرية أكبر من أن يديرها مدير واحد ولذلك نجد أنّ عباس قد فصل دنقلة عن وبربر وجعلهما مديريتين بدلاً من واحدة وهذا أفاد كثيراً فى أنّه جعل فى تلك المساحة الشاسعة الامتداد مديرين يقومان بتصريف شئونها بدلاً من مدير واحد . ولمّا كانت فازوغلى وسنّار مرتبطتين ببعضهما دون اتساع كبير فقد دمجهما فى مديرية واحدة حتى يوحّد بين مشكلات السكان فى تلك المنطقة (٣) .

وفى عهده ظهر أنّ السودان مازال فى حاجة الى أعداد كبيرة من الكتبة والمحاسبين حتى يتم تنظيم الادارة الحكومية وخاصة النواحى المالية ، ووضع أسس صحيحة للحسابات والمراجعة المالية ونتيجة لهذه الحاجة فقد وفدت على السودان أعداد كبيرة من الأقباط للقيام بذلك العمل . وكان التعدين والبحث عن الذهب من أبرز الصعوبات التى واجهتهم لأنّهم بعد مراجعة الصرف والدخل وجدوا أنّ استخراج الذهب يكلف أكثر مما يربح وهذا مما جعل عباس باشا يأمر بابطال العمل فى استخراج الذهب من السودان (٤) .

---

(١) د. ابراهيم شحاته حسن : مصر والسودان . مرجع سابق ص ١٠٨-١٠٩ .
(٢) انظر ضرار صالح ضرار: تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٧٠ .
(٣) انظر المرجع السابق ص ٧١ .
(٤) نفس المرجع والصفحة .

حكمدارو السودان في عهد عباس :

(١) عبد اللطيف باشا [١] :

رأى عباس باشا أنّ الحكمدارية لا يصلح لها مثل خالد باشا وأنّه لابد من ايجاد نوع أصلح لمنصب الحكمدار . فاستدعى خالد باشا وأرسل بدلاً منه عبد اللطيف باشا في ربيع الآخر سنة ١٢٦٦ هـ الموافق فبراير سنة ١٨٥٠م ووصل عبد اللطيف باشا إلى الخرطوم حاكماً عاماً على السودان . وكانت الأحكام قد اختلت كثيراً في مدة سلفه فما أن دخل الخرطوم حتى انهالت عليه الشكاوى ضد خالد باشا [٢] فكان من الأعمال الأولى التي قام بها عبد اللطيف باشا أن أثبت على خالد باشا اختلاس بعض أموال الحكومة فاستصفى منه ألف كيس وردها إلى الخزينة العمومية [٣] . ثم شرع في الأحكام فأزال المظالم وبث روح العدل في البلاد.

أقرّ الحكمدار لائحة يسير العمل بمقتضاها في السودان كما تم في عهده دمج فازوغلي في سنّار كما فصلت دنقله من بربر . كذلك دعمت الادارة الحكومية في عهده بعدد من الكتّاب والمحاسبين والأطباء . كذلك اهتم عبد اللطيف باشا بعمارة الخرطوم فجدّد من المباني الحكومية ديوان الحكمدارية وديوان المديرية وأنشأ المطبعة الحكومية ومحكمة العموم والأجزخانة وقشلاقات الطوبجية [٤] وكلها بناها بالطوب الأحمر . كذلك أنشأ لطيف باشا مدرسة أميرية برئاسة رفاعة رافع الطهطاوي [٥] الذي حضر الى الخرطوم ومعه كثير من الكتبة والمعلمين [٦] .

---

(١) جركسي الاصل من أمراء الأسطول المصري كان قد حكم عليه بالاعدام ثم عفي عنه وعين حاكماً على الصعيد قبل أن يعين حاكماً على السودان. انظر عبد الرحمن زكي حكمدارو السودان. والمجلة التاريخية المصرية في ١٩٤٨ ص ٤٣٢.

(٢) انظر ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٧١.

(٣) انظ وكي شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٤٧.

(٤) تعني معسكرات المدفعجية . انظر تاصيل ماورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ص ١٤٣.

(٥) لترجمته انظر عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد علي . مرجع سابق ص ٤٧٠.

(٦) للمزيد من التفاصيل حول هذه المدرسة انظر فصل نظام التعليم في عصر عباس من هذا المبحث .

كذلك عزل لطيف باشا الشيخ إدريس عدلان من شياخة جبال الفونج وولي ابن أخيه عدلان محمد مكانه . كما ضرب حسن مسمار ملتزم الجمارك وصادر أمواله ثم حبسه كما عزل حسن خليفة العبادى ملتزم سكة عتمور أبي حمد من المشيخة وصادره أيضاً وقلد المشيخة أخاه حسن خليفة . ويلاحظ أنّ عبد اللطيف باشا كلما عزل شيخاً أو مسئولا عين قريباً له وذلك لاستحكام النظام القبلى فى اعتقادى حيث أنّ القبيلة يمكن أن ترضى بعزل شيخها أو أحد أبنائها ولكنها لاترضى أن تؤخذ المشيخة أو أى وظيفة أخرى منها لتعطى إلى غيرها من القبائل .

كذلك قلد لطيف باشا الشيخ عبد القادر الزين وظيفة معاون الحكمدارية مع مشيخة مشايخ الجزيرة كما أحسن معاملة الشيخ أحمد أبوسن[1] .

وفى هذا العهد توالى دخول الرهبان والمبشرين فى السودان وأنشئت القنصليات بالخرطوم وكانت أولها القنصلية النمساوية وقد طلب لطيف باشا من مصر ارسال مترجم يكون واسطة للمخاطبة بين الحكومة والقناصل ورد الجناب العالى بأن تكون المكاتبات باللغة العربية كما فى مصر آنذاك . كما شهدت حكمدارية لطيف باشا أيضاً نشاطاً من التجار الأوربيين فى أنحاء السودان وخاصة بعد إنشاء القنصليات وزادت الحركة التجارية فى النيل الأبيض زيادة ملحوظة[2] وهذا النشاط جعل الحكمدار يلجأ إلى بعض الاجراءات التى يمكن أن تمنع نشاط التجار الأوربيين أو تحد منه .ومن هذه الاجراءات إقتراحه بمنع هؤلاء التجار من المتاجرة وأن تحتكر الحكومة تجارة العاج وسن الفيل ثم يشتريها التجار فيما بعد من الحكومة وبالمزاد . كذلك حاول الحكمدار أن يجعل تجارة الصمغ صعبة

---

(١) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ص ٢٢٤. ود. محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر . مرجع سابق ص ١٥.

(٢) انظر د. مكى شبيكه : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٤٨.

المنال بالنسبة للتجار الأوربيين فأصدر الأوامر الصارمة للمديرين وخاصة في كردفان بأن يُحدّد سعقر قنطار الصمغ بستين قرشًا وأن الحكومة تقبله بذلك الثمن مقابل الضرائب المطلوبة ٠ وأمر بألّا يسمح للأهالي ببيع صمغهم بأقل من ذلك الثمن وإذا خولفت هذه الأوامر فالعقاب يحل بالبائع والمشترى فالبائع يعاقب بالضرب إذا ماباع بأقل من السعر المحدّد وكذلك شيخ بلدته وكذلك التاجر والمشترى وقد روى القصنل الإنجليزى أنّ مدير كردفان ضرب أحد التجار الإنجليز بيده تنفيذاً لذلك الأمر[1] ٠

ولهذا فأن القناصل الأوربيين في الخرطوم وقعوا عريضة ضد لطيف باشا اعترضوا فيها على منع التجارة التى هى من إمتيازات الأوربيين فى البلدان العثمانية كما ادعوا بأنّ الحكمدار أساء إلى الرهبان الكاثوليك فى الخرطوم وظلمهم مما اضطر عباس باشا إلى استدعاء لطيف باشا إلى القاهرة وتعيين رستم باشا مكانه ٠

- رستم باشا[2] :

فى سنة ١٢٦٧ هـ الموافق ١٨٥١م عين رستم باشا حاكماً على السودان ، فذهب إلى الخرطوم ومنها إلى وادى مدنى التى عاد منها مريضًا حيث توفى فى الخرطوم سنة ١٢٦٨هـ الموافق ١٨٥٢م ودفن هناك ٠ وكل الذى تذكره المصادر عن فترة حكمه أنّه حضرت فى هذه السنة من مصرلجنة للنظر فى أحوال السودان[3] وقد خلفه على الحكمدارية اسماعيل حقى أبوجبل ٠

---

(١) انظر مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ١٤٨٠

(٢) جركسى الأصل ٠ قيل أنه تلقى تعليمه فى فرنسا ٠ أصابه المرض فى واد مدنى وتوفى ودفن بالخرطوم انظر المجلة التاريخية المصرية - المجلد الاول ١٩٤٨م ص ٤٣٢٠

(٣) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ٠ مرجع سابق ص ٢٢٦ ٠

٣- اسماعيل باشا أبوجبل : [1]

حضر إلى السودان فى رمضان سنة ١٨٥٢م حيث قام بجولة تفتيشيه شملت الجهات الشرقية من السودان ثم رجع إلى الخرطوم وبقى فيها حتى صدور الأمر برجوعه إلى مصر وكانت مدته قصيرة ولم يحدث فيها تغيير يذكر فى الادارة [2]

٤ - سليم باشا الجزائرلى [3] :

فى شعبان سنة ١٢٦٩ هـ الموافق مايو سنة ١٨٥٣م عين سليم باشا حكمداراً على السودان بدلاً من اسماعيل حقى أبوجبل فذهب إلى الخرطوم على غير ارادته وأقام بها متمارضاً مدة قصيرة ثم استدعى إلى القاهرة ليرسل بدلاً عنه على باشا سرى ولم يحدث خلال فترة سليم باشا أى حدث غير عادى[4] .

٥ - على باشا سرى :[5]

فى جمادى الاولى سنة ١٢٧٠ هـ الموافق فبراير سنة ١٨٥٤م عين على باشا سرى حكمداراً على السودان فذهب إلى الخرطوم ولم يخرج منها إلا إلى سنّار ثم عاد إلى

---

(١) ابن سليمان بن أبى بكر حامل لواء السلطان محمود. من أشراف بلدة موريدى بالاناضول. كان والده قائمقاماً للبلدة المذكورة ولد سنة ١٨١٨م وقد عنى والده بتربيته ٠ أرسل الى مصر سنة ١٩٣٢م لتلقى العلم. بعد تخرجه عمل بالجيش المصرى ٠ اشترك فى حروب الشام والحجاز والسودان ٠ صار حاكماً للسودان. بعد استدعائه إلى مصر اشترك فى الحرب التركية الروسية ٠ أصبح رئيسياً لمجلس طنطا ثم عين ناظراً للجهادية ٠ ثم رئيساً لمجلس الأحكام. انظر عبد الرحمن زكى : حكمدارو السودان - المجلة التاريخية المصرية م ١ ١٩٤٨ مرجع سابق ٤٣٢-٤٣٣.

(٢) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ٠ مرجع سابق ص ٢٢٦ ٠

(٣) تولى عدة وظائف فى السودان منها حاكم فازوغلى ثم استدعى ليتولى حكم الصعيد ثم أرسل حاكماً للسودان ولكنه مرض بالحمى فأعيد إلى الصعيد. المجلة التاريخية م١ ١٩٤٨م ص ٤٣٣.

(٤) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ٠ مرجع سابق ص ٢٢٧ ٠

(٥) توفى فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٥٥م - انظر المجلة التاريخية المصرية م١ ١٩٤٨م ص ٤٣٤.

مصر بعد فترة قصيرة وقد ملأ جيوبه من مال البلاد ولاسيما منجزيرة سنّار [١] .

وفى شوال سنة ١٢٧٠ هـ يوليو ١٨٥٤م توفىعباس الأول مقتولاً فى قصره وخلفه سعيد باشا ابن محمد على على حكم مصرو السودان [٢] .

ويمكن أن نلاحظ علىادارة عباس الملاحظات الآتية :

(١) إنّ اهتمام عباس باشا بالسودانكان اهتماماً أقل بكثير مناهتمام جده محمد على وربما يرجع ذلك إلىانشغال عباس بمشكلاته مع بقية أفراد أسرة محمد على الذين اختلفوامعه واتهمه بعضهم بالرجعية بينما هاجر جزء منهم إلىالاستانة خوفاً من بطشه .

(٢) أعتبر بعض المؤرخين أنّ عباس باشا اتخذ منالسودان منفى ينفى فيه من يغضب عليهم لدرجة اناسمالسودان أصبح مجرد سماعه مرعباً [٣] .

(٣) إنّ هذهالادارة لم تحقق أية نجاحات باستثناء فترة الحكمدار عبد اللطيف باشا وذلك راجع فى ظنى إلىالتغير السريع الذى كان يتم فى منصب الحكمدارية حيث يلاحظ أنّه مابقى حكمدار فى منصبه أكثر من عام وبعضهم بضعة أشهر فقط . الأمر الذى لم يمكنهم منالتعرف علىالبلاد ومشكلاتها وبالتالىعجزوا عن وضع تصور لحلولها .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٢٧.

(٢) انظر عبد الرحمنالرافعى : عصر اسماعيل جا مرجعسابق ص ٢٤ ومابعدها.

(٣) عبر عن هذه الحقيقة ريتشارد هل بقوله :

Abbas made free use of the Sudan as a place of banishment. In Egypt Fazughli came to be popular word for dire punishment, men in danger of the Law were seen to shudder when the word was spoken.
Hill, Richard – Egypt in the Sudan. op cit P. 87.

(٤) لم تفلح هذه الادارة فى منع الرشوة واستغلال النفوذ وكان عباس باشا فى بداية حكمه قد عزم على منعها.

(٥) ظهرت فى فترة هذه الادارة الجاليات والبعثات التنصيرية التى استقرت فى الخرطوم وبدأت حملاتها التنصيرية .

ثانياً : نظام الادارة فى عهد سعيد باشا :(١)

تولى محمد سعيد باشا حكم مصر والسودان فى ١٨ يونيو سنة ١٨٥٤م أى بعد وفاة ابن أخيه عباس الأول مباشرة . وقد اعترف به السلطان العثمانى وسافر سعيد إلى الاستانة لتقديم فروض الطاعة وعاد فى نفس العام إلى مصر. وقد كانت ثقافة سعيد باشا أوربية وذلك لتعلمه فى أوربا واجادته اللغة الفرنسية والأنجليزية وقد أثرت فيه هذه الثقافة وجعلته أكثر قرباً من الأوربيين (٢) .

بعد توليه الحكم شغل سعيد نفسه فى البداية بمشكلات مصر الداخلية فاهتم بالتنظيم الادارى فى مصر فأنشأ المجلس الخصوصى وجعل من إختصاصه مناقشة الأوامر ذات الصفة العامة وذلك قبل عرضها على الوالى ، وكذلك مناقشة اللوائح الادارية . زيادة على ذلك فانه أنشأ ثلاثة دواوين هى ديوان الداخلية والمالية والحربية ، اضافة الى ذلك فأنه أصدر قانون ملكية الأراضى الزراعية سنة ١٨٥٤م الذى بمقتضاه خوّل للفلاحين الحق فى ملكية الأراضى و الانتفاع بها وحق

---

(١) سعيد باشا ابن محمد على .ولد سنة ١٨٢٢م بالقاهرة . اهتم به والده اهتماماً شديداً وثقفه ثقافة عالية حيث بعثه إلى أوربا لتلقى العلم . بعدها اختار له السلك البحرى حيث تدرب فى البحرية وأصبح قمنداناً لأحدى بوارج الأسطول المصرى. تولى السلطة فى ١٨ يونيو سنة ١٨٥٤م . انظر الرافعى : عصر اسماعيل - ج ٢ مرجع سابق ص ٢٩.

(٢) انظر د. السيد يوسف نصر : الوجود المصرى فى أفريقيا . مرجع سابق ص ١٣١.

(٣) المرجع السابق ص ١٣٢.

التوريث والتأجير والرهن والبيع .

وكذلك اهتم سعيد باشا بالسودان اهتماماً عظيماً وأبدى نحو أهله عنايته وعطفه وكان يحب الشعب السودانى ولذلك اتخذ حرسه الخاص من السودانيين ، كما أنّه عمل على ترقية الجنود السودانيين فى الجيش إلى مراتب الضباط [١].

اعتبر سعيد أنّ مصر والسودان بلداً واحداً فألغى الجمارك التى كانت قائمة بين مصر والسودان كما أصدر أمراً صريحاً بابطال تجارة الرق التى كان الأوربيون قد أقاموا لها الشركات والمؤسسات وقد أرسل إلى حكمدار السودان خطابا فى هذا الشأن [٢] .

وقد سبق أن ذكرت أنّه عندما توفى عباس كان الحكمدار على السودان هو على باشا سرى الذى أشتهر بالرشوة والاختلاس وكان يجاهر بهما مما أسقط هيبته عند الموظفين والمواطنين على السواء حتى أنّ أعضاء مجلس الأحكام فى الخرطوم قد شكوه بعريضة مسهبة أبانوا فيها جوانب فساده ومخالفاته ولكنّه حاول أن يكسب ود الوالى الجديد فأرسل إليه ألفاً وستمائة وخمس وعشرين قطعة ذهبية من خزينة السودان ولكن هذه لم تؤثر فى نفسية سعيد الذى أصدر أوامره بعزله ، بل طلب من الحكمدار الجديد التحقيق فيما نسب إلى الحكمدار السابق من فساد. فأسفر التحقيق عن إدانة على باشا سرى وتضمن كشفاً طويلاً بأسماء الذين أقروا بدفع الرشوة له وتعرض أثناء التحقيق للتعذيب والاهانة حتى أنّه قدم عريضة إلى سعيد باشا يشكو فيها ممّا يلاقيه من إهانة وتعذيب فكان رد سعيد أن ترسل التحقيقات والحكمدار المخلوع إلى مصر [٣] .

---

(١) انظر مكى شبيكة : السودان عبر القرون ص ١٥١.
(٢) المرجع السابق ص ١٥٢.
(٣) نفس المرجع السابق ص ١٥٣.

عين سعيد أخاه الأمير عبد الحليم (١) باشا حكمدارًا على السودان وذلك لشدة اهتمامه بحل مشكلات هذه البلاد وقد جاء فى فرمان التعيين الذى وجهه سعيد باشا إلى أهل السودان مايلى : " تحيطون علمًا وتدركون معرفة وفهمًا أنه لما كان من أقصى آمالنا إدخال جميعكم فى سلك العمار والرفاهية . وقد كثرت إلى الحكمدارية السلف أوامرنا العديدة واستمرت إليهم التنبيهات الأكيدة باقامة شعائر العدل ونشر ألوية اليمن والإيمان وهم عجزوا عن القيام بالوفى (هكذا) كان من اللازم أن أجرى ذلك بتعيين من نثق به بالاهتمام باجرى (هكذا) هذه الأمور وبذل كمال الاعتنى (هكذا) .. اقتضت ارادتنا بذل كمال المنة إليكم بان عينّا جليل المقام كبير الكبراء الفخام ذو المجد العزيز عبد الحليم باشا حكمدارًا عليكم "(٢) .

وفى أول مدته ذهب الأمير عبد الحليم إلى الخرطوم وبقى فيها فترة وجيزة ذهب بعدها الى النيل الأبيض ولكن انتشر فى هذه الفترة مرض خبيث أطلقت عليه المصادر الهواء الأصفر ولعله مرض الكوليرا . وقد مات به من أهل السودان عدد كبير منهم الشيخ عبد القادر الزين شيخ مشايخ الخرطوم وسنّار وقد كان رجلًا فاضلًا سديد الرأى وقد حضر دفنه الحاكم العام ووكيله وجميع وجهاء البلاد وعين ابنه الزبير مكانه فخدم فى الخرطوم مدة ثم سافر إلى مصر حيث عين معاونًا فى نظارة الداخلية . كما توفى بنفس المرض الشيخ ياسين شيخ مشايخ كردفان وعدد من العلماء والأعيان ولمّا اشتد المرض نصح الاطباء الأمير عبد الحليم بترك الخرطوم والسفر إلى القاهرة . فسافر إليها ولم يعد لمقر حكمداريته ثانية (٣) .

---

(١) الامير عبد الحليم هو نجل محمد على وشقيق سعيد الاصغر .
(٢) انظر مكى شبيكه : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٥٣.
(٣) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ص ٢٢٦.

وفي جماد الثاني سنة ١٢٧١ هـ الموافق فبراير سنة ١٨٥٥م وصل الخرطوم علي باشا شركس حكمداراً على السودان خلفاً للأمير عبد الحليم .

وفي عهده وبعد زوال الوباء ذهب سعيد باشا إلى السودان لتفقد أحواله فوصل الخرطوم في ١٦ يناير سنة ١٨٥٧م فساءه حاله جداً وفكّر في اخلاء البلاد لمّا رأى الظلم الذي لحق بالرعية ولكن أعيان البلاد ومشايخها توسلوا إليه بالحاح أن يعدل عن رايه وقالوا له إذا أخليت البلاد عمت الفوضى لامحالة وربما لحق أذاها مصر فعدل عن رايه (١) .

وكان سعيد باشا قد اصطحب معه في هذه الرحلة فرقة سودانية وجهزت له نحو ألف وخمسمائة جمل لنقله وحاشيته وجنده عبر الصحراء . وقد وضح الغرض من رحلته هذه في منشور أصدره إلى ناظر الجهادية جاء فيه " إن عدم دخول بلاد السودان التي هي أجزاء من ممتلكاتنا تحت الاتقان والنظام حتى الآن ، مع أن مقصدنا ومطلوبنا تقدمها وعمرانها لأمر موجب للأسف جداً . والحق يقال وليس بقاؤها على ماهي عليه الآن من الأمور التي لا يجوز تحملها . وبما أنني صممت العزيمة منذ مدة على أن أرى تلك البلاد وأتبين أحوالها وأوضاعها وأقف على مايجول فيها أولاً بقصد السياحة وثانياً تحت حاجة النزهة فعزمت على أن أذهب إليها بذاتي لكي نضع لها فيما بعد النظم التي تكفل عمران تلك البلاد والحوالي وتكون بها الرفاهية للرعايا والاهالي "(٢) .

وما إن وصل سعيد باشا إلى بربر في طريقه إلى الخرطوم حتى انهالت عليه العرائض من كثير من السكان يتظلمون فيها من حكامهم ومشايخهم وأقاربهم فراعته تلك الحالة ورأى بعينيه حالة البؤس التي كانت بادية على الأهلين .

---

(١) انظر نعوم شقير ص ٢٢٨ ومحمد صبري : الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ص ١٦ .

(٢) مكي شبيكه : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٥٤ .

واستنتج أنّ هذه الحالة التى تردت فيها البلاد بسبب ظلم الحكّام وتخمرت فى ذهنه فكرة اللامركزية . وتنظيف البلاد من الجيش الجرار من الحكّام والعساكر ورأى أن يناط جمع الضرائب بالأهلين أنفسهم وأن تؤلف مجالس وجمعيات دورية منهم تنظر فى الشئون العامة مع المديرين (١) .

بدأ سعيد بتنفيذ هذه الأفكار وهو فى طريقه من بربر إلى الخرطوم، حيث أصدر أمراً بالغاء الحكمدارية وارسال سجلاتها إلى القاهرة . وصار كل اقليم يتبع مباشرة لحكومة القاهرة وصارت مصر والسودان وحدة ادارية واحدة وانقسم السودان الى أربع مديريات هى مديرية التاكة ، مديرية كردفان ، مديرية دنقله مع ضم بربر إليها وشملت المديرية الرابعة اتحاد مديريات سنّار والخرطوم ومأمورية النيل الأبيض (٢) .

اضافة إلى هذه الاجراءات قام سعيد باشا بتخفيض ضريبة الاطيان الزراعية وضريبة السواقى ومنع الجند من جمع الضرائب واناطة ذلك بمشايخ القرى بعد الحصاد لاقبله وقد أمر سعيد بعقد مجلس فى الخرطوم للنظر فى راحة الأهالى من بدو وحضر ويتألف من جميع المديرين فى المديريات وأعيان البلاد ومشايخها اضافة الى أنّه ألغى الضرائب المتأخرة وسن القوانين لجمع الضرائب وأمر باعطاء " سركى " لكل مزارع بيده ليدفع ماعليه من الضرائب على أقساط فى السنة وكلما دفع قسطاً قيد ذلك فى السركى الذى بيده كما قيد فى يومية الصراف وجعل من الأهالى مديرين ومأمورين ونظّار أقسام ومعاونين بمرتبات شهرية من الحكومة وأمرهم بلبس الملابس العثمانية مثل الحكّام الأتراك (٣) .

---

(١) انظر الشاطر بصيلى عبدالجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل ، مرجع سابق ص ١٤٦ . ومحمد أحمد الجابرى : فى شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه *أهله . الناشر : دار الفكر العربى ، بدون تاريخ ص ٢٤.

(٢) انظر د. ابراهيم شحاته حسن : مصر والسودان . مرجع سابق ص ١١٠ .

(٣) محمد أحمد الجابرى : فى شأن الله . المرجع السابق ص ٢٤-٢٥.

وقد حاول سعيد أن يثبت سياسته فى صورة لائحة تأسيسية يرسى بها جهاز الادارة فى السودان على أسس سليمة فأصدر مرسومه الأول فى الخرطوم فى ٢٦ يناير سنة ١٨٦٧م وقد وجهه إلى مديرى المديريات [1] .

تحدث سعيد فى بداية هذا المنشور عن المعاناة التى يعانيها الأهالى بسبب الظلم والضنك الذين يتحملهما الشعب كما تحدث عن زيارته لبربر وما فعل فيها من إجراءات ضرائبية طالباً من المديرين أن يحذوا حذوه ليحققوا العدل ويزيلوا الظلم واقترح تكوين مجلس فى الخرطوم . كذلك أمر سعيد بتسريح الكشّاف الذين كانوا يحكمون الأقاليم . كما حث فى مرسومه المديرين بأن يشجعوا المواطنين على الاستقرار والزراعة .

أمّا فيما يختص بالنواحى القضائية فقد طلب أن تقسم هذه السلطة بين المشايخ والمديرين كما اقترح عليهم تنظيم الارض وتوزيعها .

وتحدث المرسوم كذلك عن الضرائب وكيفية جمعها من البدو الرّحل وسكان الجبال كما طلب من الحكّام الاهتمام بسكان الجبال والعمل على ترقيتهم والسير بهم نحو التمدن والاستقرار . كذلك أمر فى مرسومه بألاّ يترك إنسان فى السجن مدة طويلة دون محاكمة . وفى نهاية المرسوم حاول سعيد أن يضع وسيلة تمكنه من متابعة مايدور فى السودان فاقترح تنظيما للبريد ومحطاته . كما طلب من المديرين اخباره سريعاً إذا تعرضت مديرياتهم لأية إعتداءات وأخبرهم عن استعداده للحضور إلى السودان متى مايحتاجون إليه . كما أكد لهم أنهم لن يفلتوا من عقابه إذا أصاب الأهالى مكروه من قبلهم أو من قبل المشايخ .

أمّا المرسوم الثانى من المراسيم الأربعة التى جعلها سعيد أساساً لحكمه فقد كتبه من القاهرة يؤكد فيه على سياسته الضرائبية وذلك خوفاً منه على

---

(١) انظر نص هذا المرسوم فى ملاحق هذا البحث .

المواطنين حيث اعتقد أنّ المرسوم السابق غير مفسر بصورة واضحة . ولمّا كان معظم أهالى البلاد أميين فقد خشى سعيد أن يعتقدوا أن المتاخرات السابقة لازالت عليهم وأنهم مدينون بها إلى الحكومة ولذلك أراد أن يطمئنهم وبعث بهذا المرسوم الذى هو عبارة عن مذكرة تفسيرية لما سبق أن أعلنه فى موضوع الضرائب (١) .

أمّا المرسوم الثالث فقد تناول فيه الأراضى ومساحاتها وكيفية قياسها ووجه المديرين للعمل بما جاء من نظام منعاً للتظالم (٢) .

وسنتناول هذه المراسيم الثلاث عند الحديث عن النظام الاقتصادى والمالى فى هذه الفترة بشىء من التفصيل والدراسة .

وفى المرسوم الرابع تحدث سعيد عن توزيع العساكر والضباط بين مديريات السودان المختلفة .

أثناء وجود سعيد باشا بالسودان أرسل خطاباً إلى ملك الحبشة يعرفه فيه بطبيعة هذه الزيارة حتى لاتفهم على أنها نوع من الاستعداد لحرب الأحباش وقد جاء هذا الخطاب " تعلقت ارادتنا بالمرور على من كان تحت أنظارنا من الأقاليم السودانية الملحقة بجهاتنا المصرية فوصل الآن ركبنا إليها وحل موكبنا لديها بقصد النظر فيما عليه أهلها من الأحوال والتثبت بأسباب ابلاغهم فى كيفية معاشهم لدرجة الرفاهية واكمال هذا غاية قصدنا ، لاقصد لنا سواه ، وإنّ لكل أمرىء مانوى ، وحيث كان بيننا وبين حضرتكم من حسن الجوار وقرب الدار ، وصلة المصالح التجارية التى هى أقوى صلة بين أعضاء العائلة البشرية ، فقد رأينا من الاقتضاء أن نوجه لحضرتكم هذا الخطاب لتعلم به حقيقة ماقصدناه لقربنا من هذه الجهة من حسن النية وماهو قائم بيننا من طيب ، وما نحن مضمون عليه من الاستمرار على حسن المعاشرة لحق المجاورة "(٣) .

---

(١) انظر نص هذا المرسوم فى ملاحق هذا البحث .

(٢) انظر محمد فؤاد شكري : الحكم المصرى . مرجع سابق ص ٣٥٦.

(٣) دفتر رقم ١٨٨٦ اواخر عربى وثيقة ١٣ ص ١٠ فى جمادى الاولى ١٢٧٣ هـ نقلاً عن الوجود المصرى فى أفريقيا ص ١٣٥.

وهذا الخطاب يعكس لنا أى نوع من الحكام كان سعيد باشا كما يعكس مدى ثقافته واهتمامه بعلائق الجوار حتى يستتب الأمن فى البلاد ويتجه حكامها إلى عمرانها وإسعاد سكانها. وقد كان لهذا الخطاب أثره الفعّال فى العلاقات الأثيوبية المصرية التى اتسمت بالتوتر والعداء طيلة الفترة الماضية ، والدليل على ذلك أنّ ملك الحبشة طلب من سعيد باشا أن يرسل له أحد القسس المصريين كى يقوم بالوعظ فى كنائس الحبشة وقد استجاب سعيد لهذا الطلب فأرسل اليه ملك الحبشة خطابا جاء فيه " بخصوص وصول حضرة القديس البطريك كيرلس بطريك الأقباط وبحضوره لطرفنا وبالسؤال معه عن جنابكم أعلمنا عن مجيئكم لنا ورغبتكم فى دوام المحبة والود بيننا ودوام العشرة وكذلك أرسلنا لكم سبعة خيول منهم ثلاثة كبار وأربعة صغار بالاضافة إلى ورقة فضة مطلبية بالذهب وحربتين"(١) .

ومن خلال هذا الخطاب نلاحظ الروح الودية التى سادت العلاقات بين مصر والحبشة والتى انتهت بتبادل الهدايا حيث رد سعيد بهدية كانت عبارة عن مدفعين من النحاس ومائة بندقية ومائة وست وعشرين ذراعاً من القماش الحرير ومائة وعشرة ذراعاً من القطيفة اضافة إلى خمس خيام مبطنة بالحرير ومزودة بالأعمدة (٢) .

كذلك حرص سعيد على اقامة علاقات طيبة بسلطنة دارفور والتى لم تضم حتى ذلك الوقت إلى الحكم المصرى. وكان سعيد باشا حريصاً كل الحرص على حسن الجوار مع هذه السلطنة حتى لاتدخل معه فى حرب تصرفه عن خدمة البلاد وترقية أهلها كما أنّه كان حريصاً على استمرار العلاقات التجارية بين دارفور ومصر. ولذلك انتهز سعيد فرصة وجوده فى السودان وأرسل خطاباً إلى سلطان الفور طمأنه فيه

---

(١) محفظة ١٩ وثيقة ١٧ فى ٢٥ ربيع اول سنة ١٢٧٤ هـ الموافق ١٨٥٧م نقلاً عن المرجع السابق ص ١٣٦.

(٢) انظر د. السيد يوسف نصر : الوجود المصرى فى أفريقيا . مرجع سابق ص ١٣٦.

بأنّه لايقصد القيام بأى عمل عسكرى ضده وقد جاء فى هذا الخطاب " بالرغم من توفر قواتنا البرية والبحرية إلا أننا لانفكر فى القيام بأى عمل يتنافى مع الانسانية "(١) ويعلق أحد الباحثين على الكتاب بقوله : " واضح من هذه العبارة أنّ سعيد كان يريد أن يفهم سلطان الغور بان مصر تتعامل معه من مركز القوة وليس من مركز الضعف حتى لا تسوّل له نفسه التفكير فى القيام بأى عمل عسكرى ضد السيادة المصرية فى السودان ورغب سعيد أن يفهمه أيضاً أنّه رغم هذه القوة إلا أن مصر لاتفكر فى شن العدوان بقدر ماتفكر فى نشر السلام والأمن فى ربوع هذه البلاد حتى ينعم أهلها بالسعادة والرفاهية والرخاء. ولكى يدعم سعيد العلاقة بينه وبين سلطان دارفور أرسل له بعض الهدايا الرمزية التى شملت فى خمسة سيوف ، كان واحداً منها مذهباً ومرصعاً بالجواهر وكان الباقى مرصعاً بالفضة وخيمة مبطنة من الداخل بقماش مقصّب وعربة ركوب بأربع عجلات وأربع طاقات من القماش المقصب "(٢) .

عاد سعيد باشا إلى مصر فى ١٠ديسمبر سنة ١٨٥٧م وقد رأى فى سفرته هذه ضرورة تقريب السودان من مصر وتسهيل مشقة السفر إليه ، فعند عودته إلى مصر كلف المسيو مونجل المهندس الفرنساوى فرسم له خريطة سكة حديد بين حلفا والخرطوم ولكن مالية مصر آنذاك لم تسمح باخراج هذا المشروع إلى حيز الوجود. وكان قد صحب سعيد باشا فى هذه الرحلة الدكتور أباته باشا فكتب عنها كتاباً نفيساً باللغة الفرنسية (٣) كما صحب معه كذلك فى هذه الرحلة إلى السودان أراكيل بك الأرمنى الملّقب بالفرنساوى . ولمّا ألغى سعيد الحكمدارية وأعاد تنظيم المديريات عين أراكيل بك مديراً على الخرطوم وذلك فى سنة ١٨٥٧م . وقد امتاز بحسن السياسة ولين العريكة ولكن المواطنين والمشايخ أنكروا على سعيد تعيينه

---

(١) د. السيد يوسف نصر . الوجود المصرى فى افريقيا . مرجع سابق ص ١٣٦.
(٢) نفس المرجع ص ١٣٧.
(٣) انظر: نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٢٨.

حاكماً نصرانياً عليهم فأبوا مقابلة أراكيل واستعدوا للثورة عليه . ولكنه تصرف تصرفاً يدل على حسن سياسته حيث ذهب إلى الثوار بمفرده وخاطبهم بقولـه " إن كنت أنا السبب فى عصيانكم فها أنا الآن بينكم فافعلوا بى ماتشاءون على أن تعودوا إلى الولاء إذ يعز على ان تخرجوا عن طاعة ولى أمركم بسببى " . فعجب زعماء الثورة من جراته وحسن اسلوبه وطابت نفوسهم ورجعوا عما عزموا عليه وصحبوه إلى الخرطوم . وقد كتب أراكيل خبر هذه الحادثة الى سعيد باشا فى مصر فبعث فى طلب زعماء الثورة فأرسل له الشيخ أحمد أبوسن والفقيه ابراهيم عبد الرافع صاحب كتاب ستّار فسجنهما بالاسكندرية مدة ثم أفرج عنهما وأرجعهما إلى السودان بعد أن حلفا له يمين الطاعة . وبقى أراكيل مديراً على الخرطوم ، إلى ان توفى فى شهر صفر سنة ١٢٧٥ هـ الموافق سبتمبر سنة ١٨٥٢م [١] .

ويعلق احد الباحثين على هذا الموضوع فيقول : " إن اعتراض السودانيين على تعيين أراكيل بك الأرمنى ليس بالحدث الذى يمكن تجاهله ، بل يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار إذ يدل على أن السودانيين يتمسكون بدينهم ولايقبلون أن يولى عليهم غير مسلم "[٢] .

وفى اعتقادى أن تعيين هذا المدير خطأ كبير وقع فيه سعيد باشا إذ أنه لن يعدم رجلاً من المسلمين فى علم وكفاءة هذا النصرانى الأرمنى .

خلف أراكيل فى ادارة الخرطوم حسن بك سلامه الشركسى الذى عين فى رجب سنة ١٢٥٧ هـ الموافق ١٨٥٩م ولم تطل مدته فيها وقد وصف بأنّه كان فظ الأخلاق سىء الادارة قليل الخبرة فى سياسة البلاد ، إلا أنه كان متديناً كثير الصلوات،

---

(١) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٢٩ .

(٢) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٧٦ .

حسن الاعتقاد عفيف النفس (١) .ويعجب المرء كيف يمكن أن تلتقى كل هذه المتناقضات فى شخص واحد ؟

فى محرم سنة ١٢٧٨ هـ الموافق ١٨٦٢م عزل سعيد باشا حسن بك سلامة وعين بدلاً منه محمد بك راسخ الذى كان مديراً على التاكة ،فحضر إلى الخرطوم فى شهر صفر وذكر أنه كان يحب الطرب والغناء .

فى أواخر أيامه ألغى سعيد نظام اللامركزية الذى لم يحقق الأهداف المقصودة وأرسل سعيد قبل موته بشهور موسى حمدى باشا من أجل اعادة الحكمدارية فى السودان (٢) .

وقد فشلت هذه السياسة التى عول عليها سعيد كثيراً ووضع لها التنظيمات ولكن العبرة ليست بطبيعة الحال فى الهيكل الادارى وإنما فى التنفيذ واستعداد الأعضاء لأن يتصرفوا التصرف المناسب .وبطبيعة الحال كانت هذه تجربة حديثة لابد وأن تكون أخطاؤها أكثر من صوابها بسبب قلة الخبرة لدى القائمين عليها . ولهذا فقد أخفقت فى تأدية الغرض الذى طبقت من أجله (٣) .

ويعلل أحد الباحثين هذا الفشل بكثرة التعيينات حتى صار من الصعب تتبع أوامر التعيين أو الاستدعاء كما يقول . ولنا أن نتصور مايمكن أن ينتج فى ظل هذه السياسة من خلل فى الادارة وانحرافات مختلفة . يضاف إلى هذا أن الوالى مصر لم يعد يقوم بمراقبة كل وجه من وجوه عمل موظفيه وخاصة سعيد الذى كان يميل إلى توزيع سلطاته وعدم تركيزها . وصار الحكمداريون تقوم بتعيينهم مجالس خاصة تقدم قائمة قصيرة بأسماء المرشحين إلى الوالى الذى يختار منهم

---

(١) انظر نعوم شقير: تاريخ السودان ، مرجع سابق ص ٢٢٩ .

(٢) انظر : د. ابراهيم شحاته حسن : مصر والسودان . مرجع سابق ص ١١٠

(٣) انظر : ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٧٥.

واحدا لمنصب الحكمدارية . ولم يعد تعيين حكّام الأقاليم يتم مباشرة عن طريق الوالى إنما بواسطة مجلس من كبار الضباط فى الخرطوم (١) .

هذا وقد وصل موسى باشا حمدى إلى البلاد فى صفر سنة ١٢٧٩ هـ الموافق أغسطس ١٨٦٢م كحكمدار للسودان بينما بقى محمد بك راسخ مديراً على الخرطوم وقد قام موسى حمدى بعدد من الاصلاحات . وفى ٢٦ من رجب سنة ١٢٧٩ هـ الموافق ١٧ يناير سنة ١٨٦٣م توفى سعيد باشا إلى رحمة مولاه .وتولى حكم مصر والسودان بعده اسماعيل باشا ثانى أنجال ابراهيم باشا بن محمدعلى (٢)

...

---

(١) انظر د. ابراهيم شحاته حسن : مصر والسودان . مرجع سابق ص ١٠٩.
(٢) انظر : نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٣٦.

الفصل الثالث

النظام الإدارى فى السودان فى الفترة من ١٨٦٣ - ١٨٨٥م

الادارة فى عهد اسماعيل :(١)

تولى اسماعيل حكم مصر وملحقاتها فى ١٧ يناير سنة ١٨٦٣م اثر وفاة عمه سعيد . ولما كان معجباً بأوربا فقد قرر أن يجعل من مصر قطعة منها ، فعاش كما يعيش ملوك أباطرة أوربا فى ذلك الوقت . ونتيجة لهذا السلوك فقد أغرق البلاد فى الديون ، الأمر الذى أدى إلى تدخل الدول الدائنة فى شؤون مصر الداخلية وبلغ بهم الأمر فى النهاية إلى عزله وتولية ابنه بدلا عنه - مع أنه كان قد تعهد لشعب مصر بالمحافظة على الأموال العامة . وذلك فى أول خطاب له بعد توليه الحكم حين قال : " إنّ أساس الادارة هو النظام والاقتصاد فى المالية وسأبذل كل جهدى فى اتباع قواعد النظام والاقتصاد وقد عزمت أن أرتب لنفسى مخصصات محددة لا أتجاوزها أبداً "(٢) .

---

(١) هو اسماعيل بن ابراهيم بن محمد على باشا .وهو ثانى أنجال ابراهيم باشا . ولد فى ٣١ ديسمبر ١٨٣٠م فى قصر المسافر خانة بالقاهرة . عنى أبوه بتربيته فتعلم مبادىء العلوم والرياضيات ومن اللغات العربية والتركية والفارسية . فى الرابعة عشر من عمره أرسله والده إلى النمسا . التى قضى بها عامين ثم رحل منها إلى باريس حيث انضم إلى تلاميذ البعثة المصرية هناك وكان من بينهم الأمير أحمد رفعت أخوه والأمير ان عبد الحليم وحسين أبناء محمد على وفى باريس نال حظاً من العلوم الهندسية والرياضية والطبيعة مع إتقان اللغة الفرنسية . عاد إلى مصر فى ولاية والده ابراهيم وبعد وفاته اختلف مع عباس باشا فذهب إلى الاستانة حيث عين بمجلس أحكام الدولة العثمانية ومنح رتبة باشا . وأوفده السلطان العثمانى فى كثير من المهام .بعد وفاة أخيه الاكبر الأمير احمد رفعت وأثناء حكم سعيد أصبح ولياً للعهد وبوفاة سعيد أصبح هو الوالى وحصل على لقب خديو بدلاً من والى من السلطان العثمانى فى يونيو سنة ١٨٦٨م .
انظر الرافعى : عصر اسماعيل ج١ المرجع السابق ص ٧٤ .

(٢) د. مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل . مرجع سابق ص ٥٢٠ ولكن يبدو أنّ اسماعيل نسى هذه الكلمة وتصرف فى أموال البلاد بصورة أدت إلى عزله ومكنت الدول الدائنة من السيطرة على مصر.

كان ابراهيم باشا يقول: إن عظمة مصر الحقيقية وميدان توسعها في السودان ، ، حفظ اسماعيل هذه العبارة وجعلها محور سياسته حيث اهتم اهتماماً بالغاً بأمر السودان (١)، خاصة بعد فشل سياسة اللامركزية الادارية التي أوجدها عمه سعيد والتي حاول اسماعيل انهاءها والعودة إلى نظام الحكمدارية وذلك عندما كان وكيلاً لعمه سعيد في أيام مرضه الأخيرة .

وعندما تولى اسماعيل السلطة " كانت الأحوال التي وصلت اليها الادارة المصرية في السودان تستدعي تغييراً جذرياً نتيجة للأخطاء المتكررة التي مارستها منذ أن دخل السودان في حكم محمد علي . وبالرغم من التجارب الكثيرة في الحقل الاداري التي حدثت في عهود الولاة السابقين إلا أن السودان لم يستطع أن يتمتع مطلقاً بالحكم الانساني الذي يتفق ورغبات السكان وطبيعتهم لذلك كانت من أهم الظواهر التي حدثت في أيام اسماعيل التغيير المستمر في نوع الادارة والاداريين مما كان بمثابة ثورة بعد ثورة في مدى فترة حكمه .

وقد كان لذلك التغيير آثاراً بعيدة على السودانيين إذ كان عليهم أن يتمشوا مع التطورات المختلفة السريعة ولم يكن ذلك الأمر بالأمر اليسير عليهم (٢) .

ظهرت بوادر سياسة اسماعيل الجديدة بادخال العنصر الوطني في الادارة والحكم في مصر والسودان في السنة الأولى من حكمه وكما بدأ بتعيين المصريين الأصليين مديرين للأقاليم ، وافق في السودان على تعيين الشيخ أحمد أبوسن كبير مشايخ قبيلة الشكرية مديراً على الخرطوم وسنار . وهي منطقة من أوسع وأهم المناطق في السودان . وكان أحمد بك خير مثل ، فبقاؤه في وظيفته لمدى عشر سنوات وعدم

---

(١) انظر زاهر رياض : السودان المعاصر . مرجع سابق ص١٧٠ .
(٢) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، ص ٨١-٨٢ .

تعرض منطقته للاضطرابات برهنت على كفاءة العنصر السودانى ومقدرته الادارية ونزاهته كذلك [١] .

حكمدارية موسى حمدى باشا [٢] :

عندما جاء اسماعيل إلى الحكم كان الحكمدار فى السودان هو موسى باشا حمدى سنة ١٨٦٢– ١٨٦٥م وقد كان ذو خبرة طويلة بشئون البلاد. وكان يريد وضع حد لشكاية السكان من فداحة الضرائب وعلى الأخص الطريقة المتعسفة التى تجبى بها ، فأصدر قرارات تحدد مقدار كل ضريبة فى سجلات الحكومة وسلم دافعى الضرائب دفاتر يقيد فيها الموظف المختص كل مبلغ يدفع من أصل المبلغ الموزع على ثلاثة أقساط فى العام. وعين من السكان رؤساء ووكلاء مراكز [٣] .

هذا وقد أعجب الخديو من ادارة موسى حمدى للسودان فبعث اليه بخطاب فى الثانى من ذى القعدة سنة ١٢٧٩هـ الموافق أبريل سنة ١٨٦٣م جاء فيه :

" ارادة الى موسى باشا حكمدار السودان . كما هو معلوم لدى الجميع أنّ البلاد السودانية هى أقطار جسيمة صار الاستيلاء عليها بصرف مساع عظيمة وتكاليف باهظة باقتحام مشاق وصعوبات لاتعد ولاتحصى وأنّ الواجب يقتضى بأن تكون مربوطة

---

(١) انظر مكى شبيكة : السودان عبر القرون. مرجع سابق ص ١٥٩.

(٢) جركسى من مماليك أحمد باشا أبوودان الذى كان قد عينه فى هيئة اركان حربه ومن ثم قائداً لحامية الخرطوم . جاء فى معية سعيد باشا ثانية إلى السودان وكان إذ ذاك يشغل منصب مدير جرجا. مالبث أن صار على رأس قوات كردفان فمديراً للخرطوم . كان ابنه الاكبر الدكتور ابراهيم باشا هو الطبيب الخاص للخديو اسماعيل وقد تزوج احدى بناته ورافقه فى منفاه . انظر عبد الرحمن زكى حكمدارو السودان : المجلة المصرية المجلد الأول ١٩٤٨م ص ٤٣٥–٤٣٦.

(٣) انظر د. زاهر رياض : السودان المعاصر . مرجع سابق ص ١٨.

وملحقة بالمملكة المصرية وحيثأنّه لاغنى عن الايضاح أنّ مواقع هذه البلاد صالحة لقبول أسباب العمران وأنّ سكانها مستعدة لتعلم الحرف والصنايع والأخذ بأسباب التمدين والحضارة ، بناءً عليه قد أصبح إعمار وإصلاح ذلك الاقليم الواسع والمحافظة على حقوقه وحدوده أمر مرغوب وملتزم لدينا ، وحيث أنّه مأمول منكم حسن ادارة تلك الجوالى من كل الوجوه بمناسبة اقامتكم وسكنكم مدة فيها ووقوفكم على أصيال (هكذا)(١) وطباع سكانها فضلا عن كفاءتكم الذاتية وأنكم فى يوم انتخابكم وتعيينكم حكمداراً جاءت أكثر أفعالكم واجراءاتكم محمودة وحسنة ، وبما أنّ رضاء الأهالى عنكم وسرورهم بكم حسب ماوصل إلى سمعنا قد أوجب سرورنا وارتياحنا ، فمكافاة على أعمالكم الحسنة والمرضية وغيرتكم الواقعة قد استحصلنا هذه المرة على ارادة شاهانية بتوجيه رتبة (روم ايلى بكلير بكى)(٢) الرفيعة وقطعة من النيشان المجيدى من الدرجة الثانية إلى عهدتكم وأرسلنا إليكم الفرمان والبراءات الخاصة بالرتبة والنيشان المذكورين ، فمأمولى منكم من الآن فصاعداً أن تجتهدوا فى اصلاح واعمار الأقطار الفسيحة المذكورة وحيث أنّ وجود الرعايا الأجانب فى هذه البقعة من جهة ، ودقة أحوال الممالك المجاورة لها من جهة أخرى قد أكسبها أهمية وخطورة عظيمة ، بناءً عليه يجب أن تكونوا على حذر تام من اتيان الأفعال المكروهة فى نظر الأجانب (٣) والمخلة بأمن الأهالى وأن تسهروا على راحتهم ببصيرة كاملة فبادر إلى صرف الدقة والعناية فى هذه الشئون ، نشكر مساعيكم "(٤) .

---

(١) يقصد ميول ورغبات .

(٢) رتبة أمير أمراء الروم .

(٣) هذه العبارة تؤكد حرص اسماعيل على سمعته أمام الأوربيين وحرصه على ارضائهم .

(٤) محفوظات عابدين دفتر ٥٢٦ تركى جزء ثانى مكاتبة رقم ١٨ صفحة ٧٠ نقلاً عن د. محمد فؤاد شكرى ـ الحكم المصرى فى السودان ـ مرجع سابق ص ٢٤٦-٢٤٧

وقد احتفلت البلاد بهذا الانعام على الحكمدار احتفالاً عظيماً واُقيمت المهرجانات وزينت البلاد . وفى ٢٣ من محرم سنة ١٢٨٠ هـ الموافق يوليو ١٨٦٣م ذهب موسى باشا حمدى إلى مصر فأدى الشكر لاسماعيل على انعامه واُطلعه على حال البلاد وعاد إلى الخرطوم فبقى فيها إلى أن توفى فى ٨ شوال سنة ١٢٨١ هـ الموافق مارس ١٨٦٥م . وقد سارت البلاد فى أيامه على أحسن نظام [١] .

بعد وفاة موسى باشا قام عمر فخرى بك بشئون الحكم إلى أن حضر جعفر باشا صادق من مصر حكمدارا على السودان [٢] .

- حكمدارية جعفر باشا صادق [٣] :

بعد وفاة موسى باشا حمدى أصدر الخديوى اسماعيل أمره بتعيين جعفر باشا صادق حكمداراً على السودان فى ١٤ من ذى القعدة سنة ١٢٨١ هـ الموافق أبريل ١٨٦٥م وقد جاء فى هذا الأمر مايلى: " بناءً على انتقال موسى حمدى

---

(١) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٣٦.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣٧.

(٣) جركسى الاصل. كان يعمل جندياً بالشام وترقى من الصفوف حتى بلغ رتبة اللواء. فى فبراير سنة ١٨٥٠م عين مديراً للشرقية ثم القليوبية . وفى عام ١٨٥١ عين مديرا للدقهلية ثم محافظاً للسويس سنة ١٨٥٢م وفى مايو سنة ١٨٥٣م تولى قيادة آليات المدفعية فى حرب القرم ثم أعيد محافظاً للسويس وعين أميراً للحج فى عام ١٨٦٥م. خلف موسى حمدى فى حكم السودان ولكنه مرض وعاد إلى مصر سنة ١٨٦٦م حيث عين رئيساً لمجلس استئناف قبلى فى أسيوط ثم وكيلاً لمجلس الأحكام وفى ظل فى هذا المنصب حتى ١٨٨٤/٣/١٥م حيث استقال بسبب كبر سنه . انظر عبد الرحمن زكى : حكمدارو السودان . المجلة التاريخية المصرية ١٤ مرجع سابق ص ٤٣٧-٤٣٨ .

باشاحكمدار اقاليم السودان إلى دار البقاء بأجله الموعود اقتضت الحال انتخاب وتعيين حكمدارًا بدلاً منه وحيث أنّ اهمية الموقع المذكور أمر ظاهر وإنّ لياقتكم وأهليتكم المشهورة والمسلّمة كفيلة بحسن ادارته فبناءً عليه اقتضت ارادتى تعيينكم حكمدارًا للأقاليم المذكورة فعندما تحيطون علمًا بذلك يجب أن تتاهبوا للسفر إلى جانب[1] مأموريتكم وأن تبادروا ببذل المساعى والاقدام فى حسن ادارة أمورها كما هو مأمول منكم [2] ".

بعد صدور هذا القرار رأى اسماعيل أن يجرى تعديلاً فى الادارة نظرًا لانضمام سواكن ومصوع وملحقاتها للسودان مرة أخرى[3] ، ونظرا للتنظيم الذى ينوى تحقيقه ونظرًا لاتساع ممتلكاته فى النيل الأبيض - والتعديل الجديد يقسّم السودان الى ثلاثة مناطق ، يحكم كل منها حكمدار منفصل يتعاونون فيما بينهم على المصالح المشتركة[4].

ويظهر هذا النظام الجديد فى الخطاب الذى بعث به الخديو فى ٢٩ محرم سنة ١٢٨٢ م الموافق يونيو سنة ١٨٦٥م إلى سليم باشا[5] الجزائرلى حكمدار جزيرة الخرطوم وملحقاتها وقد جاء فيه " إنّ اقليم السودان قد ظل تحت ادارة حكمدار واحد مع سعته وعظمته ، كما لايخفى على أحد ، وأنّ جهة البحر (النيل) الأبيض كانت ملحقة بحكمدارية السودان منذ عهد أفندينا جدنا الأمجد[6] ساكن الجنان وقد كان نصب لها موظفون ولكن لم يكن قد تم تنظيم ادارتها لكونها مستجدة ولا التفت أحد الى تنظيمها فى عهد المرحومين عباس باشا وسعيد باشا فظلت منذ عهديهما مهملة . وحيث أنّ الجهة المذكورة هى من ملحقات السودان ولايجوز

---

(١) يقصد إلى مكان عملكم .
(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل المجلد الثانى الجزء الثالث . القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٦٠٣.
(٣) بعد وفاة محمدعلى رجعت سواكن ومصوع وملحقاتها إلى أملاك السلطان العثمانى.
(٤) انظر مكّى شبيكة : السودان عبر القرون. مرجع سابق ص ١٦١.
(٥) كان حكمدارًا على السودان فى عهد سعيد وسبقت ترجمته .
(٦) يقصد محمد على باشا .

تركها على حالها وقدسبق أن عينّا لها مديراً وموظفين • وبما أنّ دائرة السودان ازدادت سعة وعظمة بمناسبة وضعنا لها نظاماً جديداً لتلك الجهة والحاق سواكن ومصوع وملحقاتها الوسيعة إلىحكومتنا فمن الضرورى أنتكثر اشغالها وتتسع أمورها • ولمّا كانت آمالنا متجهة إلى تسهيل مصالح عباد الله وانجاز الأعمال فى آونتها واماطة الصعوبات والموانع عن طريق سيرها ، فقد اقتضت ارادتنا تقسيم السودان إلى ثلاثة أقسام يدير كل منها حكمدار على حدة ، على أن يكون القسم الأول منها عبارة عن التاكة وسواكن ومصوع وملحقاتها الفسيحة وأن ينحصر القسم الثانى فىجزيرة الخرطوم كاملة مع جهات البحر الأبيض الواقعة فى غربى الجزيرة ، وفى الشرق بالنسبة للبحر الأبيض • وأن يشمل القسم الثالث كردفان ودنقله وبربر مع جهات البحر الأبيض الواقعة فى غربى البحر الأبيض التى تقرر أن ينشأ فيهامديريات • وقد حددت مدة ثلاث سنين لكل من الثلاثة الذين سيتولون الحكمدارية ليمكث فى منصبه خلالها • فاذا أراد أن يعود إلى مصر بعد انقضائها فيجب أن يعرض علينا أمره قبل حلول الميعاد بستة أشهر حتى نتمكن من تولية غيره • ولابأس أن يطيل المدة بعد أن يتمها • وحيث أنّه ينبغى تولية حكمدار لكل من تلك الاقسام ، قدخولناكم حكمدارية عموم جزيرة الخرطوم وجهات البحر الأبيض السالف ذكرها التى هى من ملحقاتها لما عهدنا وشهدنا فيكم الاخلاص والاستقامة والشهامة ، ولايخفى عليكم أهمية هذه البقعة الفسيحة نظراً لاتساعها وكثرة تردد التجار والسياح وسائر القادمين عليها • فاذاً ينبغى أن تقوموا باصلاح هذا القسم وتنظيمه متوسلين بحسن ادارتكم وصائب تدبيركم وأن تنصبوا الموظفين والخدمة اللازم تعيينهم لضبط ادارتها وربطها ، وأنتضعوا كل شئ فى موضعه وتبنوه على أساس متين وأن ترفقوا بالواردين والمترددين والسياح وتعاملوهم بلطف وتهتموا بعمران البلاد وترفيه العباد وتحكموا بينهم بالعدل والانصاف طبق القانون والأصول كما هو واجب علينا أجمعين وتصرفوا فى ذلك كل المجهود وفى ايصال البريد فىأوقاته المعينة وتعتنوا بتسهيل الطرق وتوطيد الأمن فيها الى آخر

حدود حكمداريتكم وأنتنشئوا محطات فى المواضع التى يوجد فيها الماء ، وأن تسيروا أبناء السبيل والمسافرين الذين يفدون من هذه الجهات على هيئة القوافل وتأذنوا لهم فى المرور فى كل شهر مرة أو مرتين وتأخذوا على مشايخ القبائل والعربان عهداً قوياً على مرور أموال التجار أو المترددين بالأمن والسهولة ولاريب أنّ حكمداريتكم تحتاج إلى طائفة من الجنود الموجودين بالسودان . فأذا وصلتم إلى مقر وظيفتكم وأقمتم به شهراً لتتمكنوا من تنظيم الحكمدارية فخابروا الحكمدارين الآخرين واجتمعوا بهما وبامراء اللواء الموجودين فى السودان وشاوروهم فى تخصيص العدد اللازم من العساكر لكل من الحكمداريات وأفرزوا العساكر والضباط المخصصين بحكمداريتكم على حسب القرار المتخذ فى ذلك الاجتماع ، وأقيموهم فى المراكز والمواضع اللازمة ، ونظراً لتأسيس هذه الحكمداريات جديداً فيجب أن يهتم ويعتنى بحسن ادارتها وتسوية أمورها على الوجه الأتم كما أنّه لوحدث اعتداء من الخارج والعياذ بالله ومست الحاجة إلى احضار قوة عسكرية من كل من الحكمداريتين الأخريين ، عدا القوة العسكرية المقيمة فى حكمداريتكم فيجب أن تخابروهما تستعينوهما وعليكم أن يساعد بعضكم بعضاً بدون اضاعة وقت وأوصوا المديرين الذين بالحدود ، أن يتوادوا ويعامل بعضهم بعضاً بالحسنى ولايختلفوا . ولايأبى أحد منهم أن يساعد الآخرين عند الحاجة ويسّهل أمورهم ولاينبغى له أن يقول إنى خاضع لحكمدار آخر فلاأستطيع أن أقوم بهذا الأمر إلا أن يأمرنى الحكمدار الذى أتبعه ، وليحذر أن يؤخر المسائل المهمة الضرورية ويعرضها على الأعضاء وليسارع إلى اجراء ماهو خير لذات المصلحة ، وحيث أنه لايبعد عن الملاحظة أنكم تظنون بعض الظن وتذهبون مذاهب أخرى حينما ترون أن السودان التى كانت تحت ادارة حكمدار واحد قد قسّمت إلى ثلاث حكمداريات وأنكم وليتم حكمداراً لأحد أقسامها ارى من الواجب أن اشرح لكم ما أرمى إليه من المقاصد والأغراض وهى أن التجوال

فى اقليم متسع كالسودان أو الاطلاع على تفاصيل أموره اطلاعا تاماً والبت في انجازها أمر لا يطيقه رجل واحد ، والدليل على ذلك عدم وصول تلك الأقاليم منذ سنين إلى الدرجة المطلوبة من العمران والتمدن وأنى لأرغب كل الرغبة فى تمدين هذه الأقاليم وعمرانها للقابلية والاستعداد المشهورين فيها ولذلك قد لاحظت أن هذه الأمانى الخاصة لاتحصل الا بقسم تلك الديار الى أقسام يمكن أن يدير كل منها رجل واحد . فأولى حكمداراً ومديراً ذا دراية على كل مافى تلك الاقسام فاذا اطلعتم على الحقيقة بوضوحها من البيانات السالفة فاعلموا أننا أصدرنا هذا كى تصرفوا مساعيكم وجهدكم فى تحقيق آمالنا المنتظر تحقيقها منكم "(١) .

ولكن يبدو أن سليم باشا الجزايرلى كان غير راغب فى العمل بالسودان فاعتذر بمرضه فأرسل له اسماعيل خطاباً شديد اللهجة يخبره فيه بوصول اعتذاره عن الوظيفة وقرر فيه فصله من الخدمة وأمره بالرحيل خارج البلاد للمعالجة فى أقرب وقت وحذره من التأخير(٢) .

بعد فترة وجيزة عدل اسماعيل النظام الادارى الذى اقترحه لحكم السودان وأعاد نظام الحكمدار الواحد على كل أنحاء السودان بدلاً من الثلاث حكمداريين وقد أعاد الحكمدار جعفر باشا صادق حكمداراً على السودان وأرسل له خطاب بهذا الخصوص .(٣) كما أصدر اسماعيل فرماناً آخر وجهه إلى المشايخ والحكام والقضاة فى السودان يخطرهم فيه بتعيين جعفر باشا صادق حكمداراً عليهم وكان ذلك بتاريخ ٢٤ محرم سنة ١٢٨٢م الموافق يونيو سنة ١٨٦٥م . وطلب منهم الالتزام

---

(١) عابدين دفتر ٥٣٧ تركى ص٥٦ نقلاً عن الدكتور محمد فؤاد شكرى . الحكم المصرى فى السودان ص ١٤٨-١٥٠.

(٢) انظر د.مكى شبيكة : السودان عبر القرون .مرجع سابق ص ١٦٢.

(٣) انظر د. محمد فؤاد شكرى المرجع السابق نفسه ص ٢٥١ ومابعدها.

بطاعته كما طلب فيه من الحكمدار الجديد العمل على راحتهم وسياستهم بالعدل والانصاف (١) .

بعد تولى جعفر باشا صادق الحكمدارية اندلعت فى كسلا ثورة عظيمة استمرت لعدة أشهر وأزهقت فيها أنفس كثيرة وذلك عندما تمرد الجنود والضباط الجهادية من السودانيين وذلك بسبب سوء الادارة وتأخر الحكومة عن دفع مرتبات الجند لمدة ستة أشهر . وقد كانت بداية هذه الثورة فى مارس سنة ١٨٦٥ (٢). وقد أدت إلى اضطراب الأمن وانفراط عقد النظام .وقد وصلت التقارير إلى الخديو تصور الحالة السيئة التى وصل إليها الأمن فى السودان فأمر الخديو بأن يحضر جعفر باشا مظهر وكيل الحكمدارية من كسلا إلى الخرطوم ويسافر شاهين باشا ناظر الجهادية من مصر إلى السودان ويتعاون الاثنان مع الحكمدار جعفر باشا صادق على استقرار الأحوال العامة وتبيان عوامل الخلل الذى أصاب الادارة الحكومية ومايرونه من اصلاح .غير أن اسماعيل عدل بعض الشىء فى أوامره هذه فأصدر لجعفر باشا صادق بالتخلى عن الحكمدارية وتعيين جعفر باشا مظهر حكمداراً على السودان ، ولكن انتداب شاهين باشا للسفر ظل نافذاً . وقد حضر بالفعل إلى السودان وتفاوض مع الحكمدار الجديد فى اصلاح حال الجندية واتباع القوانين العسكرية بالنسبة للجنود السودانيين وبترحيل بعضهم الى مصر هدأت الاحوال فى السودان (٣) .

---

(١) انظر نص الفرمان فى الملاحق فى هذا المبحث .

(٢) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٣٧.

(٣) انظر مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٦٣-١٦٤.

– حكمدارية جعفر مظهر باشا :(١)

جاء فى خطاب تعيين جعفر باشا مظهر حكمداراً على السودان والذى صدر فى شعبان ١٢٨٢ الموافق يناير ١٨٦٦م مايلى : " إنّ المساعى المنتجة والأعمال المشكورة التى وفقتم إلى القيام بها وفقاً لمقاصدنا الخيرية فى مأموريتكم التى انتدبتم إليها أخيراً بعنوان وكيل حكمدارية السودان بناءً على ماشوهد وعرف فيكم قديماً من المقدرة والجدارة والاخلاص والاستقامة ، قد لاقت منّا قبولاً وتحبيذاً وضاعفت ثقتنا بكم واعتمادنا عليكم أضعافاً. ولما كان اصلاح الحال واستكمال أسباب المدنية والعمران فى اقليم السودان المتسع هو من أهم مانفكر به ونأمل تحقيقه منذ القدم . وكما أنه من المحقق لدينا أنكم تبذلون الجهد فى هذا المشروع وتوفقون فى انجازه بعون البارى وعنايته قد منحناكم رتبة الفريق الرفيعة وأقمناكم حكمداراً للأقاليم السودانية فهلموا إلى العمل ليلاً ونهاراً وتوسلوا بالأسباب المؤدية للاصلاحات والتنظيمات اللازمة الممكنة واعتنوا جيداً فى توسيع الزراعة والتجارة اللتين هما الأساس الأعظم للمدنية والعمران واكفلوا الأمن ورخاء العيش للأهالى والسكان الذين هم وديعة الله وعاملوهم بالعدل والانصاف وقوهم الغبن والضرر وضاعفوا بذلك سرورنا منكم

---

(١) استهل خدمته فى البحرية سنة ١٨٣٠م وتركها سنة ١٨٤٧م حيث نقل إلى دار صناعة بولاق وكان برتبة قائمقام . ثم عين مديراً للدقهلية فالمنوفية فبنى سويف . فى سنة ١٨٦٣ عين مديراً للدقهلية ثانية ومنها نقل الى قنا ثم وكيلاً لحكمدارية السودان وحكمداراً للسودان فى سنة ١٨٦٦م استدعى من منصبه بالسودان وصار عضواً بمجلس الاحكام ثم رئيساً لمجلس استئناف بحرى وشغل عدة مناصب منها مدير الغربية ومدير بيت المال فمحافظاً لمصر . عين رئيساً لمجلس الشورى فى أبريل سنة ١٨٧٨م وبقى فيه حتى ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٨م حيث غلب عليه المرض وتوفى فى نوفمبر من نفس العام .
انظر عبد الرحمن زكى : حكمدارو السودان . المجلة التاريخية المصرية المجلد الأول ١٩٤٨م ص ٤٣٨ – ٤٣٩.

ورضانا عنكم "(١) .

من أهم أعمال جعفر باشا مظهر انشاء المحاكم والمدارس وتحسين ترسانة الخرطوم وكانت سياسته فى مجموعها سياسة اصلاحية (٢) .

ويذكر نعوم شقير أنّه عندما قدم جعفر باشا مظهر إلى الخرطوم حدثت مجاعة واشتد الغلاء حتى هاج الناس فأرسل الحكمدار بعض التجار بنقود من الخزينة إلى الجهات فأتوا بالغلال فرخصت حتى صار ربع الذرة بقرش بعد أن كان بخمسة قروش (٣) .

وفى أواخر سنة ١٨٦٦م ذهب جعفر باشا مظهر إلى سنّار وفازوغلى وكردفان. فاستطلع أحوالها ثم عاد إلى الخرطوم فطلب من مصر رد العساكر السودانية الذين أوفدوا إلى مصر بعد ثورة الجهادية فى كسلا . كما يشير نعوم شقير الى أنه فى هذه السنة (١٨٦٦م) تخلت الدولة العثمانية عن سواكن ومصوع الى الحكومة المصرية بزيادة ١٦ ألف جنيه مصرى على جزيتها السنوية (٤) .

ـ القضاء على تجارة الرقيق فى عهد اسماعيل :

وجه اسماعيل جهوداً كبيرة للقضاء على تجارة الرقيق التى أضحت تمارس بواسطة شركات تضم أوربيين ومصريين وشوام وميدان نشاطها هو جنوب السودان ، الأمر الذى جعل اسماعيل يشدّد فى أوامره للحكمدارية بالقضاء على هذه التجارة . وفى السنة التى تولى فيها اسماعيل السلطة ألقى القبض على سبعين مركباً مشحونة بالأرقاء وأُتى بهم الى الخرطوم ثم أُحضر ملك الشلك (٥) من

---

(١) محمد فؤاد شكرى . الحكم المصرى فى السودان . مرجع سابق ص ٢٥٤.

(٢) انظر د. زاهر رياض : السودان المعاصر . مرجع سابق ص ١٩.

(٣) انظر نعوم شقير: تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٤٦.

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) الشلك من قبائل جنوب السودان القبيلة ويسكنون فى محافظة بحر الغزال ، انظر حسن محمد جوهر وحسنين مخلوف : السودان أرضه وتاريخه وحياة شعبه مطبوعات دار الشعب . القاهرة ١٩٧٠م ص ٩٠ .

فاشودة وسُلّم الرقيق الذى أُخذ من بلاده ، وأُرجع بالهدايا وزج بالتجار في السجن (١) .

وفى سنة ١٨٦٥ فى عهد جعفر باشا صادق احتلت العساكر المصرية فاشودة احتلالاً رسمياً فسدت طريق النيل الأبيض فى وجه تجار الرقيق فى بحر الغزال وخط الاستواء . وكان التجار الأوربيون قد باعوا شركاتهم إلى وكلائهم العرب سنة ١٨٦٠م فوضع جعفر باشا الضرائب عليها ثم احتكرها السيد أحمد العقاد (٢) من الحكومة بخمسة آلاف جنيه فى السنة على أن لايتاجر بالرقيق ومع ذلك ظل رجاله يتاجرون فيه . وأصبحت بلاد خط الاستواء وبحر الغزال تعمها الفوضى فرأت الحكومة أنّه لايمكن اصلاح الحال وابطال تجارة الرقيق إلا إذا ضمت بلاد بحر الغزال وخط الاستواء إلى السودان فعولت على ذلك وبادرت إلى تنفيذ هذه الفكرة .

---

(١) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٥٠ .

(٢) محمد أحمد العقاد أحد تجار أسوان وممن عملوا فى تجارة العاج والرقيق بالنيل الأبيض مع الأوربيين . ولما منعت الحكومة التجار الأوربيين من ممارسة هذه التجارة استولى العقاد على شركاتهم . توفى سنة ١٨٧٠م . وبوفاته انتقلت أعماله الى حفيده أبو السعود .
انظر الدكتور جميل عبيد : المديرية الاستوائية - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٨م ص ٦٦ .

فتح منطقة خط الاستواء وضمها للادارة المصرية :

اختار اسماعيل باشا السير صمويل بيكر (١) مكتشف بحيرة ألبرت ليقوم بضم منطقة خط الاستواء للادارة المصرية . وقد جاء اختيار صمويل بيكر نظراً لمعرفته بهذه المنطقة وعقد له على جيش قوامه ألف وسبعمائة رجل وقد تم تعاقد صمويل بيكر مع الحكومة المصرية على أن يفتح منطقة خط الاستواء باسم الحكومة المصرية ويكون حاكماً عليها لمدة أربع سنوات مقابل عشرة آلاف جنيه فى السنة (٢) . وقد أعطاه اسماعيل فرماناً يخوله فيه فتح تلك البلاد وابطال تجارة الرقيق فيها وتأسيس نقاط عسكرية من غندكرو إلى البحيرات وادخال السفن فى نيلها وتنشيط تجارتها (٣) .

---

(١) ولد فى لندن سنة ١٨٢١م وعمل بالتجارة أولاً فى بريطانيا ثم رحل لجزيرة موريشيوس حيث كان لأبيه بعض الأملاك . وفى سنة ١٨٤٠م ، تزوج ورحل الى سيلان حيث استهوته حياة الصيد والمغامرة وقدم للاستعمار البريطانى العديد من الخدمات . تجول بين آسيا وأوربا . فى سنة ١٨٦١م رحل إلى أفريقيا مستكشفاً لمنابع النيل حيث زار مصر والسودان وأثيوبيا . وفى رحلته فى أعالى النيل الأبيض التقى بالمكتشفين سبيك وجرانت فاطلع على خرائطهما واستفاد من تجاربهما حتى تمكن من اكتشاف بحيرة ألبرت والتى هى احدى البحيرات التى ينبع منها النيل الأبيض . عاد بعد اكتشافه لهذه البحيرة إلى بلده إنجلترا - بعد فترة استدعى لمرافقة ولى عهد إنجلترا فى زيارته لمصر حيث وقع عقد مع الحكومة المصرية يفتح منطقة خط الاستواء . توفى فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٩٣م بانجلترا .

انظر د. جميل عبيد : المديرية الاستوائية . مرجع سابق ص ٦١-٦٢.

(٢) انظر نص العقد فى ملاحق البحث .

(٣) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٥١.

نجح بيكر فى الاستيلاء على أراض واسعة امتدت إلى حدود يوغندا الحالية ولم يتمكن من ذلك إلا بعد أن خاض معارك عديدة مع القبائل الساكنة فى تلك المناطق ولكى يحصل على غذاء لجنوده أغار على تلك القبائل واستولى على أبقارها بالقوة ، كما ألزمها بأمداده بما يحتاج إليه من لحوم وأغذية وكانت ادارته خالية من التروى والحكمة وكثيراً ما كان يستخدم عضلاته فى معاملة زعماء القبائل[1] . ولم يستبشر تجار الرقيق خيراً بقدومه ولذلك فانهم كانوا يبتعدون عن مناطق نفوذه مستمرين فى تجارتهم بالرغم من المحطات العسكرية الثلاث التى نجح فى اقامتها فى كل من غندكرو وفى تيكو وفويرا[2].

وقد أرسل الخديو اسماعيل إلى بيكر خطاباً فى فبراير سنة ١٨٧٣م أبدى فيه بعض الملاحظات على تقرير كان قد بعث به بيكر إلى القاهرة .

فى بداية الخطاب أثنى اسماعيل على نجاح بيكر وشجاعة جنده ودعاه إلى معاملة الأهالى معاملة كريمة وعدم سلب أموالهم .كما اعترض على فكرة أراد بيكر تطبيقها وهى الاستفادة من قوات تجار الرقيق فى جيشه ولكن اعتراض اسماعيل كان بسبب خوفه من عدم اطمئنان السكان عندما يرون أنّ العساكر الجدد هم نفس العساكر الذين كانوا يمارسون النخاسة .كما تطرق خطاب اسماعيل لموضوع احتكار التجارة فى الجنوب[3] .

---

(١) كتب المكتشف الايطالى رومولو جيس كتابا أسماه سبع سنوات فى السودان المصرى صوّر فيه الحكم القاسى لصمويل بيكر فى خط الاستواء . انظر د. جلال يحي – مصر الأفريقية ص ٧٠ .

(٢) انظر ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٨٤.

(٣) د.محمد فؤاد شكرى: الحكم المصرى فى السودان . مرجع سابق ص ٢٥٩ ، ومابعدها .

ولكن يبدو أنّ نجاح صمويل بيكر كان ضئيلًا جداً خاصة اذا ماقيس بالتكاليف الباهظة التى دفعت له نظير مرتبه السنوى الضخم والبواخر التى أعطيت له لتكون تحت تصرفه دون أن يستطيع الوصول بقواته إلى البحيرات الاستوائية . قدّم صمويل بيكر استقالته وعاد إلى وطنه مخلفاً وراءه استياءً عاماً من المواطنين بسبب سياسته ، الأمر الذى جعل اسماعيل يفكّر فى رجل آخر يخلف بيكر فى تلك المناطق وذلك حتى لاتذهب الجهود التى بذلت فيها أدراج الرياح (١)

أوصى ولى عهد إنجلترا اسماعيل باشا بتعيين الكولونيل غردون باشا (٢) خلفاً للسير صمويل بيكر على مديرية خط الاستواء . وقد وافق اسماعيل على

---

(١) انظر ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٨٤.

(٢) شارلس جورج غردون – ولد من اسرة عسكرية فى ٢٨ يناير ١٨٣٣م. التحق بالاكاديمية العسكرية وبعد تخرجه عمل كملازم ثانى فى سلاح المهندسين لمدة عام ونصف حيث أخذ تدريباً على أعمال الميدان ورسم الخرائط . اشترك فى حرب القرم سنة ١٨٥٥م وبانتهاء الحرب اختير لتحديد معالم الحدود بين تركيا وجيرانها. عمل بعد ذلك فى البعثة البريطانية الفرنسية التى أرسلت إلى الصين حيث بقى فيها أربعة أعوام من سبتمبر سنة ١٨٦٠م إلى نوفمبر ١٨٦٠م حيث عمل بنجاح فى الدفاع عن شنغهاى . بعد عودته من الصين اختير للاشراف على بعض الحصون بانجلترا حيث بدأت تتغلب على اتجاهاته المبادىء والأفكار المسيحية . وفى عام ١٨٧١م غادر إنجلترا ممثلاً لها فى رومانيا . وفى طريق عودته من رومانيا قابل نوبار فى القسطنطينية فى ربيع سنة ١٨٧٢م حيث أخبره عن الاستوائية. فى أكتوبر ١٨٧٣م وصلته برقية رسمية من مصر تعرض عليه قبول منصب حاكم المديرية الاستوائية فترك رومانيا فى نوفمبر سنة ١٨٧٣م ومر بالقاهرة فى طريقه لانجلترا ثم ترك إنجلترا فى ٢٨ يناير ١٨٧٤م وله من العمر ٤١ عاماً ليصل القاهرة فى ٦ فبراير سنة ١٨٧٤م . فعمل مديرا للاستوائية حتى عام ١٨٧٦م ثم عمل كحاكم عام للسودان واستقال عقب عزل الخديو اسماعيل . وعند قيام الثورة المهدية أرسلته الحكومة المصرية لاخلاء السودان حيث قتل بالخرطوم .

انظر جميل عبيد : المديرية الاستوائية – مرجع سابق ص ١١٢.

تعيين الكولونيل غردون الذى وافق على التعيين مقابل ألفى جنيه فى العام .
وقد فصلت مديرية خط الاستواء عن حكمدارية السودان .

وقد جاء فى الخطاب الذى أصدره اسماعيل بهذا الخصوص لغردون فى محرم سنة ١٢٩٢ هـ الموافق فبراير سنة ١٨٧٤م مايلى : " أنه بحسب المشهود فيكم من اللياقة والأهلية قد عيناكم مأموراً على جهات خط الاستواء التابعة الحكومة (١) ، وصار فرز هذه الجهة من تبعية حكمدارية السودان وصارت قائمة بنفسها غير تابعة الحكمدارية (٢) إنما كافة لوازمها التى يقتضى الحال لتداركها من طرف الحكمدارية هذه يجرى تداركها بمعرفة الحكمدار وصرف ثمنها من طرفه مقابل محاسبة المالية بذلك (٣) كما أمرنا الحكمدار المومئ إليه بأمرنا الصادر له فى تاريخه ومرسل لكم طى هذا لتوصيله إليه عن يدكم وبما أن أمور التجارة فى ذلك الطرف هى يد واحد يقتضى أن الذى يتحصلوا عليه من تلك الجهات من انواع التجارة بعد صرف كفاية مرتبات العساكر والتعيينات ترسلوه إلى حكمدار السودان لقبوله من أصل مايصرفه من أثمان اللوازمات (٤) التى تطلبوها منه ، وعند وصولكم الآن لتلك الجهات واختياركم أحوالها تجروا ترتيبها بحسب يتراءى لكم وتستحسنوه سواء كان باجعال مديريتين أو اجعال أقسام أو نحو ذلك مما يتوصل اليه به انتظام الجهات المذكورة واستعدادها مع معاملة أهلها بالرفق ولين الجانب والتأليف والمراعاة لما فيه عمارتيهم (٥) وترغيبهم وتشويقهم إلى العمارية (هكذا) ودخولهم فى سلك الانسانية شيئاً

---

(١) يعنى الحكومة المصرية .
(٢) يقصد بالحكمدارية حكمدارية السودان .
(٣) يريد ان يأخذ غردون لمديريته مايحتاجه من حكمدارية السودان على أن يحاسب وزارة المالية بذلك .
(٤) المراد اللوازم والاحتياجات .
(٥) يقصد عمرانهم .

فشيئاً وهكذا مما يلزم اجرى(هكذا) على حسب التعليمات التى أعطيت لكم بالفرنساوى وها هو موجود هناك رؤوف بك[1] قومندان العساكر الموجودة بذاك الطرف وتحرر له أمر من طرفنا ومرسول طيه لتوصيله له بمعرفتكم وأمرناه به أن يكون هو والعساكر تحت امرتكم فيما يجب اجراه (هكذا) فى صالح المصلحة ، وأن المومى إليه ومن معه من العساكر صار لهم مدة زايدة فى تلك الجهات ولذلك منظور فى ارسال خلافهم من هذا الطرق (هكذا)لتغييرهم لكنه فى مسافة ارسال البدل يكون المومى إليه والعساكر منقادين لأوامركم حسب أصول وقوانين الجهادية • وعلى هذا وما منظور لنا فيكم من حسن الغيرة والأهلية مؤملين الاستحصال (هكذا) على مافيه عمارية (هكذا)جهات خط الاستواء المحكى عنها وراحة أهاليها وحسن توطينهم وتأليفهم على الدخول فى سلك الانسانية شيئاً فشيئاً كما هو مطلوبنا "[2] •

لم يجد غردون عند وصوله لمديرية خط الاستواء غير ثلاث محطات هى غندكر وفاتيكو وفويرا وكان عليه أن يعمل على تدعيم سلطة مصر ويمدها إلى منطقة البحيرات • ولقد زوده الخديوى بأركانحرب له قيمة كبيرة لمساعدته على القيام بمهمته على أحسن وجه فوضع تحت امرته البكباشى شاليه لونج الأمريكى[3]

---

(١) أبوه من الصعيد وأمه حبشية عمل كقائد للكتائب المصرية التى رافقت صمويل بيكر • أبعده غردون بعد أن أصبح مديراً لخط الاستواء • كلف باحتلال هرر سنة ١٨٧٥م فأبعده غردون عنها كذلك• أصبح حكمدارا على السودان خلفاً لغردون فى الفترة من ١٨٨٠-١٨٨٢م توفى بالمنيا سنة ١٨٨٨م • انظر د•جميل عبيد • المديرية الاستوائية • مرجع سابق ص ٧٦•

(٢) نعوم شقير • تاريخ السودان • مرجع سابق ص ٢٥٣ – ٢٥٤•

(٣) شاليه لونج فرنسى الأصل هاجرت أسرته إلى أمريكا الشمالية ولد سنة ١٨٤٢ م، اشترك كضابط فى الحرب الأهلية الأمريكية سنة ١٨٦١م – ١٨٦٥م عمل كصحفى وانضم لخدمة مصر سنة ١٨٧٠م صحب غردون إلى المديرية الاستوائية وزار يوغندا واكتشف بحيرة كيوفا التى أسماها بحيرة ابراهيم•كتب عدة كتب عن أفريقيا هاجم فيها غردون وسياسته • توفى سنة ١٩١٧م ويعتبر من المخلصين لمصر • انظر :جميل عبيد – المديرية الاستوائية • مرجع سابق ص ١٢٠-١٢١•

وابراهيم فوزى [١] وروومولو جيسى الايطالى و المهندس لبنان [٢] الفرنسى وغيرهم من الضباط والمهندسين [٣] .

وصلت الحملة الى فاشوده بعد مسيرة سبعة أيام فى النيل فاستقبلها مديرها بالحفاوة والتكريم وشهد غردون وابراهيم فوزى بما وصلت اليه البلاد من العمران والتقدم وذلك بفضل عناية الحكومة المصرية [٤].

تابعت الحملة سيرها جنوباً حتى وصلت غندكر والتى سميت بالاسماعيلية نسبة الى الخديو اسماعيل . وكان يقيم فيها رؤوف باشا الذى استخلفه بيكر فى ادارة مديرية خط الاستواء فقابل غردون بالحفاوة وأطلعه على أحوال البلاد وشئونها .وقد أبقاه غردون قليلاً ثم مالبث أن أقاله .

رأى غردون أنّ مناخ الاسماعيلية ليس صالحاً فنقل مركز الحكومة الى اللادو التى أصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة مديرية خط الاستواء .

---

(١) ابراهيم فوزى من ضباط الجيش المصرى . حضر للخرطوم فى سنة ١٨٧٤م فى طريقه إلى الاستوائية .عمل بالاستوائية ,ابتداءً من سنة ١٨٧٤م وفى سنة ١٨٧٦ تولى ادارتها خلفاً لبروت . اتهم باستغلال نفوذه وتعرض للمحاكمة حيث ثبتت براءته. خلفه على ادارة المديرية الدكتور أمين. ناصر الحركة العرابية. عمل كحكمدار لبوليس القاهرة . اشترك فى قيادة القوات المصرية المدافعة عن الخرطوم ضد حصار المهدية كتب كتاباً عن ذكرياته فى السودان اسماه السودان بين يدى غردون وكتشنر . انظر المرجع السابق ص ١٣٠.

(٢) مهندس فرنسى قدم إلى مصر سنة ١٨١٨م حيث عمل فى خدمة محمد على ثم استقال واشترك فى رحلات كشفية فى النيل ثم عاد لخدمة مصر سنة ١٨٣١ عين للاشراف على الشئون الداخلية سنة ١٨٦٩م ومنح الباشوية سنة ١٨٧٣م اشترك فى تصميم مشروع قناة السويس. تزوج من حبشية . انظر د. جميل عبيد: المديرية الاستوائية .مرجع سابق ص ١٢١.

(٣) انظر ف. جلال يحي – مصر الأفريقية ص ٧٢.

(٤) انظر ابراهيم فوزى – السودان بين يدى غردون وكتشنر . مرجع سابق ج ١ ص ٥٠

بعد أن تولى شئون الحكومة فى تلك الجهات تابع غردون سيره جنوباً حتى بلغ بحيرة ألبرت التى اكتشفها بيكر من قبل واستولى على عشرة مراكب من سفن الأهالى استخدمها لاكتشاف شواطىء البحيرة . كما استقدم من الخرطوم العدد الكافى من البواخر النيلية ومن آلات الترسانة المصرية بالخرطوم وعمالها وأنشأ شمالى بحيرة ألبرت ترسانة لتنظيم الملاحة فى أعالى النيل .

أنشأ غردون عدة نقاط عسكرية حصينة على شاطىء النيل كما حصن النقاط التى أنشاها بيكر من قبل فمن ما أنشاه نقطة سوباط على ملتقى نهر السوباط بالنيل ونقطة الناصر على نهر السوباط وشامية وبور واللادو[١] ولايورى والرجاف والدفلاى على النيل الأبيض ومكركة جنوب بحر الغزال ومرولى على نيل فكتوريا ومقانقو الواقعة على مصب نيل فكتوريا فى بحيرة ألبرت [٢].

أراد غردون أن يتجنب الأخطاء التى وقع فيها بيكر وخاصة فى علاقته مع قبائل البارى التى كان يهاجمها بيكر واستطاع غردون بمعاونة موظفيه أن يسوس تلك القبائل بسياسة فيها الكثير من اللطف والرغبة فى مساعدتهم .

قام غردون بسحب الحامية المصرية التى كانت موجودة بأوغندا رغم عدم موافقة اسماعيل علي هذا الأمر وذلك حين شعر غردون أن ملك أوغندا حول ولاءه من مصر [٣] .

ولكن الدكتور جلال يحي يرى أنّ غردون لم يكن مخلصاً للادارة المصرية وانما كان ينفذ السياسة البريطانية فى أفريقيا ويقول فى ذلك " ولما كانت مهمة غردون في مديرية خط الاستواء قد قاربت على الانتهاء عاد إلى مصر ومنها إلى لندن تاركاً الحرية التامة للانجليز لكى يعملوا من شرق أفريقيا متجهين

---

(١) هى جوبا الحالية .

(٢) انظر ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٨٥ .

(٣) د. جلال يحي ـ مصر الافريقية . مرجع سابق ص ٧٥ .

جنوب هضبة البحيرات ، وشهدت هذه السنة إنشاء شركة شرق أفريقيا الامبراطورية البريطانية ، لاستغلال الأراضى الواقعة بين زنزبار وهضبة البحيرات (١)".

ويشاركه فى هذا الراى المؤرخ عبد الرحمن الرافعى إذ يقول فى كتابه عن عصر اسماعيل " وغنى عن البيان أنَّ غردون لم يكن يبغى من استغلال اوغندا دفاعاً عن مصلحتها ، بل كان مايبغيه أن تكون بعيدة عن التبعية المصرية حتى تصير فيما بعد لقمة سائغة لانجلترا وقد بسطت فعلًا حمايتها عليها بعد فصل السودان . وهكذا يتبين لنا أن غردون لم يكن خالص النية لمصر مثل شاى لونج بل كان يخدم السياسة الإنجليزية أثناء تقلده منصب الحكم فى مديرية خط الاستواء وكذلك عند ولايته حاكماً عاماً على السودان سنة ١٨٧٧م" (٢) .

حقيقة كان غردون ينفذ السياسة البريطانية فى أفريقيا . فمراسلاته مع أخته تكشف أنه كان يضع سياسة بلاده فوق كل الاعتبارات ويسعى لخدمة امبراطوريته وإذا تذكرنا أن تعيينه فى السودان قد تم وفق نصيحة ولى عهد إنجلترا أدركنا الغرض الذى جاء من أجله . اضافة إلى ذلك الراتب الصغير الذى قبل به نظير القيام بهذه المهمة يدل على أن للرجل اهدافاً أخرى.

---

(١) د. جلال يحي : مصر الافريقية . مرجع سابق ص ٧٥.

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل . مرجع سابق ج ١ ص ١٢٨.

بلغ نجاح غوردون فى مهمته حدا أبعد من بيكر ، لأن غردون استطاع أن يكسب مودة بعض القبائل وذلك بمعاونة الاداريين الذين اختارهم للعمل معه . كما أنه اقام حوالىعشر محطات عسكرية فى تلك المناطق ساعدت كثيراً فىتثبيت الأمن ومطاردة تجار الرقيق . كذلك جعل الاتصال بين الشمال والجنوب أمراً مأموناً لاتحفه المخاطر مما جعل من الممكن للتجارة بين الشمال والجنوب أن تسير بنجاح . ولكن ممالاشك فيه أن غردون قد تسبب فى ضياع أوغندا التى كانت تنظر شمالاً فى ارتباطها بالعالم الخارجى ، ولكن منذ استقلالها اضحت تتجه شرقاً نحو كينيا وشرق أفريقيا وانقطع اتصالها بمجرى النيل (١) .

بقى الكولونيل غردونمديراً العموم خط الاستواء إلى أن استقال من منصبه سنة ١٨٧٦م وعاد إلىالقاهرة ومنها لانجلترا التى لم يلبث فيها أكثر من ثلاث سنوات حتى تدخلت الحكومة البريطانية لدى اسماعيل لتعيينه حاكماً عاماً علىالسودان .

عندما غادر غردون مديرية خط الاستواء استخلف عليها وكيله الكولونيل بروت (٢) وهو ضابط أمريكى التحق بخدمة الجيش المصرى وخدم تحت لواء غردون باشا ، وبعد استقالة بروت تولىادارة هذه المديرية اللواء ابراهيم

---

(١) انظر ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ٨٥-٨٦.

(٢) بروت بك أمريكى الاصل ١٨٤٥-١٩٢٧م . اشترك فىالحرب الأهلية الامريكية ثم حصل على شهادة فىالهندسة الميكانيكية من جامعة ميتشجيان. التحق بخدمة جيش مصر سنة ١٨٧٢م . اشترك فى قيادة بعثة إلى كردفان سنة ١٨٧٥ وقدم تقارير هامة عن كردفان ودارفور. رقى إلى رتبة قائمقام ونقل إلى الاستوائية ليخلف غردون . بقى مديراً على الاستوائية من ديسمبر ١٨٧٦ الى مايو١٨٧٧محيث ذهب لانجلترا للاستشفاء ثم استقال من الحكومة المصريةوعاد إلى أمريكا حيث عمل كمحررصحفى ثممديراً لشركةهندسيةوتفرغ للتأليف فى آخرحياته .انظر جميلعبيد: المديرية الاستوائية . مرجع سابق ص ١٢٩-١٣٠.

فوزى ثم فصل منها وعين مكانه الدكتور أمين[1]. وقد بقى مديراً عليها حتى قيام الثورة المهدية [2] .

ادارة السودان الشمالى فى هذه الفترة :

ذكرت أنّ اسماعيل بعد ثورة الجهادية فى كسلا قد أعفى جعفر باشا صادق من الحكمدارية وعيّن بدلاً عنه جعفر باشا مظهر الذى دامت فترة حكمه الى الثانى من جمادى الأولى سنة ١٢٨٨ هـ الموافق يوليو ١٨٧١م وكان رجلاً عفيفاً صادقاً محمود الحكم . وقد خلفه ممتاز باشا[3] محافظ سواكن[4].

كان اسماعيل قد أجرى تعديلا اداريا فصل بموجبه مديرية بربر من الحكمدارية وجعلها مديرية قائمة بذاتها وتتبع فى ادارتها للمعية السنية[5]

---

(١) اسمه الأصلى ادوارد شينتزر، ولد فى ٢٨ مارس ١٨٤٠ بألمانيا ، لأب بروتستنتى المذهب وليس يهوديا كما ورد فى بعض المصادر . التحق بدراسة الطب وكان شديد التأثر بأى نقد يوجه له. سافر خارج بلاده حيث أصبح طبيبا للحجر الجمركى فى ميناء ألبانى خاضع لتركيا . اندمج فى الجو الشرقى وتعلم اللغة العربية . فى سنة ١٨٧٠م ترك عمله السابق وتحول لخدمة حاكم ألبانيا التركى وظل فى حاشيته إلى أن توفى الحاكم فتزوج زوجته ثم اختفى من ألبانيا واتجه إلى سوريا ومصر حيث ادعى أنه تركى وغير اسمه وديانته ، فادعى الاسلام وتسمى باسم الدكتور أمين . ولكن كثيراً من المراجع تشير إلى أن ادعاءه للاسلام لم يكن خالصا . اتجه من مصر نحو الخرطوم التى وصلها فى ديسمبر ١٨٧٥م وانقطعت أخباره بعد ذلك عن أقاربه لمدة خمسة عشر عاماً. استدعاه غوردون من الخرطوم وعينه طبيباً فى الاستوائية ثم عين مديراً عليها وظل بها الى قيام الثورة المهدية .

انظر: د.جميل عبيد: المديرية الاستوائية. مرجع سابق ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) انظر عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل. مرجع سابق ج ١ ص ١٣٠.

(٣) توفى سنة ١٨٧٥م ودفن بالخرطوم .

(٤) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٥٧.

(٥) تعبير يقصد به الخديو .

لا للحكومة المصرية. وقلدت ادارتها لحسين بك خليفة كبير عربان العبابدة ومتعهد التمور وفصلت حسابات المديرية من ميزانية الحكمدارية . جاء ذلك فى خطاب الخديوى اسماعيل الذى أرسله لحسين بك خليفة وقد جاء فيه " بناء على ماعلمناه فيكم من الأهلية واللياقة والاستعداد قد رقيناكم إلى الرتبة الثانية وأوليناكم مدير بربر وجعلنا هذه المديرية قائمة بذاتها مفروزة عن حكمدارية السودان ، غير تابعة الحكمدارية ولايكن لديوان المالية عليها مراجعة ولا ملاحظة بل تكن تبعيتها لمعيتنا وفقط المكاتبات والمخابرات العادية يكتب عنها إلى نظارة الداخلية ، وأما باقى أشغالها وحساباتها ومصالحها يكتب عنها لمعيتنا بدون واسطة "(١)

هذا ولم يذكر اسماعيل أو أى مصدر آخر سبب اتخاذ هذا الاجراء .

بعد اقالة جعفر باشا مظهر أجرى اسماعيل تعديلاً اداريا آخر قسّم السودان بموجبه إلى قبلى وبحرى . أما قبلى السودان فيشمل مديريات الخرطوم وسنّار وفازوغلى والبحر الأبيض (النيل الأبيض) وكردفان والتاكة وعين ممتاز باشا مديراً له . أما بحرى السودان فيشمل مديريتى دنقله وبربر وبذلك رجعت مديرية بربر لسلطة الحكومة وانفصلت من المعية وعين حسين بك خليفة مديراً لبحرى السودان (٢) .

اهتم ممتاز اهتماماً واسعاً بالزراعة فأدخل زراعة القطن المصرى، ولكنه اتهم بالرشوة وذكرت بعض المصادر أنّه أخذ من سنّار وحدها مائة وخمسين ألف ريال . كما أشارت هذه المصادر إلى أنّ أهل السودان قد أكثروا من الشكوى منه فاوقف عن الخدمة سنة ١٨٧٣م وسجن فى الخرطوم للتحقيق فى تلك الشكايات وتشير تلك المصادر إلى وفاته فى السجن سنة ١٨٧٥م (٣) .

---

(١) د. مكى شبيكه : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٦٧.

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٦٨.

(٣) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٧٥.

الا أنّ الشاطر بصيلى عبد الجليل قد أفرد فى كتابه معالم تاريخ سودان وادي النيل ملحقاً خاصاً دافع فيه عن ممتاز باشا ورد التهم التى أتهم بها ومن بعض ماجاء فى دفاعه عنه "عين ممتاز باشا مديراً لعموم قبلى لما عهد فيه من كفاءة وجدارة وخبرة بشئون السودان الاقتصادية والادارية . ودخلت فى اختصاصه مديريات الخرطوم وسنّار والنيل الأبيض وفازوغلى . وفى المدة القصيرة التى قضاها فى مركزه هذا ، وجه اهتمامه نحو فحص موارد الميزانية ومصروفاتها . وعمل على معادلتها أو على الأقل تخفيف ماتدفعه الخزانة العامة لتغطية عجز ميزانية مديريات السودان . لذلك أوقف الاحسانات التى تدفع للعلماء . كما أدخل تعديلات على الضرائب التى رفعها سلفه جعفر باشا مظهر بما يقرب من الخمسين فى المائة لغير ما سبب أكثر من أنه أراد أن يعرف ماستكون عليه حالة دافع الضرائب وعند ذلك ينظر فى تعديلها . كما رفع ممتاز عن أهالى النيل الأبيض وغيرهم المبالغ الاضافية التى فرضها جعفر باشا لسداد قيمة نصف استحقاق مرتبات السوارى والعسكر المعينين للمحافظة على الأمن . وقد جعل ممتاز جباية الضرائب تقوم على أساس مقدرة الفرد المالية . فكان على الأغنياء أن يدفعوا أموالاً أكثر مما كانوا يدفعونه فى الماضى ، الذى كان المواطن العادى يتحمل أكثر العبء . ومن هذا يتبين لنا مدى ماكانت عليه السياسة المالية من تخبط بسبب الارتجال وفقدان الكفايات والخبراء . فأثارت هذه التعديلات التى أجراها ممتاز الطبقة الغنية صاحبة النفوذ . ومن هنا بدأت الدسائس تدبر للخلاص من ممتاز باشا وقد تزعم هذه الحركة معنى بك الشامى وكيل مديرية الخرطوم وصنيعة اسماعيل باشا صديق(١) المفتش الذى كان عدواً لدوداً لممتاز

---

(١) عين وزيرا للمالية فى سنة ١٨٦٨م وظل قابضاً على الشئون المالية في مصر وملحقاتها لمدة ثمانى سنوات . ويعتبر هو المسئول الأول عن اغراق مصر فى الديون وتسليمها للدائنين وقد أثرى ثراءاً فاحشاً خلال تقلده لمنصبه هذا . قتل فى ظروف غامضة . وتشير بعض المصادر الى ان اسماعيل أغرقه فى النيل كما تقول أخرى انه قد بعث به الى دنقله ليقتل هناك . انظر د. مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل . مرجع سابق ص ٥٢١ .

بسبب خشيته من ازدياد نفوذ ممتاز لنشاطه وقدرته على معالجة مشاكل السودان المالية والادارية . لذلك كان اسماعيل باشا صديق اليد الخفية التى تلعب لاعداد الشكاوى وارسالها إلى الخديو عن تصرفات ممتاز باشا التى صورت بأنها تزوير فى السجلات وادعى البعض كما تناقلته الروايات أنه يقبل الرشاوى ولم يكن من العسير فى زمن ساد فيه الانحلال أن يذهب ممتاز باشا ضحية منافسيه من رجال السلطة فى مصر ، الذين كان يهمهم اختفاء أمثال ممتاز باشا واقصائهم عن مراكزهم والقضاء عليهم ليخلو لهم الطريق للوصول إلى تحقيق مطامعهم الذاتية .

" وكان من نتيجة هذه الشكاوى التى صاحبها الرسل يحملون الهدايا ومنهم معنى بك الشامى أن تعطلت المشروعات التى بدأها ممتاز لمعارضة المديرين لتنفيذها لأسباب غير معروفة . كما ألقى القبض على ممتاز عند وصوله إلى القاهرة ووضع فى السجن فى القلعة (١) بالقاهرة حيث أمضى حوالى الشهر حتى ظهرت براءته وأطلق سراحه . وقد كافاه الخديوى باهدائه عزبتين مساحة كل منها ٢٥٠ فدان احداهما فى دار البقر فى المحلة الكبرى والثانية فى كفر الدوار . وقد حزت فى نفسه حالة القبض عليه وايداعه السجن بسبب الوشايات وعز عليه أن يعامل بمثل هذه المعاملة بعد جهوده المضنية التى بذلها لرفاهية السودان وتقدمه الاقتصادى . وعاد الى الخرطوم بمفرده بعد أن ترك عائلته فى القاهرة .

" ولاشك أن طول مدة السفر قد ضاعف من هواجسه حتى وصل إلى الخرطوم فى حالة نفسية غير طبيعية . وبينما كان متاهباً لاستقبال المهنئين فى إحدى المناسبات المعتادة وجد أنه قد خرج مبكراً عن الموعد المحدد فاستلقى على أريكة ليستريح قليلاً وطلب من خادمه الخاص أن ينبهه عند اقتراب الموعد

---

(١) ذكر نعوم شقير أن سجن ممتاز باشا كان فى الخرطوم . وللتوفيق بين الروايتين يمكن أن يكون ممتاز قد سجن أولا فى الخرطوم ثم أرسل الى القاهرة وسجن بعض الوقت حتى تمت براءته ثم عاد الى الخرطوم حيث توفى بها .

ولما ذهب إليه وجد أنّه قد فارق الحياة وله من العمر مايزيد قليلاً عن الخمسة والأربعين عاماً. هذا ماذكره خادمه الخاص نقلاً عن حفيده ابراهيم رياض المحامى . وقد أيّد هذه الرواية أكثر من شخص من المعمرين . وطويت بوفاته صفحة شخصية قدمت للبلاد أجلّ الخدمات فى الوقت الذى وصل فيه الانحلال إلى مرحلة خطيرة .

« واراد الخديو اسماعيل أن يرسل ابنه الوحيد محمود فى بعثة إلى الخارج مع " البرنس " حسن غير أن والدته رفضت أن يفارقها وحيدها الذى استمر فى صرف معاشه عن والده ممتاز باشا حتى وفاته فى سبتمبر ١٩٤٢م (ولد حوالى ١٨٦٧م) وله من العمر خمسة وسبعون عاماً . ويرجع استمرار المعاش طوال هذه المدة لعاهة فى احدى العينين .

« وهكذا يتبين لنا أثر الشائعات التى استطاعت ان تقلب الحقائق وتزورها .وقد جاء فيها أنّ ممتاز حبس فى الخرطوم لأكثر من خمسة أعوام فى انتظار هيئة المحاكمة برئاسة خالد باشا . وقالوا إنّ أملاكه قد صودرت وأنّه مات مسموماً . وكل هذا لانصيب له من الصحة . فخالد باشا ذهب إلى السودان فى سنة ١٨٧٤-١٨٧٥م وشغل منصب وكيل الحكمدار اسماعيل باشا أيوب . وقد أعفى خالد باشا من أعماله ونقل إلى مصر بسبب عدم رضاء اسماعيل أيوب عن أعماله .وجاء فى خطاب آدم باشا العريفى مأمور ادارة عموم قبلى السودان ، الذى استلم أعمال المديرية بعد وفاة ممتاز باشا مايفيد بان وفاته قد حدثت فى اواخر عام ١٨٧٢م (١) » .

وفى اعتقادى ان هذه الحجج التى أوردها الكاتب كافية لدحض التهم التى أُلصقت بممتاز باشا الذى شهدت له أعماله فى سواكن عندما كان محافظاً عليها، وادارته لقبلى السودان تدل على كفاءته وخبرته خاصة فى مجالات الزراعة .

---

(١) الشاطر بصيلى عبدالجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل . ملحق رقم ٨ ص ٢٧٢ ومابعدها .

الحكمدار اسماعيل باشا ايوب :[(١)]

بعد سجن ممتاز وعزله عين اسماعيل باشا أيوب مديراً عاما لأقاليم قبلى السودان وقد جاء فى خطاب تعيينه الصادر فى الثالث من جمادى الاخرة ١٢٨٩ هـ الموافق اغسطس ١٨٧٢م مايلى :

" بناءً على صداقتكم ولياقتكم المعلومة والمسلّمة قد وجهنا إليكم رتبة اللواء الرفيعة وعيناكم مديراً عاماً لأقاليم قبلى السودان ، وحيث أن تلك المديريات المحالة إليكم صالحة ومستعدة للتمدن والعمران من كل الوجوه فبناءً عليه يجب أن تبادروا بتعليم وتلقين أهاليها أصول الزراعة والفلاحة وتأهيلهم بالتدريج للتمدن والعمران ، وحيث أن رؤية وتسوية أمور ومصالح العباد فى دائرة الحق والعدالة ورفاهيتهم وحضارتهم وراحتهم من مقتضى ارادتنا فبناءً عليه يجب أن تبذلوا أقصى الجهد فى هذه المهمة لتحققوا آمالنا المعهودة فيكم ومزيد توجهاتنا نحوكم ولذلك أصدرنا لكم أمرنا هذا "[(٢)] .

بعد أن قضى اسماعيل باشا أيوب فى هذا المنصب مدة خمسة عشر شهراً ، عادت الادارة إلى مركزيتها ورجعت الحكمدارية بتعيينه حكمداراً على الأقاليم السودانية بعد فشل اللامركزية وتجزئة السودان إلى ادارات مستقلة حيث أن تكوينه الجغرافى لايدع مجالاً لمديريات منفصلة ولابد من أن تحتك أجزاء الادارة الحكومية . فقد كان يشكو مثلاً مدير الخرطوم من مدير التاكة

---

(١) اسماعيل باشا أيوب من ضباط الجيش المصرى فى السودان ، التى قضى بها فترة طويلة شغل خلالها منصب وكيل الحكمدارية ورئيس مجلس السودان قبل أن يصبح حكمداراً على البلاد . انظر عبد الرحمن زكى حكمدارو السودان ـ المجلة التاريخية المصرية . المجلد الأول ١٩٤٨م ص٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

(٢) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا . مرجع سابق . المجلد الثانى ج ٣ ص ١٠١٠ .

لالتجاء القبائل التابعة لمدير الخرطوم إلى التاكة هرباً من دفع الضرائب كما شكا حسين بك خليفة إلى الخديو من معاكسة مدير قبلى السودان للفارين من مديريته ومنعهم من الرجوع إلى أوطانهم ٠

وقدحدث فى هذه الفترة ضم بحر الغزال ودارفور إلى الادارة المصرية ٠

ـ ظهور الزبير وضم بحر الغزال إلى أملاك الحكومة : (١)

الزبير رحمة من التجار السودانيين الذين ذهبوا مبكراً إلى الجنوب وهناك نمت تجارته واتسعت أملاكه كما أنّه صاهر أحد الملوك فى تلك الجهات ونظراً لاتساع تجارته اضطر إلى تكوين جيش قوى يحمى به نفسه وأمواله نظراً لانعدام الأمن فى تلك المناطق حيث أنّ هذه المناطق كان يحكمها حكّام محليون ولم تكن سلطة الحكومة المصرية قد وصلت إليها ٠

دخل الزبير فى معارك مع أحد الزعماء واستطاع ان يهزمه ويستولى على أملاكه وبذلك أصبح هو المتنفذ فى تلك الجهات واتخذ بلدة سماها ديم الزبير عاصمة له ٠

ويصف الزبير كيفية انتصاره واتساع نفوذه بقوله : " وخرجت الى بلاد قولو حيث يقيم الملك عدوه شكو فدخلتها أول محرم سنة ١٢٨٢ الموافق ٢٧ مايو سنة ١٨٦٥م وكان هذا الملك قد غدر بأخى منصور وقتله هو ورفاقه

---

(١) هو الزبير بن منصور بن على بن محمد بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر بن شاهين بن جميع بن جموع بن غانم العباس ٠ من قبيلة الجميعاب ولد فى ١٧ محرم سنة ١٢٤٦ الموافق ٨ يوليو ١٨٣١م تعلم القران بكتّاب الخرطوم وحفظ القران وتفقه على مذهب مالك٠ اشتغل بالتجارة ثم سافر مع ابن عمه إلى بحر الغزال فى خدمة التاجر على عمورى الذى أصبح الزبير وكيلاً له ٠ فتح بحر الغزال ودارفور باسم الحكومة المصرية وعين مديراً لبحر الغزال ٠ ذهب إلى مصر ولكن الحكومة تحفظت عليه هناك ولم يرجع إلى السودان إلا بعد نهاية دولة المهدية ٠
انظر عبد الله حسين المحامى : السودان فى التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية ج ٢ ص ٠٤٧

الذين أرسلتهم للاتجار فى بلاده واستولى على جميع مالهم فلم يشك فى أننى جئت للأخذ بثأر أخى فلم يسمح لى بالبقاء فى بلاده وتهددنى بالحرب فتزلفت إليه بالهدايا وأكدت له اللاقصد لى سوى التجارة فرفض الهدايا وأصر على خروجى من بلاده فى الحال وكان الفصل شتاءً والبلاد مغمورة بالمياه فسألته أن يمهلنى الى أن ينقطع المطر وتفتح الطرق فأبى فناجزته إذاك الحرب وجرى بينى وبينه عدة وقائع دموية حتى قتل فخلفه ابنه فتغلبت عليه وأخذته اسيراً وامتلكت بلاده وجميع البلاد المجاورة لها إلى بحر العرب واتخذت عاصمته بابه التى سميت بعد ذلك ديم الزبير مركزاً لى فصرت فيها ملكاً وصارت الناس تتقاطر إلىّ من كل الجهات للانتظام فى خدمتى فجلبت الأسلحة وجمعت جيشا قوياً وحكمت البلاد بالكتاب والسنة وشرعت فى تمدنها وعمارتها وتوسيع نطاق التجارة فيها"(١) .

إلا أن تاريخ الزبير قد شوه من قبل الأوربيين وتبعهم فى ذلك بعض المؤرخين السودانيين والمصريين . والسبب الذى قصده المؤرخون الأوربيون فى ذلك هو إذكاء روح البغضاء بين سكان السودان الجنوبى والشمالى. وقد نجحوا فى ذلك إلى حد كبير. وما مشكلة جنوب السودان إلا أثراً من آثار تلك السياسة .ولكن المستغرب حقاً أن ينقل أبناء مصر والسودان تلك السموم باعتبار أنها حقائق . وحتى عبد الرحمن الرافعى الذى عرف بموضوعيته قد وقع فى هذا الخطأ حين قال " كان الزبير أكبر تجار السودان وخاصة فى تجارة الرقيق وله نفوذ واسع وسلطان كبير فى اقليم بحر الغزال " . ويضيف " .. وتقاطر الناس للانتظام فى خدمته فجمع لنفسه جيشاً قويا لتأييد سلطته واقتناص الرقيق وفتح طريق التجارة من بحر الغزال إلى كردفان"(٢)

---

(١) نعوم شقير :تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٦٥.
(٢) عبدالرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ .مرجع سابق ص ١٣٣.

ولكن الاستاذ ضرار صالح ضرار يدافع عن الزبير بقوله : " دخل الزبير بحر الغزال دارت بينه وبين ملوك قبائلها عدة مناوشات انتهت بانتصاره عليهم وتأسيس حكومة هو رئيسها تحكم المنطقة حكماً اسلاميا بعد أن كوّن لنفسه مجلسا للشورى من بعض العلماء لاقرار أحكامه في تلك المناطق . ومن الجدير بالملاحظة أنّ حكومة الزبير هي أول حكومة اسلامية تقام في بحر الغزال وفتح للتجار الشماليين أبواب تلك المنطقة التي كانت تحت حكمه تنعم بالهدوء والأمن "(١) .

ويتحدث باحث آخر مدافعاً عن الزبير بقوله : " لقد لعب الزبير باشا الذي أفلح في قيام دولة تحكم بالشريعة الاسلامية في بحر الغزال دوراً مميزاً في نشر اللغة العربية والاسلام وقد تعرض اسم الزبير لكثير من التشويه والتشهير مما جعل صورته تهتز في الأذهان إذ درج بعض الباحثين على اظهاره كتاجر رقيق ليس إلا متجاهلين الظرف التاريخي وظرف المنطقة وأوضاعها ومتناسيين اصلاحات الزبير ودوره الرائد في وضع لبنة هامة في بناء السودان المعاصر "(٢) .

ومما يؤكد اهتمام الزبير بالاسلام وتربية جيشه عليه أن أحد قواده عندما رفض التسليم للايطالي جيسي سار بجيشه إلى منطقة تشاد حيث أسس مملكة إسلامية عاصمتها وداي .. وكان هذا القائد هو رابح فضل الله المعروف برابح الزبير وقد دوخت هذه السلطة الاسلامية الفرنسيين في تلك الجهات إلى أن تمكنوا في النهاية من القضاء عليها .

---

(١) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، مرجع سابق ص ٨٦-٨٧ .

(٢) حسن مكي محمد أحمد : السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السودان المركز الاسلامي الأفريقي بالخرطوم . شعبة البحوث والنشر ١٩٨٣م ص ١١ .

- ضم بحر الغزال :

فى هذه الأثناء الذى سيطر فيه الزبير على معظم بحر الغزال، وضع حكمدار السودان خطة لضم اقليم بحر الغزال إلى نفوذه وعين أحد أهالى غرب السودان ويدعى الشيخ محمد البلالى[١] ناظراً لقسم بحر الغزال ليكون تابعاً لمديرية فشودة وعيّن له معاونيه وكتبة وجنوده. وشعر الزبير بأن الشيخ البلالى يريد أن يهدم مابناه من مملكة فدخل معه فى صراع انتهى بمقتل الشيخ البلالى وانتصار الزبير . وقد خف إلى مكان المعركة معاون من الحكمدارية ومعه مجموعة من العساكر لاجراء تحقيق فى الأمر ، بعث بنتيجته إلى الخرطوم [٢] .

وصلت هذه التحقيقات إلى الخرطوم عندما كان آدم باشا العريفى يقوم مقام مدير عموم قبلى السودان بدلاً من ممتاز باشا الذى عزل رهن التحقيق وقبل أن يصل اسماعيل باشا أيوب المدير العام الجديد . ورأى آدم باشا أن يناط بمدير كردفان ضبط الزبير للتحقيق معه فيما نسب اليه ، لأن المسافة من الخرطوم الى بحر الغزال البعيدة ، غير أن الزبير بفطنته وذكائه قد عرف أنه إذا ماسارت الأمور على طريقها الرسمى فسوف تعده الحكومة ثائراً ولا تستطيع أن تدرك الظروف التى تحت ضغطها دافع عن نفسه وأمواله .ورأى أن يوسط حسين بك خليفة مدير بربر ودنقلة آنذاك وشرح له الحالة شرحاً وافياً وأظهر الخضوع والامتثال لسلطة الحكومة ونتيجة لذلك رأى الخديو أن يعفو عنه وأصدر أمره لمدير قبلى السودان باعطائه الأمان[٣].

---

(١) انظر مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٨٣.
(٢) المرجع السابق ص ١٨٤.
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

بدأ الزبير بتنظيم ملكه ودخلفى حرب مع عربان الرزيقات فانتصر عليهم واستولى على مدينة شكا • وفرّ بعض مشايخ الرزيقات إلى سلطنة الغور، بعد ذلك كتب الزبير إلى الحكمدار اسماعيل باشا أيوب يخبره بالوضع فى منطقته فرد عليه بخطاب جاء فيه " عرضنا كتابكم على الجناب العالى الخديو فشكر ولاءكم وامتدح رغبتكم فى وضع البلاد التى فتحتموها بين يديه ليولى عليها من يشاء وقد أنعم عليكم بالرتبة الثانية مع لقب بك وولاكم أمر البلاد على أن تدفعوا لخزينته جزية سنوية قدرها ١٥٠٠ جنيه "(١) قال الزبير " فقبلت الجزية وتوليت أمر البلاد رسمياً وشرعت فى تنظيمها وعمرانها • ولكن السلطان ابراهيم سلطان دارفور لم يطق الصبر على بقائى فى بلاد شكا وأصدر أمره الى أحمد شطة مقدوم الجنوب فى دارا وسعد النور مقدوم الشرق(٢) فأخذا فى حشد الجيوش وجمع العدة لاخراجى منها • وكنت أراقب حركات المقدومين وسكناتهما وأبلغها اسماعيل باشا أيوب فى الخرطوم فيرفعها إلى اسماعيل باشا الخديو فى مصر فأقر الخديو على اغتنام الفرصة التى كانت تترقبها حكومته منذ فتح كردفان وأرسل إلىّ ٢٨٠ من العساكر المنظمة وثلاثة مدافع نجدة وأمر اسماعيل باشا أيوب فجهز جيشاً مؤلفاً من نحو ٣٦٠٠ مقاتل من الجنود السودانية والمصرية والباشبرق (٣) والشايقية والأتراك والمغاربة والمتطوعة على أن يزحف بها على دارفور من الشرق وأنا أزحف عليها من الجنوب وتم الفتح. على أن الفتح كله تم عن يدى (هكذا) بعون الله ولم يبق لجيش الشرق أقل عمل فيه "(٤) •

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان • مرجع سابق ص ٢٧٤•

(٢) كانت سلطنة الغور مقسمة مقدوميات (مقاطعات) كل مقدومية يحكمها مقدوم نيابة عن السلطان •

(٣) هم الجنود المتطوعة والمرتزقة غير النظاميين • وقد سبق شرحها •

(٤) نعوم شقير • تاريخ السودان • مرجع سابق ص ٢٧٤•

تحرك الزبير والتقى بقوات الغور والتى كان يقودها السلطان ابراهيم فى عدة معارك كانت آخرها معركة منواشى فى ١٤ من رمضان سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٤م وفيها قتل السلطان ابراهم. واستطاع الزبير أن يدخل الفاشر عاصمة السلطنة وبذلك انتهت هذه السلطنة الاسلامية التى استمرت أكثر من ثلاثة قرون .

أمّا الحكمدار اسماعيل أيوب فقد وصل الفاشر بعد أن تم للزبير دخولها بعدة أيام لابعد دخوله الغاشر شرع الحكمدار اسماعيل باشا أيوب فى بناء استحكام منيع للعساكر على التلة الغربية من الغاشر فبنى سوراً مربعاً متيناً من الطوب سمكه ثلاثة أقدام وطول الضلع الواحد منه ٢٠٠ قدم وأقام فى أركانه الأربعة ابراجاً على كل ركن برجاً جعل فيها المدافع وحفر من وراء السور خندقاً بلغ عمقه خمسة عشر قدماً وأحاط الخندق بزريبة (سور) من شوك وبنى من داخل السور ديوانا للحكومة ومنزلاً للحاكم وقشلاقاً (ثكنا) للعساكر المنظمة وأمّا العساكر الغير منظمة فقد أقرها خارج السور وهدم المنازل التى إلى جوار السور فجعل الأرض التى حوله فى غاية الانكشاف إلى مسافة بعيدة فجاء حصناً منيعاً جداً ثم وزع منشوراً فى كل البلاد ودعا الناس إلى الغاشر لأخذ الامان فصارت الوفود تاتيه من الجهات الأربعة فيؤمنهم ويرجعهم إلى بلادهم . ثم أمر فعمرت سوق كبيرة فى الغاشر وعاد الناس إلى معاطاة أشغالهم كالعادة "(١) .

بعد ذلك قسّم اسماعيل البلاد إلى أربعة أقسام كل قسم يعتبر مديرية وهذه الأقسام هى الغاشر ودارا وكبكية وأم شنقة وأقام فى كل من دارا وكبكية حصنا كالذى أقامه فى الفاشر وشرع فى وضع الضرائب على السكان فجعل على كل شخص خمسين قرشاً فى العام. أما الأغنياء فقد جعل ضرائبهم أكبر(٢)

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٨٣.
(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٨٤.

ولكن الزبير اعترض على هذه الضرائب وقد قال فى هذا الصدد " ولمّا كنت على يقين أنّ هذه الضرائب تثقل على الأهلين فلا يطيقونها نصحت الحكمدار أن يجعلها من قرشين إلى عشرة قروش وقلت إنى أخاف إذا أثقلنا الضرائب على الأهلين وهم غير متعودين عليها نفروا منا وشرعوا إلى الثورة وكان كما قلت فانهم لم يلبثوا أن ولوا الأمير هارون حفيد السلطان محمد الفضل[١] سلطاناً عليهم وثاروا معه على الحكومة فأتعبوها مدة طويلة . ولكن الحكمدار تكدر من نصحى له وكلمنى بحدة زائدة وقال إنّه أدرى بما يجب فعله فكتبت إليه إذاك كتاباً رسمياً ثبت فيه رأيى ورفعت المسئولية عنى وألقيتها عليه . فزاده هذا الكتاب غيظاً وحدة . وأصدر أمره إلىّ بالرجوع إلى بحر الغزال فى الحال فصدعت بالأمر وخرجت بعساكرى قاصداً دارا فما وصلت اليها حتى ورد على تلغراف من سمو الخديو اسماعيل باشا من مصر يأمرنى فيه بعدم التعرض للحكمدار فى ادارة البلاد فعلمت من ذلك أن الحكمدار شكانى إلى سموه وطعن فى صداقتى واخلاصى له وقيل أنه اتهمنى بارادة الاستقلال عن البلاد "[٢].

وقد كاتب الزبير الخديو اسماعيل حول خلافه مع الحكمدار وطلب الأذن له بالسفر إلى مصر لشرح قضيته فأرسل له الخديو اسماعيل التلغراف التالى " سعادتكو زبير باشا لقد كانت أفكارى متعلقة بك بالنظر لما بينى وبينك من بعد المسافة ولما هو بالغ مسامعى عما أنت فيه من المشغوليات الجسيمة ظننت انه لايتيسر حضورك فلما ورد تلغرافك يطلب مقابلتى بمصر صرت ممنوناً فبادر أحضر إلى مصر لأجل المداولة معك فى تشكيل حكمدارية تكون بك وتحت إرادتك وهاقد تنبه على جميع طلباتك بغاية الاعزاز والاكرام "[٣] .

---

(١) السلطان محمد الفضل هو أحد سلاطين الفور السابقين .
(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٢٨٤.
(٣) نفس المرجع والصفحة .

فذهب الزبير إلى مصر فى حاشية كبيرة رغم نصح الأصدقاء له بألا يذهب خوفا عليه من مؤامرات الحكمدار إلا أنّه رفض ذلك كما قال بسبب اخلاصه للحكومة وشرف نفسه وترك ابنه سليمان مكانه وسافر عن طريق الأبيض - بربر الى أبو حمد وكورسكو ومنها إلى القاهرة التى وصلها فى السادس من جمادى الأولى ١٢٩٢ وقابل الخديو الذى أنزله فى احدى سرايات العباسية وبالغ فى اكرامه . وقد صدق ظن أصدقاء الزبير إذ ان الحكمدار اتفق مع الخديو على ابقاء الزبير بمصر حيث لم يسمح له بالعودة إلى السودان .

ويحلل الدكتور جلال يحي موقف الحكمدار والخديو من الزبير بقوله :
" .. فى نفس الوقت كانت الحكومة الخديوية تخشى من قوة وشخصية هذا الباشا السودانى ، ورأت أنه يستند - علاوة على مركزه وقوته - إلى ثروته وتجارته وعصبيته . فعملت على عدم مد سلطته أكثر من ذلك فى الوقت الذى اتخذت فيه الحيطة اللازمة منه . ولقد قام حاكم عام السودان فى ذلك الوقت بدوره فى تشويه سمعة الزبير رحمة لدى سلطان القاهرة فاتهمه فى إحدى المرات بقلة الكفاءة واتهمه فى مرة أخرى بعدم تمكنه من التفاهم مع مرءوسيه من أصحاب الرتب النظامية فى الجهادية والموظفين الملكيين الآخرين . وادعى مرة ثالثة أنّ الزبير لا يوافق على البقاء فى دارفور وأنّه يفضل عليها البقاء فى بحر الغزال والواقع ان هذا الحاكم العام كان فى شخصيته وفى همته وفى نشاطه وجدارته يشعر بمركب نقص حين يوازن بين نفسه وبين الزبير . ورغم أنّ الظروف هى التى سمحت له باحتلال منصب الحاكم العام . وبالأقدمية العسكرية فى الرتبة واللقب على الزبير رحمة ، فأن الموازنة بين الرجلين كانت غير ذات موضوع . ولكن هذا الحاكم تمكن رغم ذلك بسلطته وبمركزه من منع مصر وحرمانها من الافادة من سلطة ونفوذ وشخصية هذا الباشا السودانى"(١) .

---

(١) د. جلال يحي . مصر الأفريقية ص ٦٤.

بل أكثرمن ذلك.. قامت الحكومة بمصادرة أملاكه وقتل ابنه وحجزت سفينته وماطلت فى دفع الديون التى له عليها وتنكرت لهذا الرجل الذى أعطاها أقاليم بحر الغزال ودارفور وهى اقاليم تزيد مساحتها عن مساحة مصر نفسها"(١) .

استمر اسماعيل باشا أيوب حكمداراً على السودان الذى أضاف إليه الزبير بحر الغزال ودارفور وأخذ الصورة التى هو عليها الآن تقريباً.

فى سنة ١٨٧٧م طلب غردون باشا من الخديو أن يعينه حكمداراً على السودان فقابله الخديو بحضور شريف باشا رئيس الوزارة وأجابه لما طلبه وعينه حكمداراً على عموم الأقاليم السودانية . وأعطاه من السلطات ما لم يعط لحكمدار قبله ،لفت نظره لأمرين هامين هما محاربة الرق وتحسين المواصلات وعندما وقّع اسماعيل على فرمان التولية كتب غردون مانصه :" وقع سموه اليوم على الفرمان ولقد اندهشت للسلطة الهائلة التى وضعها فى يدى . وبعد هذا سيقع اللوم على عاتقى اذا لم تبطل تجارة الرقيق وتتصل أصقاع السودان مع الخارج "(٢) .

قبل مغادرة غردون إلى السودان عن طريق البحر الأحمر أبدى له الخديو اهتماماً عظيماً بالمحافظة على ماتم فتحه فى خط الاستواء وأمره بالتوسع فى تلك المناطق واقترح عليه تعيين حاكم ممن يوثق به لتلك المناطق حتى يسبق الشركة الانجليزية التى أسست حديثاً لارتياد شرق أفريقيا .

ولكن بعد وصول غردون إلى السودان طلب أن يعين الضابط الامريكى يروت بك حاكماً على الاستوائية .كما قام بجولات فى دار فور وغيرها من

---

(١) مكى شبيكة . السودان عبر القرون ص ٢٢١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٣ .

المناطق وحاول التقرب إلى الأهالى والعلماء والمشايخ [١] .

ولكن فترة غردون شهدت الكثير من الثورات والاضطرابات منها ثورة السلطان هارون سلطان الغور التى استمرت من ١٨٧٧ وحتى ١٨٨٠م كما قام سليمان بن الزبير بثورة حين علم بمؤامرة الحكومة المصرية على والده فطلبت منه الحكومة التسليم ولكنه رفض واستمرت ثورته من ١٨٧٧ - ١٨٧٩م وانتهت بمقتله غدراً بأمر من غردون شخصياً وذلك بعد أن سلّم للحكومة حسب نصيحة والده الذى كتب إليه من مصر . وقد استعان غردون باشا فى ادارة السودان بفريق من الأجانب فعين مسداليا بك الايطالى مديراً على الفاشر وجبس باشا الايطالى مديراً على بحر الغزال وفردريك روس قنصل ألمانيا فى الخرطوم مديراً لدارفور وشارل ديجوليه الفرنسى مديراً لدارا وأمليانى مديرا لكيكيه والدكتور زوربخين مفتشاً للصحة والضابط سلاتين النمساوى مفتشاً للمالية وجيكلر باشا النمساوى مديراً عاماً لمنع تجارة الرقيق . كما عين ابراهيم فوزى باشا مديراً لخط الاستواء بدلاً من الكولونيل بروت الأمريكى ثم عزله وعين الدكتور ادوارد شنتزر الألمانى (دكتور أمين) مديرا عليها [٢] .

هذا وقد شغل غردون بتحديد الحدود بين السودان والحبشة وذهب إلى مصوع لعقد اتفاق مع ملك الحبشة ولكنه لم يتمكن من ذلك . وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٧٩ الموافق ٦ رجب سنة ١٢٩٦ أقيل اسماعيل باشا من منصبه ونصب ابنه الخديو محمد توفيق مكانه . وقد استقال غردون باشا فى أواخر سنة ١٨٦٩ .

---

(١) انظر عبدالله حسين : السودان من التاريخ القديم الى قيام البعثة المصرية . مرجع سابق ص ١١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠ .

حكمدارية رؤوف باشا (١) :

فى ١٢ ربيع الثانى سنة ١٢٩٧ الموافق مارس ١٨٨٠م أصدر خديو مصر أمراً بتعيين محمد رءوف حكمداراً على السودان خلفاً لغردون وقد جاء فى خطاب تعيينه مايلى :

" إنه نظراً لثقتنا بما أنتم متصفون به من الأهلية لأداء المأمورية المهمة المفوضة لأمانتكم والحالة هذه لانرى لزوماً للاسهاب فى شرح وتفصيل مايجب اتخاذه واجراؤه من الوسائط والأعمال المؤدية لنجاح مأموريتكم التى نحن ناظرون إليها بعين الأهمية وهى تقدم وانتظام أحوال مملكة واسعة مثل السودان وبذل مايجب من المساعى للوصول إلى توطيد أسباب عمارتها وتمدن ورفاهية أهاليها بتوسيع نطاق دائرتى التجارة والزراعة اللتين هما أعظم منابع الثروة العمومية ، إنما نرى من اللازم إستجلاب دقة نظركم الى بعض مواد مهمة وهى الآتى ذكرها :

" أولاً مالية السودان : وكما لايخفى عليكم أن لفظة المالية تشمل كل مايلزم ويمكن تقريره ، وتجعله من الأموال والعوائد بطريقة لايتأتى منها الاضرار بحالة الأهالى ولا الاجحاف بحقوق الخزينة ، وكذا تقدير مايلزم من المصاريف بالنسبة لحالة البلاد واحتياجاتها بشرط أن تكون كافلة لحسن ادارة المصالح العمومية بصورة منتظمة وعلى هذا فأول واجب عليكم هو تنظيم ميزانية مستوفية عن كافة ايرادات ومصروفات الحكمدارية ببيان أنواعها ومفرداتها بغاية الضبط والدقة وحصر مايكون موجوداً من الديون بأنواعها وأسماء أربابها وكيفية الوصول إلى سدادها . هذا ومن اللازم أن الحكومة تكون عالمة بكافة أحوال السودان اجمالا وتفصيلا وبالمثل أنواع الضرائب والعوائد وسائر الأموال المقررة والجارى تحصيلها وكيفية استعمالها وصرفها فيبقى

---

(١) سبقت ترجمته .

فيبقى أن ترسلوا صورة من هذه الميزانية إلى نظارة المالية واستمرار ذلك سنوياً . وأن تقدموا إلى النظارة المشار إليها فى كل ثلاثة أشهر حساب إيرادات ومصروفات الحكمدارية بالبيان الكافى وذلك كما هو جار بكافة مصالح الحكومة . وبما أن كافة مايتعلق بالمواد المالية والحسابية مرجع الأمر فيها إلى نظارة المالية فجميع مايقتضيه الحال من المخابرات والاستئذانات فى هذا الشان يكون خاصاً بالنظارة المشار إليها.

" ثانياً : الادارة الملكية : يلزم تنظيمها وأجراؤها على صورة تلائم أحوال تلك البلاد وما يختص بهذا القسم من المخابرات ومايتراءى لزوم تغييره وتبديله من المواد والنظامات (هكذا) ذات الأهمية وعزل وتنصيب أرباب المناصب الرفيعة مثل المديرين ووكيل الحكمدار ومايتعلق بالادارة الملكية والأحوال الداخلية مامن شأنه استحصال أوامرنا عن جميع ماذكر من هذه الأنواع فينبغى أن تكون المخابرة عنه مع نظارة الداخلية . وأمّا مايتعلق بالأمور القضائية سواءاً كانت شرعية أو نظامية تجرونه على قواعده المتبعة والحالة هذه إنما يختص بهذا القسم من المخابرات أو ماترون لزوم اجرائه من الاصلاحات يجب أولاً المخابرة عنه مع نظارة الحقانية (١) ثم إنّ الرخصة التى كانت ممنوحة لأسلافكم بتنفيذ مايصدر من الأحكام شرعية كانت أو سياسية فى المواد القضائية الحقوقية قد أبقيناها لعهدتكم أيضاً ماعدا أحكام القصاص الواجب استحصال أوامرنا عنها .

" ثالثاً : القسم العسكرى : من المهم عند وصولكم إلى مركز الحكمدارية أن توجهوا أنظاركم والتفاتكم إلى تنظيم واصلاح الحالة العسكرية حسبما يقتضيه احتياج تلك البلاد لتوطيد الأمن والنظام العام لكافة أنحاء المملكة

---

(١) يقصد وزارة العدل .

خصوصًا تقوية حدود الحبشة والمحافظة عليها فى الحالة الراهنة مع مايترتب عليه الأمن والاطمئنان للوقاية من وقوع أدنى مهاجمة على هذه الحدود لأنكم عارفون جيدًا بأفكارنا وأفكار أعضاء حكومتنا فى هذه المسالة وهى أننا لانقصد أى تجاوز كان على جيراننا ولانريد أى فتوح جديدة إنما جل قصدنا المدافعة بغاية البسالة إذا وقع أدنى تعد على حدودنا فهذه الأفكار هى التى تكون أس أعمالكم فى ترتيب وتنظيم عسكرية السودان مع مراعاة إجراء القانون العسكرى وكافة مايتعلق بهذا القسم من المخابرات والاستئذانات هو خاص بنظارة الجهادية [1] . هذا ومع بقاء حيازتكم الرخصة المعطاة لأسلافكم بتنفيذ أحكام القانون العسكرى فى الجنايات وسائر الأحوال حسب ماتصدر به المجالس العسكرية ، فأن حكم العزل أو تنزيل رتبة أو ترقى الضابط جميع ذلك لابد من العرض عنه لطرفنا بواسطة نظارة الجهادية .

" هذا وحيث أنّ الاقطار السودانية بعيدة عن مراكز الحكومة الخديوية ومن الاقتضاء الوقوف على الوقوعات (الأحداث) المهمة التى تحصل سواء كانت بالحدود أو بخلافها فتبادروا بالاخبار عنها بوقت وقوعها إلى طرفنا وإلى نظارة الداخلية بالتلغراف . وبناءً عليه أصدرنا هذا لكم للمعلومية والاجراء على مقتضاه كما هو مطلوبنا "[2] .

باشر رؤوف باشا فى تنفيذ هذه السياسات خاصة مايتعلق منها بالشئون المالية ولكن منذ منتصف سنة ١٨٨٠م بدأت الثورة التى أعلنها السيد محمد أحمد الذى ادعى المهدية ودعا إليها ، واستطاعت هذه الثورة فى غضون خمس سنوات أن تقضى على الحكم المصرى فى السودان وتنشىء الدولة التى عرفت فى تاريخ السودان بالدولة المهدية . وكان رؤوف باشا آخر حكمدار قبل الثورة

---

(١) يقصد وزارة الحربية .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان ص ٣٠٧ ومابعدها .

وفى أثناء الثورة تولى حكمدارية السودان ثلاثة من الحكمداريين هم :

(١) عبدالقادر باشا حلمى من ١٨٨٢ – ١٨٨٣م [(١)] .

(٢) علاءالدين باشا من ١٨٨٣–١٨٨٤م .

(٣) غردون باشا للمرة الثانية من ١٨٨٤–١٨٨٥م وقد قتل أثناء سقوط الخرطوم .

فى أثناء حكمدارية عبدالقادر حلمى صدر أمر عالى فى ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢م جعل ادارة عموم السودان تضم مديرية شرق السودان ومحافظة سواحل البحر الأحمر ومديرية هرر وزيلع وبربره حكمدارية واحدة . وشكلت نظارة جديدة باسم نظارة الأقاليم السودانية وملحقاتها فى القاهرة .

وفى ٢ ابريل سنة ١٨٨٢م صدر أمر عالى بتقسيم السودان إلى أربعة اقسام هى :

(١) حكمدارية اقليم غرب السودان وتشمل مديريات دارفور وكردفان وبحر الغزال ودنقلة ومركزها الفاشر .

(٢) حكمدارية وسط السودان وتشمل مديريات الخرطوم وسنّار وبربر وفاشودة وخط الاستواء ومركزها الخرطوم .

(٣) حكمدارية اقليم شرق السودان وتشمل مديرية التاكة وملحقاتها ومحافظتى سواكن ومصوع وملحقاتها إلى باب المندب .

(٤) حكمدارية عموم هرر وملحقاتها وفيها محافظتى زيلع وبربرة ومركزها هرر .

---

(١) ولد فى مدينة حمص . ابوه أحد ضباط جيش ابراهيم باشا وقد عاد به الى مصر بعد حروب الشام . بدأ دراسته فى مصر وأوفده عباس الأول إلى فينا لدراسة الطب فقضى بها ثلاث سنوات ولما تولى سعيد استدعى عبدالقادر فى سنة ١٨٥٥م وألحقه بأورطة المهندسين فى القلعة . وترقى فى مختلف الرتب حتى وصل إلى رتبة الأمير الاى فى أكتوبر سنة ١٨٦٢م كان ياوراً للخديو اسماعيل فى الفترة من ١٨٦٨م وحتى ١٨٧٣ وأنعم عليه خلالها برتبة اللواء .تولى عدة مناصب عسكرية ومدنية . صار ناظر لديوان السودان وحاكماً له توفى سنة ١٩٠٨م . انظر المجلة التاريخية المصرية المجلد الأول ١٩٤٨ . مرجع سابق ص ٤٤١ .

فى ٢٠ يناير ١٨٨٣م صدر أمر عالى بتعيين علاء الدين باشا حكمداراً لعموم السودان وملحقاتها وراشد كمال باشا حكمدارا للسودان الشرقى والبحر الأحمر . وأنشئت ادارة خاصة باشغال السودان وملحقاته برئاسة مجلس النظار.

ولما اشتدت الثورة المهدية صدر أمر عالى بتاريخ ١٥ يناير ١٨٨٤ م ، فألحقت ادارة السودان وملحقاته بنظارة الحربية إلى نهاية الثورة[1] .

عندما أدرك المسئولون فى الحكومة المصرية أنه لا أمل لهم فى الاحتفاظ بالسودان أرسل الكولونيل غردون باشا للمرة الثالثة وطلب منه فى هذه المرة إخلاء السودان وسحب الجنود والموظفين المصريين ولكنه لم يتمكن من ذلك حيث قتل أثناء سقوط الخرطوم .

- ملاحظات على ادارة اسماعيل :

يلاحظ الدارس لهذه الفترة عدة ملاحظات على الادارة منها :

(١) إهتمام اسماعيل الشخصى بادارة السودان ، وتطوير أحواله ويجد الباحث هذا الاهتمام تقريباً فى كل المراسلات بين اسماعيل وولاته فما من خطاب من اسماعيل إلا ويؤكد فيه حرصه على تطوير البلاد وترقيتها ورفاهية أهلها . إلا أنّ بعض المؤرخين قد شكوا فى صدق اسماعيل وأرجعوا اهتمامه الزائد بالسودان إلى أنه كان يعتبره مخرجاً له من الازمة المالية التى كان يعيشها ولكن الواقع يخطىء هذا الادعاء ، إذ أن ميزانية السودان - رغم الضرائب الباهظة - لم تكن كافية وكانت تسجل عجزاً سنوياً على مصر .

---

(١) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٣١٠ .

(٢) إنّ السودان فى هذه الفترة قد أخذ شكله المتعارف عليه الآن تقريباً حيث حدّدت الحدود ودخلت الأقاليم الجنوبية ودارفور ضمنها وقد جرى عليها تعديل طفيف فى فترة لاحقة .

(٣) ظهور الحكام والولاة الأوربيين بصورة واسعة فى هذه الفترة أدى إلى خلط فى ذهنية الإنسان السودانى البسيط بين الأتراك والأوربيين فأطلقوا لفظة أتراك على الاوربيين . وهذا الخلط شمل حتى المثقفين إذ نجد كثيراً من المؤرخين يطلقون على هذه الفترة التى نحن بصددها فترة التركية السابقة . والتركية اللاحقة فى نظرهم هى فترة الحكم الانجليزى المصرى التى أعقبت دولة المهدية ، ووجود الحكام الأوربيين هو فى نظرى واحد من أهم الأسباب التى جعلت الكثير من السودانيين يلتفون حول محمد أحمد المهدى الذى وصف الأتراك – وهو يقصد الاوربيين – بالكفر .

(٤) امتداد الادارة إلى الجنوب ودارفور أدى الى انتشار اللغة العربية بين القبائل الناطقة بغير اللغة العربية . كما أدى كذلك إلى انتشار الاسلام – رغم أنّ الحكام والمسئولين لم يكونوا مثلاً مشرّفاً للادارى المسلم .

(٥) شهدت هذه الفترة خلطاً اداريا وتخبطاً واسعا انتقل فيها السودان وأهله من المركزية إلى اللامركزية إلى نظام شبه مركزى ، مما يشعر الدارس لهذه الفترة بعجز الحكومة عن القيام بكثير من مهامها . هذا العجز الادارى فى نظرى كان محاولة لايجاد نظام أكثر ملاءمة للسودان وأهله ولكن هذا النظام الملائم لم يتحقق حتى نهاية الحكم التركى المصرى فى السودان .

...

الباب الثاني

نظام التعليم

ويحتوى على :-

١- نظام التعليم فى الفترة من ١٨٢٠ - ١٨٤٨م
٢- نظام التعليم فى الفترة من ١٨٤٩ - ١٨٦٣م
٣- نظام التعليم فى الفترة من ١٨٦٣ - ١٨٨٥م

الفصل الأول

بعنوان

نظام التعليم فى السودان
فى الفترة من ١٨٢٠ - ١٨٤٨ م

التعليم فى السودان قبل عصر محمد على

تمهيـــد :

دخلت الثقافة العربية الاسلامية إلى السودان عبر مداخل أربعة هى مصر والحجاز واليمن والمغرب .

ولقد كان ملوك سنّار ودارفور على علاقة طيبة بمصر وذلك بحكم الجوار وباعتبار أن مصر كانت تمثل واحدًا من طرق دخول الاسلام واللغة العربية إلى السودان .

وكان الملك بادى المعروف بسيد القوم (١٦١١-١٦١٦م)[1] أحد ملوك سنّار الذين كانوا على صلة بعلماء مصر ، وكان يرسل إليهم الهدايا مع خبيره أحمد علوان واشتهرت مناقبه عندهم حتى أنهم مدحوه بقصائد عدة[2] .

وقد أشار كاتب الشونة بصفة خاصة إلى قصيدة الشيخ عمر المغربى أحد علماء الازهر والذى يقول فى مطلعها :

أيا راكبًا يسرى على متن ضامر ... إلى الغرب يهدى نحو طيب الذكر

الى ان يقول :

هو الملك المنصور بادى الذى ... حمى بيضة الاسلام بالبيض والسمر

حمى حوزة الدين الحنيفى بالقنا ... وأصبح صدرًا للعلا حائز الصدر

وجرد للاسلام والملك صارمًا ... أباد به جمع الطواغيث والكفر

وجاهدهم فى الله حق جهاده ... وفاز بأنواع المثوبة والأجر

---

(١) الملك بادى . ويعرف أيضًا باسم بادى أبودقن ويعتبر من أعظم ملوك سنار وقد بنى فيها قصرًا ومسجدًا . وفترة حكمه حسب ماذكر كاتب الشونة هى من ١٠٥٢هـ الى ١٠٨٨هـ/١٦٤٢-١٦٧٧م والتاريخ الذى ذكره الدكتور عابدين غير صحيح .

(٢) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث ، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ص ٥٦ .

والقصيدة طويلة تقع فى أكثر من مائة بيت [١] .

والظاهر أن الصلات الثقافية بين مصر والسودان كانت تتم عبر طريقين :

(١) هجرة الطلاب السودانيين إلى مصر للدراسة فى الأزهر الشريف ثم العودة إلى أوطانهم لينشروا معارفهم العربية والاسلامية بين أهليهم .

(٢) هجرة علماء مصر إلى السودان والاقامة فيه بقصد نشر معارفهم بين أهله ، وقد عبر عن هذه الصلة أحد الباحثين بقوله : " وقد ظل الفونج [٢] إلى أن دالت دولتهم يعتمدون على مصر فى غذائهم الروحى ، فدرس نخبة من أبناء هذه الدولة فى الأزهر الشريف وعادوا إلى بلادهم ينشرون بها ماتلقوه من علوم ومعارف دينية إسلامية ، ووفد على البلاد كذلك بعض الفقهاء من مصر يحيون بها دراسة الشرع الحنيف ، مجرداً من تلك البدع والخرافات التى لصقت به بسبب بعد الفونج أجيالا عديدة عن ينابيع الثقافة الاسلامية " [٣]

ويشير كاتب آخر إلى دور الفونج فى نشر الثقافة العربية الإسلامية بقوله : " ولقد كان لدولة الفونج فضل كبير فى نشر الثقافة العربية الإسلامية ، ففى عهدهم انتشرت الخلاوى [٤] فى بقاع السودان المختلفة ومن مآثر ملوكهم أنهم عنوا بالاسلام واللغة العربية ، ومن مظاهر تلك العناية أن قرّبوا اليهم كثيراً من العلماء وأغروهم بالهجرة إلى سنّار . فتجمع حولهم طلاب العلم من نواحى السودان المختلفة ومن خارجه ، كذلك

---

(١) مخطوطة كاتب الشونة . مرجع سابق ، ص ١١ .

(٢) سبق شرحها .وتعنى ملوك سنّار لان أصلهم من قبائل الفونج ولذلك تطلق كثير من المصار على دولة سنار اسم دولة الفونج أو السلطنة الزرقاء .

(٣) د. محمد فؤاد شكرى ـ صفحة من تاريخ السودان الحديث . مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ العدد الثامن ـ المجلد الثانى ـ ديسمبر ١٩٤٦م مطبعة فؤاد الأول ص٢٧ .

(٤) جمع خلوة وهى مدرسة تحفيظ القرآن أو الفقه فى السودان .

أقطعو لهم الكثير من الضياع الواسعة فى أماكن متفرقة من البلاد وأجزلوا لهم الهدايا ، وكانوا لايردون لهم شفاعة ، بل جعلوهم أهل مشورتهم ولم يقف جهد الفونج عند هذا الحد ، بل إنه فى زمنهم بدأت دراسة العربية الفصحى تجد أذناً صاغية وعرفت صلات أدبية بين ملوك الفونج وأدباء مصر "(١) .

ومن أوائل الطلاب السودانيين الذين نزحوا الى مصر لطلب العلم الشيخ محمود العركى(٢)، الذى يعتبر أول من نشر علوم الدين فى جهات النيل الأبيض . إذ لم يجد حين قدومه من مصر مدرسة علم ولا قرآن ، ويقال أن المرأة كان يطلقها الرجل ويتزوجها غيره فى يوم طلاقها من غير عدة (٣) . فأنشأ الخلاوى لتحفيظ القرآن وتدريس علوم الدين وكان له بين الخرطوم والكوة (٤) ثلاثة عشر مدرسة (٥) .

---

(١) د. صلاح الدين المليك ـ شعراء الوطنية فى السودان ـ دار التأليف والترجمة والنشر . جامعة الخرطوم ١٩٧٥م ص ٣٤.

(٢) مولده بالأبيض . درس فى مصر على الشيخ ناصر اللقانى وشمس الدين اللقانى وبعد عودته من مصر سكن فى جزيرة الهوى فى النيل الأبيض .

(٣) انظر محمد النور بن ضيف الله ـ كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فى السودان ـ تحقيق وتعليق الدكتور يوسف فضل ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٥م ـ دار التأليف والترجمة والنشر ـ جامعة الخرطوم ص ٣٤٤ .

(٤) مدينة فى النيل الأبيض وتقع إلى الجنوب من الخرطوم .

(٥) انظر محمد فوزى مصطفى عبد الرحمن ـ الثقافة العربية وأثرها فى تماسك الوحدة القومية فى السودان المعاصر ـ الطبعة الأولى ١٩٧٢م ، الدار السودانية . الخرطوم ص ٣٤.

كذلك هاجر إلى مصر أولاد جابر الأربعة وهؤلاء يرجعون بنسبهم إلى الشيخ غلام الله بن عائد اليمنى(١) . ويبدو أن قدومهم إلى مصر كان بعد قدوم الشيخ محمود العركى . وبعد عودتهم من مصر سكن أحدهم وهو الشيخ ابراهيم بن جابر المعروف بالبولاد قرية ترنج ودرّس فيها خليلاً(٢) والرسالة (٣) ، وهو أول من درّس خليلاً ببلاد الفونج وشدت إليه الرحال ودراسته لخليل تتم فى سبع ختمات وعلّم فيها أربعين تلميذاً صاروا كلهم علماء(٤) .

ومن الطلاب الذين وفدوا مصر وكان لهم شأن فى نشر علوم الدين فى السودان ، الشيخ حمد المجذوب (٥) الذى ينتمى إلى عشيرة المجاذيب ، التى كانت ذات أثر كبير فى نشر الثقافة الدينية فى البلاد ، وكان الكثير من أبنائها يرحلون إلى القاهرة أو مكة طلباً للعلم ، ثم يعودون إلى السودان لمتابعة رسالتهم فتبنى المساجد وتنشأ الزوايا لتصبح مدارس ومعاهد للتعليم يفد إليها الطلاب من كافة الآفاق "(٦) .

---

(١) من جزيرة نواوه فى اليمن ـ هاجر إلى السودان وسكن فى دنقله وبنى بها المساجد وقام بتعليم القرآن الكريم والعلوم الاسلامية . انظر المرجع السابق ص ٣٢.

(٢) المقصود مختصر خليل بن اسحق فى الفقه المالكى .

(٣) رسالة ابن أبى زيد القيروانى وهو فى الفقه المالكى كذلك .

(٤) انظر محمد النوربن ضيف الله . كتاب الطبقات ص ٤٥.

(٥) حفظ القران وتفقه فى خليل والرسالة على الفقيه محمد بن مدنى حج الى بيت الله وأخذ العلم من شيوخ الحرمين . توفى سنة ١١٩٠ هـ ودفن بالدامر . انظر الطبقات ص ١٨٧-١٨٨ .

(٦) انظر محمد فوزى عبد الرحمن . الثقافة العربية . مرجع سابق ص ٣٦.

وبصفة عامة من يراجع كتاب الطبقات لمؤلفه محمد النورين ضيف الله يجد ظاهرة الهجرة إلى مصر واضحة جداً . وقد ذكر لنا المؤلف مجموعة من الشيوخ الذين رحلوا إلى مصر وأخذوا العلم من شيوخ الأزهر. ومن الواضح أن هذه الهجرة لم تقتصر على زمن الفونج ، بل هى مستمرة إلى يومنا هذا، ولو أنها خضعت للظروف السياسية التى تحكمت فيها.

ويلاحظ أن هجرة الطلاب إلى مصر قد قلت فى أواخر عصر الفونج بسبب الكوارث والمجاعات التى أصابت المجتمع ، إضافة إلى ذلك حالة العزلة التى فرضها حكام الفونج فى آخر عهدهم وبذلك انقطعت صلتهم بالعالم الخارجى[١] .

أمّا الطريق الثانى لنشر الثقافة العربية الاسلامية فى السودان وأعنى به هجرة العلماء المصريين إلى السودان فمن العلماء الذين وفدوا على السودان فى عهد الفونج الشيخ محمد القناوى[٢] تلميذ الشيخ سالم السنهورى الذى نزل ببربر وبنى بها مسجداً . ومن ذرية هذا الشيخ نبغ حفيده الشيخ محمد أكداوى[٣] الذى جلس للتدريس بمدينة شندى .

كذلك وفد إلى السودان فى عهد الفونج الشيخ محمد بن قرم[٤] الكيمائى الذى استوطن بربر إلى أن توفى بها . وأخذ عنه العلم عدد كبير من شيوخ السودان . كما وفد الى السودان كذلك من مصر الشيخ جاد الله[٥] الشكرى

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦-٣٧.

(٢) اخذ العلم عن الشيخ سالم السنهورى والشيخ يوسف الزرقانى والد الشيخ عبد الباقى شارح خليل. قدم بلاد الفونج فى أول النصف الثانى من القرن العاشر . زار بربر وأربجى وسنّار وسكن بربر التى ابتنى بها مسجداً ودرّس فيه "الرسالة" والعقائد والنحو، وسائر العلوم .ولى القضاء وباشره بعفة ونزاهة . انظر الطبقات ص ١٠٠.

(٣) هو الشيخ محمد بن محمد أكداوى بن الشيخ المصرى القناوى - أخذ علم الكلام والفقه والنحو من جده محمد القناوى .تزوج فى شندى وكان يدرّس بها الرسالة والنحو وعلم الكلام وعلم الأصول والمنطق واشتغل بالتصنيف وكتب كتباً شأنها أن تكتب بمداد الذهب انظر الطبقات ص ١٠١.

(٤) محمد بن على قرم الكيمائى المصرى الشافعى أخذ العلم من الخطيب الشربينى ودخل بلاد بربر وأربجى وسنّار وتوطن بربر. أخذ عنه العلم طائفة من أهل السودان توفى ودفن ببربر . انظر الطبقات ص ٣٥٤.

(٥) جاد الله الشكرى جاء من مصر وتوفى ببندر سنّار . انظر الطبقات ص ٣٣٠.

الذى وصفه صاحب الطبقات بأنه كان ورعاً تقياً زاهداً عابداً متواضعاً.

ويلاحظ قلة العلماء المصريين الوافدين إلى السودان فى عصر الفونج وربما يرجع ذلك إلى صعوبة المواصلات وخطورة الطرق لعدم استتباب الأمن. إضافة الى جشع الخبراء والأولاء الذين يتحكمون فى المسافرين حسب أهوائهم (١).

والظاهر أن لهؤلاء العلماء الذين وفدوا من مصر دوراً كبيراً فى تمذهب أهل السودان بالمذهب الملكى خاصة وأن أهل صعيد مصر يتمذهبون بهذا المذهب والصلات بين شمال السودان وصعيد مصر لاتحتاج إلى برهان. ويرى البعض من الباحثين أن هذا المذهب جاء إلى السودان مع الموجات الثقافية التى قدمت من غرب أفريقيا وبحيرة تشاد (٢). وفى اعتقادى أن هذا الرأى يمكن أن يكون صحيحاً ولكن الدور المصرى لايمكن تجاهله فى هذا الأمر، وذلك لان علاقة مصر بالسودان كانت أقوى من علاقة السودان بغرب أفريقيا.

- مدارس السودان فى ذلك الوقت :

فى بحثه عن دور العلماء فى السودان قال الدكتور محمد ابراهيم أبوسليم عن مدارس السودان فى ذلك الوقت : " أما مدارس العلم فتقول الأخبار بأنها بدأت بمدرسة غلام الله ابن عائد فى دنقله فى القرن الرابع عشر ورغم أننا لانعرف إلا القليل عن هذه المدرسة ،إلا أنها بلا شك قد وضعت الأساس لمدارس دنقله الكثيرة فيما بعد. وبعد انقطاع قرنين من الزمان جاءت مدرسة أولاد جابر بتاشيرات مصرية بحكم أن مؤسسها تلقى تعليمه فى مصر.

---

(١) انظر محمد فوزى مصطفى عبدالرحمن : الثقافة العربية. مرجع سابق ص ٣٨.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٤١.

والمرء يعجب لهذه الفجوة الزمنية الطويلة بين هذه المدرسة والتى قبلها ، وإنّا لنكاد نميل إلى القول بأنّ حركة المدارس واصلت سيرها وإن لم تصلنا أخبارها . ولقد بدأت مدرسة أولاد جابر فى سنة ١٥٥٢م وانتهت فى سنة ١٦١٤م وكانت بجزيرة ترنج قرب كاسينجر بديار الشايقية . وقد اختيرت هذه الجزيرة النائية مقراً لتكون المدرسة منقطعة للعلم وبعيدة عن الحكّام وطرق القوافل وذلك بعكس مرابط (١) الصوفية التى كانت تقام على طريق القوافل .ولعلنا نلحظ هذا الفرق فالحركة الصوفية تتجه نحو الجمهور وتفضل معابر القوافل التجارية بينما يتجه العلم نحو الخاصة بعيداً عن الضوضاء .

" لقد وضعت هذه المدرسة بعض التقاليد منها الدراسة المنتظمة وفق منهاج مقرر من العلوم الاسلامية تدرس فى أوقات محددة ، وفى فصول للدراسة تجاورها مساكن الطلبة وهى بعيدة كل البعد عن نفوذ الحكّام وتأثير العواصم والمدن ليقبل الطلبة على العلم ويتفرغوا له تفرغ أهل الاربطة للعبادة وقد هجرها طلابها ، لأن إدريس بن عبد الرحمن بن جابر (٢) خرج عن هذا التقليد بزواجه من ملكة كجية (٣) ونقله المدرسة إليها . ومن تقاليدها

---

(١) الصحيح أربطة لانها جمع رباط أما مرابط فهى جمع مربط .

(٢) الشيخ إدريس بن الشيخ عبد الرحمن بن جابر جلس للتدريس بعد عمه الشيخ اسماعيل وكان شيخاً عالماً . انظر الطبقات ص ٤٧ .

(٣) جبل على النيل شمال مروى . وعلى قمته قلعة أثرية . ومنطقة كجية احدى المناطق الادارية التى تكوّن دار الشايقية . ولعل هذه الملكة تمثل بقية من نفوذ الفساك السياسى فى تلك المنطقة . انظر الطبقات ص ٤٧ .

أيضاً أن المعلم يعطى العلم لمن يرغب تطوعاً لوجه الله ولايطلب مقابله شيئاً ، ولكن التطوع من أجل العلم كان يقابله إحسان الجميع بالعطايا وهكذا يتكفل العالم بنشر العلم خدمة للدين ويتكفل المجتمع بحاجاته وبما يصرفه على طلبته "(١) .

" ومدرسة نورى التى أنشاها عبد الرحمن ولد حمدتو الخطيب (٢) تفرعت عن مدرسة أولاد جابر ، وعمّرت لأكثر من قرن ، وخرجت أجيالا من العلماء وكان من مبرزيها جد الأغبش (٣) وابراهيم بن عبودى الفرضى وقد أسسا مدرستين مستقلتين وحمد المجذوب (٤) مؤسس مدرسة الدامر وعبد الرحمن (٥) النويرى مؤسس مدرسة أبجى .

---

(١) بروفسير يوسف فضل وآخرون : من معالم تاريخ الاسلام فى السودان المجموعة الأولى . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . الخرطوم ص٣٧ .

(٢) تفقه على الشيخ اسماعيل بن جابر والشيخ البوقرى .. تفقه عليه خلق كثير . انظر الطبقات ص٢٥٦ .

(٣) حفظ القرآن على أبيه وتفقه على الشيخ عبد الرحمن ولد حمدتو ولد ببربر ونشأ فيها . وهو ممن جمع بين العلم والعمل . درّس بعد أبيه الشيخ عبد الله الأغبش وانتفعت به الناس . انظر الطبقات ص ١٥٣ .

(٤) سبقت ترجمته .

(٥) من تلاميذ أولاد جابر . تولى القضاء فى دولة الفونج وكان له باع طويل بمعرفة القضاء وفصل الخصومات . انظر الطبقات ص ٢٥٥ .

" ومن الذين أخذوا العلم في مدرسة أولاد جابر أبو إدريس (١) العركي ويعقوب بان نقا (٢) والشيخ صغيرون (٣) مؤسس مدرسة القوز ، وهو استاذ أرباب بن علي (٤) الخشن المشهور بأرباب العقائد والذي تخرج على يديه أعداد غفيرة من العلماء نذكر منهم حمد أم (٥) مريوم وخوجلي عبد الرحمن (٦)

---

(١) هو الشيخ محمد بن الشيخ دفع الله مقبل العركي نشأ بأبيض ويري بالقرب من الخرطوم . حفظ القران على والده وتفقه على أخيه تعلّم على يديه كثير من الناس . انظر الطبقات ص٦٥ .

(٢) أحد تلامذة الشيخ عبد الرحمن بن جابر . درس القرآن والفقه والتوحيد وله فتاوى وأحكام وأقضية حسنة . انظر الطبقات ص ٣٧٢ .

(٣) هو محمد بن سرحان العودى وأمه فاطمة أخت أولاد جابر . ولد بجزيرة ترنج بديار الشايقية . قرأ الفقه على خاله اسماعيل بن جابر الذي أجازه ورحل إلى الشيخ البنوفري وكان ممن جمع بين العلم والعمل وتفقه على يديه خلق كثير . انظر الطبقات ص ٣٣٤ .

(٤) أرباب بن علي بن عون بن عامر بن أصبح وسمي الخشن لخشونة جسمه من الوضوء والغسل . أشتهر بأرباب العقائد لاهتمامه بهذا العلم وتدريسه له وله كتاب في أركان الايمان . أسماه الجواهر وله تلاميذ كثر . توفي سنة ١١٠٢ هـ بسنار . انظر الطبقات ص ١٠٠ .

(٥) حمد بن علي المشيخي المشتهر عند الناس بأمه مريم ولد بجزيرة توتي سنة ١٠٥٥ هـ . حفظ القرآن على أرباب الخشن كما قرأ عليه التوحيد . كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ورعاً عالماً نقياً . كان كثير الأسفار ولذا استفاد منه عدد كبير من أهل السودان . انظر الطبقات ص ١٧٣ .

(٦) ولد في جزيرة توتي . حفظ القرآن الكريم عند عائشة بنت ولد قدّال وأخذ علم الكلام من الشيخ أرباب الخشن وتفقه على "خليل" على الشيخ الزين ولد صغيرون وحج إلى بيت الله الحرام وأخذ التصوف عن الشيخ احمد التنبكتاوي القاطن بالحرم النبوي . توفي سنة ١١٥٥ هـ . انظر الطبقات ص ١٩٠ ومابعدها .

وفرح ولد تكتوك (١)" .

" وبعد أن أفلت مدارس الشايقية جاءت مدارس الأبواب التى امتدت من مقرات إلى شندى وكان أهمها مدرسة القوز ومدرسة الفيش ومدرسة الدامر. والمدرسة الأخيرة ترتبط بطريقة صوفية هى المجذوبية ، مؤسس هذه المدرسة هو نفسه مؤسس الطريقة (٢) . أما مدرسة الفيش (٣) فكانت معادية عموماً للطرق الصوفية وقد ركزت على علوم القرآن (٤) " .

" والى الجنوب من الأبواب تأتى مدارس قرّى وقد تميزت أولاً بنفوذ فقهاء المحسن والذين انتشروا من جزيرتهم توتى ، وأنشأوا عدداً من المراكز الدينية كما تميزت بعلاقتها الوطيدة بمشيخة العبدلاب (٥) ، الأمر الذى جعل اقبالها نحو الأحوال الشرعية والفتاوى والأحكام المتعلقة بملكية الأراضى أمراً ملحوظاً ، لقد كرس قدر كبير من الجهد نحو خدمة الدولة وشئون المتقاضين . وأشهر مدارس قرّى مدرسة أرباب العقائد والتى بدأ بها عمران الخرطوم . لقد تعلم فى هذه المدرسة الآلاف .

---

(١) قرا العقائد على الشيخ أرباب . كما قرأ علم العربية على الخطيب عمّار . كان شاعراً ماهراً له كلام فى التفسير والتوحيد والأدب . كان صاحب كلمة وموعظة حسنة . انظر الطبقات ص ٣١٢ .

(٢) هو الشيخ حمد المجذوب وقد سبقت ترجمته .

(٣) كانت هذه المدرسة فى بربر وأنشأها الشيخ حمد الأغبش .

(٤) يوسف فضل وآخرون . من معلم تاريخ الاسلام فى السودان . مرجع سابق ص ٧٤ .

(٥) العبدلاب ذرية الشيخ عبد الله جماع الذى اقتسم المملكة مع الفونج ملوك سنار وكانوا يعتبرون وزراء لتلك الدولة . بدأت المشيخة فى قرّى ثم امتدت إلى الحلفاية ومنجر العسل إلى سوبا . انظر عبد الله حسين: السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية مرجع سابق ص ٧٥ .

أمّا الشيخ فرج ولد تكتوك فقد اتخذ خطاً مغايراً لعادة الفقهاء وهاجم كثيراً من عاداتهم واتخذ الشيخ حمد ولد أم مريم مساراً توحيديا متشدداً ونادى بالالتزام المنضبط بالكتاب والسنة . ومدرسة ودعيس (١) الخزرجى فى كترانج ومن بعد فى المسيد كانت ذات تأثير عظيم وقد لعب خريجوها دوراً كبيراً فى تاريخ القضاء.

" وقامت فى الجزيرة (٢) مدارس وكانت متأثرة بقربها من قصبة الدولة ، وبالعلائق التجارية ولعل من أهم مدارسها مدرسة محمد (٣) العركى فى النيل الأبيض (٤) " .

ممّا ذكرنا يمكن أن نلاحظ عدة ملاحظات :

(١) أنّ اللبنة الأولى للمدارس قد وضعت فى الشمال حيث المجتمع المستقر. وأنّ هذه اللبنة كانت متأثرة بمصر بحكم ثقافة وتعليم المؤسسين لها.

---

(١) هو الشيخ ابراهيم بن الفقيه أحمد بن عيسى . ولد بعرفة سنة ١١٩٢ هـ حال حج والديه . وقد تفقه على أبيه . وحين سافر أبوه لسنار تركه يدرس بمسجد كترانج . وفيما بعد بدأ للفقيه ابراهيم أن ينشىء مسجداً آخر لتخفيف ازدحام الطلبة بكترانج فأسس ذلك المسجد بالضفة الغربية للنيل الأزرق تجاه كترانج ، والذى اشتهر بمسيد ودعيس وقامت حوله بلدة المسيد الحالية وقد توفى الفقيه ابراهيم سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٣م . انظر د. عز الدين الامين . تراث الشعر السودانى . معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ١٩٦٩م ص ٤٠ .

(٢) يطلق لفظ الجزيرة فى السودان على الأراضى الواقعة بين النيلين الأبيض والازرق .

(٣) سبقت ترجمته .

(٤) محمد ابراهيم أبوسليم : دور العلماء فى نشر الاسلام فى السودان. أحد بحوث المجموعة الأولى من معالم تاريخ الاسلام فى السودان. مرجع سابق ص ٧٦.

(٢) إنّ اتساع المدارس قد اتخذ وجهة جنوبية مع النيل فى خط مع المجتمع المستقر وقد ازداد نشاطها كلما اقتربنا من مركزى مشيخة العبدلاب فى قرّى والحلفاية . أمّا مدارس سنّار فلم يكن لها ذلك القدر من الشهرة وربما كان ذلك بسبب نفوذ الطرق الصوفية الكبير الذى كان يحد من نفوذ المدارس .

(٣) كان المعلم يقوم بدوره تطوعاً لخدمة الدين بقصد الثواب وأنّ المجتمع كان يقوم بالإنفاق على المعلمين والطلاب خدمة للدين وبقصد الثواب أيضا .

(٤) هذه المدارس لم تكن معزولة عن المجتمع ومايجرى فيه وإنما كانت تؤثر وتتأثر وهكذا نجد اقبالها نحو الفتيا وأمور الحكم كلما اقتربت من مراكز الحكم (١) .

هذا ماكان عليه أمر التعليم فى سلطنة "سنّار " أما دارفور فقد وطدت صلاتها الثقافية مع تلك الدويلات والامارات التى قامت فى وسط السودان الغربى . وانتقلت إليها الثقافة الإسلامية من أفريقيا الشمالية والغربية . وبالرغم من ذلك فقد ذكر الإنجليزى براون وهو أحد الرحالة الأجانب والقلائل الذين استطاعوا الاقامة بدارفور ردحًا من الزمن فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى وأواخر القرن الثامن عشر الميلادى انه كان يوجد بدارفور وقتذاك بعض الفقهاء الذين تلقوا العلم فى القاهرة ثم أكد هذا القول محمد بن عمر التونسى فى رحلته المسماة بتشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان" (٢)

---

(١) انظر بحث الدكتور محمد ابراهيم ابوسليم . دور العلماء فى نشر الاسلام فى السودان .. المنشور فى المجموعة الاولى من ابحاث معالم تاريخ الاسلام فى السودان . مرجع سابق ص ٧٦-٧٧ .

(٢) د. محمد فؤاد شكرى . صفحة من تاريخ السودان الحديث . مجلة اداب القاهرة . العدد الثامن المجلد الثانى . مرجع سابق ص ٢٧

التعليم ومناهجه فى هذه المرحلة :

إذا انظرنا إلى الثقافة العربية الإسلامية فى الأقطار المجاورة للسودان قبل ضمه للادارة المصرية نجد أنّ هذه الثقافة قد دخلت فى طور التقليد والاضمحلال . فالدراسة فى الأزهر – مركز الثقافة فى البلاد الاسلامية – موجهة فى أغلبها إلى العلوم النقلية ، ومايدرّس من العلوم العقلية كالمنطق أو الطب أو الفلك إنما كان يدرّس دراسة آلية القصد منها حفظ المسائل والجدل اللفظى دون تجديد أو استنباط لقواعد جديدة (١) .

ولذلك اتجهت الدراسة إلى العلوم المقصودة لذاتها كعلوم الفقه والتوحيد والتصوف . وقد سادت فى العالم الاسلامى – وقتذاك – مذاهب الصوفية التى شجعتها الدولة العثمانية وسيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الاسلامية وصار الناس يقسمون شريعة الله إلى علم باطن وعلم ظاهر بل إنّ بعضهم اعتبر أنّ علم الباطن حسب زعمهم هو العلم الحقيقى .

وقد تأثرت الثقافة الاسلامية فى السودان بما يجرى فى العالم الاسلامى وإذا رجعنا لكتاب الطبقات لابن ضيف الله لوجدنا أن أهم العلوم التى لقيت عناية كبيرة هى علوم القرآن والفقه ولواحقه مثل علم الميراث والتوحيد والتصوف (٢).

"والظاهر أن أول ماوجهت إليه العناية من هذه العلوم القرآن الكريم وأول مظهر لذلك هو حفظه ، ولذلك كان الطلاب يتعلمون القراءة والكتابة عرضاً أثناء حفظهم للقران ولعل منشأ ذلك ماذكره ابن خلدون من أن دراسة القرآن إنما تقدمت فى هذه المرحلة إيثاراً للتبرك والثواب وخشية مايعرض للولد من جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن" (٣).

(١) انظر محمد فوزى مصطفى : الثقافة العربية . مرجع سابق ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٣) عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ص ٨٦ .

وإلى جانب حفظ القران نشطت الدراسات القرآنية التى تعين على حفظه حفظاً جيداً مثل علم التجويد والقراءات . ونبغ فى هذه العلوم بعض العلماء مثل الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب (١) والشيخ سعد الكرسنى (٢) ، الذى كان شديد الرياضة لتلاميذه حريصاً على معرفتهم للشدو الهمز والقلقلة والاظهار والادغام والغنّة ومعرفة الوقوف من تام وكاف وحسن (٣) .

غير أنّ أهم مايلاحظ على الدراسات القرآنية أنّ العلوم التى كانت تساعد على فهم معانى القرآن وتدبر آياته مثل علم التفسير لم تجد عناية كبيرة فى ذلك الوقت ولذلك كان بعض الطلاب يحفظون القرآن من غير اهتمام بمعانيه . كما أنّه لم تكن هناك مصاحف مكتوبة فكان المدرس يملى من الذاكرة ، والطلاب يكتبون على ألواح من الخشب تمحى بعد الحفظ وبذا كان الطلاب يتعلمون القراءة والكتابة أثناء حفظهم للقرآن كما سبقت الاشارة .

أمّا علوم القرآءات فقد كان مدار تدريسها على كتاب الشاطبية لمؤلفه ابى القاسم بن فيرة الأندلسى ، وكانت أهم القراءات الشائعة عند أهل السودان هى قراءة ورش فى نواحى دارفور وكردفان ، وأبى عمر الدورى فى دنقلة والدامر والخرطوم أما حفص فهى أقل القراءات انتشاراً فى السودان (٤) .

يلى القرآن وعلومه فى الأهمية علم الفقه ومن يرجع إلى كتاب الطبقات يجد أن رسالة ابن أبى زيد القيراونى ومختصر خليل بن اسحق والأخضرى،

---

(١) محمد بن عيسى بن صالح الجعلى البديرى المشهور بسوار الذهب . قرأ مختصر خليل على أبيه كما قرأ العقائد والمنطق على الشيخ محمد المصرى. تولى القضاء . أخذ عنه العلم عدد كبير من الطلاب. توفى ودفن بدنقلة . انظر الطبقات ص٣٤٧.

(٢) اصله شايقى . قرأ القران وأحكامه على الفقيه عبد الرحمن ولد أسيد تولى تدريس القرآن بعد وفاة شيخه .رحل إليه الناس من أماكن بعيدة كان حريصاً على أحكام التجويد انظر الطبقات ص ٢٢٣.

(٣) انظر محمد فوزى مصطفى . الثقافة العربية . مرجع سابق ص٤٩.

(٤) انظر المرجع السابق ص ٥٠.

فى الفقه المالكى وجدت عناية كبيرة من جمهرة المتعلمين وإلى جانب كتب المالكية كانت تدرس كتب الشافعية وخاصة فى أُربجى التى نبغ فيها مجموعة من رجال الفقه الشافعى مثل القاضى دشين [١] والشيخ شمو بن محمد عدلان [٢].

وإذا نظرنا فى ثقافة هؤلاء الشيوخ الفقهية نجد أن بعضهم قد وصل درجة لا بأس بها فى علم الفقه ، وبعض هؤلاء المشايخ كانت لهم مشاركة فى التأليف فى الفقه ، ودراية بالأحكام والفتاوى فى مسائله ، وكثيراً مانجد صاحب الطبقات يصف بعض الفقهاء بقوله " فهو مرجح التصنيف على التدريس " ولاحظ بعض الباحثين أنّ هذا المستوى لم يكن يمثل التحصيل العلمى الشائع عند معظم المتعلمين ولكنه يمثل تحصيل الطبقة الممتازة من العلماء" [٣].

---

(١) ولد بمدينة أُربجى وكان شافعى المذهب . تولى القضاء فى دولة سنّار . توفى بالداخلة على نهر الدندر . انظر الطبقات ص ٢١٢.

(٢) شمو بن محمد ب نعدلان الشايقى . ولد بمدينة أُربجى . قرأ الفقه عند الفقيه بلال والفقيه أبو الحسن وقرأ العقائد على الفقيه الشاطبى ابن الفقيه أُرباب و" الرسالة " على الفقيه عيد الصادق وكتب الشافعية المنهاج والمنهج على الفقيه بلال عالم أُربجى وقاضيها فصار بذلك مفتياً فى مذهب مالك والشافعى . دفن بأربجى انظر كتاب الطبقات ص ٢٣٢.

(٣) انظر محمد فوزى مصطفى . الثقافة العربية . مرجع سابق ص ٥١.

كذلك اهتم العلماء بجانب آخر من الدراسات الفقهية فوجهوا عناية شديدة إلى علم الميراث والفرائض وقد نبغ فى هذا العلم مجموعة من العلماء أشهرهم الشيخ ابراهيم بن عبودى [١] المشهور بالفرضى ، الذى ألف الحاشية المشهورة بالفرضية ، ومرد عنايتهم بهذا العلم ترجع إلى حاجتهم الضرورية لهذا الفن فى تقسيم التركات [٢] .

وإلى جانب علوم القرآن والفقه إزدهرت دراسة التوحيد الذى تطلق عليه المصادر علم العقائد ونبغ فيه مجموعة من العلماء منهم الشيخ أرباب بن على الذى ألف كتابا فى أركان الايمان وأسماه الجواهر كماسبق فى تعريفه .

والظاهر أن مدار علم التوحيد كان على كتاب السنوسية [٣] وشروحها ولذلك نشطت حركة تأليف الحواشى والشروح حولها مما يدل دلالة واضحة على انتشار هذا العلم ورغبة الطلاب فيه ، فألف الشيخ على برى [٤] شرحاً على السنوسية كما كان للشيخ مكى النحوى [٥] الشروح الجليلة منها

---

(١) قرأ على خاله ثم رحل إلى الشيخ عبد الرحمن ولد حمدتو ومكث عنده سبع سنين وكان ذو علم ودين و زهد سمى بالفرضى لانه كان له باع طويل فى علم الفرائض . ألف الحاشية المشهورة بالفرضية فى علم الفرائض أخذ عليه علم الفرائض طلاب كثيرون . انظر الطبقات ص ٧٩ .

(٢) انظر محمد فوزى مصطفى . الثقافة العربية . مرجع سابق ص ٥١ .

(٣) السنوسية مقدمة فى التوحيد من ثلاث مقالات كبرى وتعرف بعقيدة أهل التوحيد ووسطى ولعلها مايسمى بالمرشدة وصغرى وهى أم البراهين لأبى عبد الله محمد السنوسى التلمسانى المتوفى سنة ١٤٨٠م انظر كتاب الطبقات ص ٥ .

(٤) الشيخ على بن برى من العلماء الذين قاموا بشروح فى مجال العقائد . توفى سنة ١٠٧٣هـ انظر الطبقات ص ٢٩٣ .

(٥) مكى النحوى الرباطابى أخذ العلم من الشيخ محمد المصرى وقد أخذ عليه جميع الفنون ثم سافر إلى الشيخ محمد ولد عيسى . كتب شروحاً كثيرة . انظر الطبقات ص ١٠٣ .

شرحه الكبير على السنوسية فى أربعين كراساً وشرحه الصغير فى عشر. ومن العلماء الذين أسهموا فى حركة التأليف فى علم التوحيد الشيخ محمد أكداوى بن الشيخ (١) محمد المصرى الذى ألف حسب عبارة صاحب الطبقات " كتبا شأنها أن تكتب بمداد الذهب " منها أربعة شروح على أم البراهين العمدة التى عم النفع بها فى سائر الأقطار والوسط والصغير والحاشية التى هى أجل مؤلفاته وشرحاً على يقول العبد(٢) فى بدء الأمالى الكبير فى مجلد ضخم نحو ستين كراساً والصغير فى سبعة كراريس " (٣) .

وإلى جانب علوم القران والفقه والميراث والتوحيد يتردد ذكر علوم أخرى فى الطبقات، مثل علوم الحديث ومصطلحها والتفسير . على أن معظم هذه المؤلفات عبارة عن مخطوطات "أكثرها لم يصل إلينا ولم نقف على مطبوع منها سوى مؤلفات أحمد بن عيسي الخزرجي الأنصارى . وكل ذلك عمل علمى جليل يدل على مدى الاهتمام بالدراسات الاسلامية والعربية فى ذلك العهد، كما يدل على نوع التعليم الذى كان يتلقاه الطلاب وقتئذ . وكما يدل كذلك على مستوى هذا التعليم "(٤) .

---

(١) سبقت ترجمته .

(٢) منظومة بدء الأمالى المشهورة فى السودان بـ (يقول العبد) لسراج الدين ابن عثمان الأوسى المتوفى سنة ١١٧٤ م والتى يقول فى مطلعها :
يقول العبد فى بدء الأمالى لتوحيد كنظم باللآلىء

(٣) محمد النور بن ضيف الله : كتاب الطبقات، مرجع سابق - ص ١٠٠.

(٤) د. عز الدين الأمين : تراث الشعر السودانى . مرجع سابق ص ١٤.

ويرى باحث آخر ان الكتب المتداولة بين علماء السودان كانت قليلة لبعد السودان عن مراكز التأليف وارتفاع تكلفة هذه الكتب على علماء السودان ولذلك ضعفت ثقافتهم العامة ولم يكن لهم اقبال كبير على التأليف وقد أورد صاحب الطبقات أغلب ما ألفوا وهو عبارة عن حواشي وشروح . وعموماً كان العالم السوداني معلماً وقارئاً ولم يكن مؤلفاً . وعلى مايبدو فأن أكثر ماتطارح فيه علماء السودان كان حول البن والتبغ إذ ذهب البعض الى تحريم هذا أو ذاك بينما ذهب الآخرون إلى أنه حلال"(١) .

ولعل هذه الملاحظة لاتنطبق على السودان وحده في هذه الفترة فقد ضعفت الثقافة الاسلامية في معظم الأقطار الاسلامية بفعل التقليد وقفل باب الاجتهاد .

هذا ماكان عليه امر التعليم في السودان قبل ضمه للادارة المصرية في عهد محمدعلي باشا .

ـ التعليم في السودان في عصر محمد علي باشا :

يعتبر محمد علي باشا مؤسس النهضة التعليمية في مصر الحديثة حيث أنشأ عدداً من المدارس منها مدرسة الهندسة في سنة ١٨١٦م ومدرسة المهندسخانة ببولاق في سنة ١٨٣٤م ومدرسة الطب في سنة ١٨٢٧م ومدرسة الصيدلة والولادة ومدرسة الألسن في سنة ١٨٣٦م ومدرسة المعادن بمصر القديمة

---

(١) د.عز الدين الامين ـ تراث الشعر السوداني . مرجع سابق ص ١٤.

(٢) انظر محمد ابراهيم أبوسليم ـ دور العلماء في نشر الاسلام في السودان ـ المجموعة الأولى من بحوث معالم تاريخ الاسلام في السودان ـ مرجع سابق ص ٨٠.

فى سنة ١٨٣٤م ومدرسة المحاسبة بالسيدة زينب فى سنة ١٨٣٧م ومدرسة الفنون والصنائع فى سنة ١٨٣٩م . كما اهتم بارسال البعثات إلى أوربا وخاصة إلى فرنسا وذلك بقصد الاستفادة مما أنتجته الحضارة الأوربية فى مجال التعليم (١) .

وعندما ضم محمد على السودان إلى أملاكه فى سنة ١٨٢١م اهتم بأمر التعليم فى السودان . ففى البداية نجد أنّه قد أرسل مع حملة الفتح ثلاثة من العلماء المصريين هم القاضى محمد الأسيوطي الحنفى والسيد أحمد القبلى الشافعى والشيخ السلاوى المغربى المالكى . ووهب كلا منهم خلعة سنية وخمسة عشر كيساً (الكيس خمسمائة قرش) وأوصاهم أن يحثوا أهل البلاد على الطاعة بلا حرب بحجة أنهم مسلمون وأنّ الخضوع لجلالة السلطان أمير المؤمنين واجب دينى "(٢) . وقد مات فى السودان القاضى محمد الأسيوطى وتولى القضاء الشيخ أحمد البقلى وكان المفتى هو السيد أحمد افندى السلاوى "(٣) .

وقد قدّر للقاضى السلاوى أن يلعب دوراً مهماً فى السودان فهو مالكي المذهب مثل أغلب السودانيين ويبدو أنّ الغيرة المذهبية واندماجه في المجتمع السودانى بالمصاهرة والصداقة دفعته إلى الحماس فى خدمة علماء السودان . فقد شجع مدارس السودان وخلاويه وأجرى عليها الجرايات وارتبط مع بعض العلماء بحبل الود والصداقة وكان هو الذى فتح الباب أمام خريجى

---

(١) لمعرفة تطور النهضة التعليمية فى مصر انظر عبد الرحمن الرافعى: عصر محمد على . مرجع سابق ص ٤٦٤ . وأحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على – مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٨ ص ٨٢ ومابعدها والمجلة التاريخية المصرية المجلد الأول ١٩٤٨م مقال تاريخ التعليم فى عصر محمد على .

(٢) انظر نعوم شقير: تاريخ السودان – مرجع سابق ص١٩٦ .

(٣) انظر مخطوطة كاتب الشونة – مرجع سابق ص ٨٩-٩٠ ومحمد سليمان – دور الأزهر فى السودان . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م ص ٥٥ .

مدارس السودان للالتحاق بالقضاء وبوظائف الدولة عموماً وقد كان ذلك فتحاً مهماً .

" وقد تعهد بعض علماء السودان بالتشجيع على الكتابة ، فهو الذى كان وراء تاليف تاريخ سنار إذ شجع أحمد أبوعلى كاتب الشونة على تأليفه ثم دفعه إلى الزبير ورضوة وابراهيم عبد الدافع (١) والأمين الضرير فنظر كل منهم فيه وأدخل فيه ما أدخل . وقد دفع ابراهيم عبد الدافع فجعل من ذكرهم ود ضيف الله فى طبقاته ومن جاءوا بعده فى أرجوزة ثم تولى هو شرح الأرجوزة . وهكذا عرض السلاوى طبقات أولياء السودان بعيداً عن مبالغات وشطحات الطبقات "(٢) .

لقد قام السلاوى بدور مهم عندما فتح العلماء السودان العمل فى مجال دولاب الحكومة غير أن ذلك ربط هؤلاء بنظام الحكم ، وجعل اعتمادهم على مايتلقونه من المرتبات مما أفقدهم الحرية التى كانوا يتمتعون بها وأضر بمكانتهم الاجتماعية "(٣) .

---

(١) صار ابراهيم عبد الدافع نائب الشرع فى الخرطوم فى العصر التركى ، ويقال أنه اشترك مع أحمد كاتب الشونة والزبير ولد ضوه والأمين الضرير فى تأليف كتاب (تاريخ ملوك السودان) وقد نشر الدكتور مكى شبيكة هذا الكتاب بهذا العنوان .وبهذه النسبة للمؤلفين الأربعة ثم نشره بعد ذلك الشاطر بصيلى بعنوان مخطوطة كاتب الشونة ونسبه لأحمد كاتب الشونة وحده . وقد عرف ابراهيم عبد الدافع بشاعرية حسنة فى عصر الفونج والعصر التركى .كان ميلاده سنة ١٨٠٠ وتوفى بحلفاية الملوك سنة ١٨٨٢م . انظر د. عز الدين الامين -تراث الشعر السودانى -مرجع سابق ص ٢٤.

(٢) د. محمد ابراهيم أبوسليم :دور العلماء فى نشر الاسلام فى السودان. مرجع سابق ص ٨١.

(٣) المرجع السابق ص ٨٢.

ذكرت فى النظام الادارى أنه بضم محمد على السودان إلى أملاكه أصبح وادى النيل كله فى وحدة ادارية جعلت الاتصال الثقافى بين شطرى الوادى أكثر التحاماً حيث فتحت أبواب الأزهر لعدد أكبر من السودانيين ويلاحظ نشاط هجرة الطلاب السودانيين إلى مصر فى هذه الفترة (١) .

كذلك " وفى أوائل العهد التركى فى السودان نسمع عن هجرة بعض العلماء المصريين إلى السودان ، ذلك أن سياسة محمد على كانت تهدف الى توثيق العلاقات الدينية أولاً وقبل كل شىء بين البلدين" (٢) .

هذا ويعتبر عصر محمد على فى السودان بداية طيبة لنشر التعليم الحديث بين أبنائه وذلك بوسيلتين إمّا عن طريق بناء المساجد فى عدد من البلاد السودانية أو عن طريق السماح للسودانيين بالالتحاق بالازهر لتكملة دراستهم (٣) .

ولقد كان من الأعمال الهامة التى أدخلها محمد على إلى السودان تطويره لنظام التعليم الذى كان سائداً هناك . والذى كان قاصراً على حفظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة لبعض الأطفال فى الزوايا وفى الجوامع الصغيرة التى كانت توجد فى بعض قرى السودان الشمالى . وكانت هذه الزوايا لا تؤدى دورها فى خدمة العلم بالكفاءة المطلوبة لأنه لم يكن لها مصدر ثابت للانفاق عليها . فقد قام محمد على بتطويرها عن طريق بناء المساجد مثل مسجد الخرطوم ، الذى كانت وظيفته تنحصر فى تعليم أبناء السودان

---

(١) انظر محمد فوزى مصطفى – الثقافة العربية – مرجع سابق ص ٣٧.

(٢) المرجع السابق ص ٣٨.

(٣) انظر د. السيد يوسف نصر . الوجود المصرى فى أفريقيا . مرجع سابق ص ١٢٢.

القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى كالنحو والخط . وقد خصص لهذا الجامع مبلغ مائة وخمسين قرشاً فى الشهر للانفاق منها على التلاميذ الذين كانوا يدرسون فيه . لكن هذا المبلغ كان لايفى باحتياجات الامام (شيخ المسجد) والدارسين معاً مما اضطره إلى أن يشتكى الى حكمدار السودان الذى طلب بدوره زيادة المبلغ المخصص لهذا الجامع بحوالى مائة قرشاً فيصبح مجموع مخصصاته مائتين وخمسين قرشاً ،كما طلب أيضا تخصيص ثلاثة أرادب من الذرة لهذا المسجد كى يؤدى دوره فى خدمة العلم "(١) .

" وقد بلغ عدد الدارسين فى مسجد الخرطوم فى عصر محمد على حوالى واحد وثمانين تلميذاً كانوا جميعا من أبناء السودان وفيما بعد تقرر أن يتقاضى كل تلميذ من هؤلاء التلاميذ مرتباً شهريا قدره قرشان فقط بالاضافة إلى حصوله على ربعين من الذرة (كيلة واحدة) وذلك لكى يهتم كل منهم بدروسه . وهذه وسيلة من وسائل التشجيع وإن دل هذا العمل على شئ فانما يدل على مدى اهتمام محمد على بنشر العلم الدينى فى السودان"(٢) .

لم يقتصر نشاط محمدعلى التعليمى على الخرطوم وحدها دون غيرها بل امتد نشاطه إلى المناطق الأخرى كدنقله التى وافق محمدعلى على إنشاء مسجد آخر بها لتعليم أبنائها القراءة والكتابة وحفظ القران بالاضافة إلى ذلك فانه قد سمح لأبناء سنار بالالتحاق بالجامع الأزهر وذلك لمواصلة دراستهم العالية فكانوا يدرسون التفسير والفقه والشريعة الاسلامية وما إلى ذلك . وكان قد تصادف أن هؤلاء التلاميذ بعد وصولهم إلى مصر

---

(١) انظر المرجع السابق ص ١٢٠-١٢١.
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

لم يجدوا رواقا خاصا لاقامتهم فيه أسوة بغيرهم من أبناء الصعيد والمغاربة وسائر الأجناس الأخرى . ولما طلبوا لهم رواقاً أفادت ادارة الازهر بانه لاتوجد أروقة خالية ، فجميع الأروقة التى كان يبلغ عددها اثنين وعشرين رواقاً كانت مشغولة . وعندما علم محمد على بذلك أمر بان يؤجر لهم مكان يستقرون فيه (١) فأجرت لهم ادارة الازهر رواقاً جديداً عرف باسم رواق السنارية ومازال موجوداً الى هذا اليوم .

اضافة إلى ذلك فأن محمد على أمر باعادة بناء مسجد الفقيه ابراهيم ابن عيسى(٢) وجعله معهداً علمياً مع تخصيص راتب شهرى له . كما أمر ببناء عشر حجرات لسكن الطلاب بمسجد كترانج . كما أمر بانشاء مدرسة لتعليم الصبيان بجانب مسجد دنقله وإلى جانب هذه المؤسسات أمر فى كردفان باعفاء أولاد الشيخ اسماعيل الولى من ضريبة السواقى والأطيان مساعدة لهم ليمضوا فى التدريس وفى اقامة شعائر الدين (٣) .

وعناية محمد على بمسجد كترانج تثبتها المكاتبة التى أرسلها محمد على إلى حكمدار السودان وقد جاء فيها :

ارادة الى حكمدار السودان

" اطلعت على كتابكم العربى العبارة وما معه من الأوراق المؤرخ فى ١٣ محرم سنة ١٢٦٣ هـ رقم (٥) الخاص بطلب بناء عشر حجرات لسكنى الفقراء (التلاميذ) وعمل سور للجامع الذى أنشىء فى قرية كترانج فى مديرية الخرطوم

---

(١) د. السيد يوسف نصر. الوجود المصرى فى أفريقيا . مرجع سابق ص ١٢١.
(٢) سبقت ترجمته .
(٣) انظر د. عز الدين الأمين – تراث الشعر السودانى – مرجع سابق ص ٤١.

من الطوب النيء وأنه إذا عمل ذلك من الطوب الأحمر يكون أقوى وأمتن . وإن تكاليف ذلك ثمانية آلاف قرش . وقد وافقت ارادتنا على إقامة السور وبناء الحجرات المذكورة من الطوب الأحمر بمبلغ ثمانية آلاف قرش وكتبنا لكم هذا الكتاب لتباشروا العمل "(١) .

ولابد أن نلاحظ أنّ ماورد فى مكاتبة محمد على عن تجديد عشر حجرات لسكن الطلبة إنما يعكس الدور الكبير الذى كان يؤديه هذا المسجد فى تدريس العلم لأبناء السودان وغيرهم .

ويتجلى اهتمام محمدعلى بأمر التعليم فى السودان أثناء رحلته إلى السودان سنة ١٨٣٨م حيث خاطب رؤساء القبائل والمشايخ موضحا لهم أهمية تعليم أبنائهم وقد جاء فى بعض فقرات حديثه " ... ولكن المشاهدة والتقدير مع العلم بالقراءة والكتابة شيء وبدونهما شيء آخر . فان كنتم توفدون أبناءكم فإنى الحقهم بالمدارس الكثيرة التى وفقنى الله سبحانه وتعالى فى انشائها لتعليم أبناء الأمة وتثقيفهم وأدفع لهم نفقات مأكلهم وملبسهم . وبذلك ينعم أبناؤكم بنصيب وافر من العلم والأدب فى هذه المدارس ثم أعيدهم بعد سنوات قليلة إلى أوطانهم معززين مكرمين . وأكون بهذا العمل قد خدمت عائلاتكم خدمة عظيمة من جهة وخلدت اسمى مقروناً بالفخار إلى يوم القيامة من جهة اخرى "(٢) .

---

(١) دار الوثائق القومية بالقاهرة . وثيقة رقم ١٣ بتاريخ ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٦٣ / ٨ فبراير ١٨٤٧ مكاتبة رقم ١٠ ص ٢٢٧ سجل رقم ٤٠٨ صادر المعية السنية . تركى الفترة التاريخية للسجل فى ٢١ رمضان ١٢٦٢هـ الى آخر رمضان ١٢٦٣ هـ نقلاً عن د.عز الدين الامين – قرية كترانج وأثرها العلمى فى السودان – دار جامعة الخرطوم للتأليف والترجمة والنشر ١٩٧٥م ص ١٧–١٨ .

(٢) د.حسن أحمد ابراهيم – رحلة محمدعلى باشا إلى السودان . مرجع سابق ص ٥١ .

وقد كانت كلمات الباشا ذات أثر كبير على الزعماء والمشايخ حتى أن التقرير الرسمي للرحلة قد ذكر أنه كان لهذا الخطاب أثراً عظيماً على نفوسهم المكروبة مما جعلهم يذرفون دموع الفرح متأثرهم بهذه المجاملات . وسارعوا بالوعد بارسال أبنائهم . وأنبرى عبد القادر اغا شيخ الجزيرة وأظهر اخلاصه بقوله ليس لى أبناء ومع ذلك سأرسل ابن أخى"(١) .

وتشير المصادر الى ان عدداً من أبناء وجهاء السودان قد وصلوا الى القاهرة عقب عودة محمد على إليها .وقد أمر محمد على بالحاقهم بالمدرسة التجهيزية ليتعلموا القراءة والكتابة أولاً ثم يدرسوا بعد ذلك علم الزراعة ، هذا وقد وجه الباشا بلزوم العناية بهم وتميزهم على غيرهم من تلاميذ المدرسة الآخرين وأن يخصص لهم خادم يقوم بما يلزم لهم والاّ يفرق بينهم بل يكونوا معاً(٢) .

وتشير بعض المراجع إلى أن هؤلاء الطلاب قد ألحقوا بمدرسة الألسن قبل عودتهم إلى السودان لتسلم وظائفهم الحكومية . وقد قضوا فى مصر ثلاث سنوات كانت تصرف لهم فيها الاعانات اللازمة . وعندما شرع محمد على باشا فى إرسال البعثات المصرية إلى أوربا كجزء من سياسته التعليمية وقع الاختيار أيضاً على نفر من أبناء السودان الذين كانوا يدرسون بمصر ولكنهم عادوا من أوربا ولم يحضروا إلى السودان وفضلوا الالتحاق بوظائف فى مصر(٣).

---

(١) د.محمد فؤاد شكرى - رحلة محمد على إلى السودان - مجلة آداب القاهرة العدد الثامن مرجع سابق ص ٢٧.

(٢) انظر عبد العزيز أمين عبد المجيد تاريخ التربية فى السودان ج٢ المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٤٩م ص ١٦.

(٣) انظر محمد عمر بشير -تطور التعليم فى السودان ١٨٩٨-١٩٥٦م ترجمة هنرى رياض وآخرين - دار الثقافة . بيروت ١٩٧٠م ص ٤٠.

وقد أورد الدكتور شكرى فى كتاب الحكم المصرى فى السودان خطاباً من أحد العلماء المنقطعين للتدريس أرسله إلى محمد على أثناء زيارة الأخير للسودان يشكره فيه على الخدمات التى يقدمها لطلاب العلم [(١)].

---

(١) جاء فى هذا الخطاب " من اسماعيل بن عبد الله إلى حضرة صاحب الدولة العلية العثمانية (الخديو الاعظم) فى ٤ ذى الحجة ١٢٥٤ هـ (٨ فبراير ١٨٣٩م)

حضرة صاحب الدولة العثمانية والمملكة البهية الخاقانية
من بسط على رعيته بساط الحمد والأمان وأفاض عليهم نهال العدل والاحسان وحمى حوذة الملة الحنيفية بأسام المعارك وأروى أعداء الدين فى مهاوى المهالك صاحب القصر والتمكن والعز والسعد المكين وهو الأمير الأعظم والنيسوب الأكرم مبيد العصات والمشركين قامع شوكة الفجرة المتمردين ناصب صراط العدل المستقيم شمس فلك السعادة المشرقة على كل هارد خصيم سيد الوزرا (هكذا) مقصد الامرا (هكذا) ملجأ الفقراء غياث الورى أفندينا المؤيد المنصور وولى النعم أفندينا الحاج محمد على باشا أيده الله تعالى امين .
بعد مزيد السلام وأجل التحية والاكرام اللائق لجنابكم المعظم أمّا بعد بلغنا خبر قدومكم بأرض جزيرة سنّار وحمدنا الله بقدومكم وصحة سلامتكم وتأييد دولتكم ومرادنا القدوم إلى مواجهتكم السعيدة وطلعتكم البهية وحصل لنا عذر وجعلنا مكتوبنا نايباً (هكذا) عنّا وإن سألت عن حالى فأنى رجل صاحب طريقة ودرس ، منقطع على باب الله . فالحمد لله منذ قدوم أولادك أرض السودان حصلت لنا الراحة والاكرام التام وكل ذلك بسبب إقبالك واكرامك لاهل الدين وحفظ حرمهم ويرجون الله سبحانه وتعالى ثواب ذلك فى سائر الأوقات فى الصبح والمساء وإن شاء الله ببركة الدعاء يبلغك مقصودك وشرف علمكم كفاية . السلام ورحمة الله تعالى وبركاته " .
نقلا عن الحكم المصرى فى السودان ص ٢٧٣.

لم يكتف محمد على بارسال العلماء إلى السودان وتشجيع الطلاب بالهجرة الى مصر ولكنه أيضاً حاول تشجيع الطرق الصوفية التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت إلى النزوح إلى السودان . وبالفعل جاءت بعض هذه الطرق الى السودان (١) .

يلاحظ أنّ محمد على – على الرغم من تشجيعه للتعليم فى السودان – لم يضع سياسة تعليمية واضحة كتلك التى وضعها فى مصر ولذا قال أحد الباحثين : " على الرغم من حماسة محمد على باشا للتعليم الحديث وحثه للناس على الأخذ به فأنه لم يضع سياسة لتوجيه التعليم فى السودان كما فعل فى مصر "(٢) .

ويعلل باحث آخر هذا التقصير بأن محمد على باشا لم يرد أن يملى ارادته على القوم وهم حديثو الصلة به حتى لا يغير قلوبهم "(٣) .

ويعلق أحد الباحثين على سياسة الاتراك التعليمية بصفة عامة بقوله : وحصر الأتراك مسئولية الدولة فى جباية الضرائب وحماية الولايات من الغزو واقرار الأمن الداخلى وفض الخصومات بين الناس . أمّا المسائل العامة كالثقافة والتعليم فلم تكن تدخل بالضبط فى مسئولية الدولة بل تترك للأفراد والجماعات "(٤) .

---

(١) انظر عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان . مرجع سابق ص ٩٨ .

(٢) د. ابراهيم الحاردلو: الرباط الثقافى بين مصر والسودان – دار جامعة الخرطوم للنشر والترجمة والتأليف ١٩٧٧م ص ٨ .

(٣) عبد العزيز أمين عبد المجيد : تاريخ التربية في السودان ج٢ ص ١٣ .

(٤) د. يوسف خليل يوسف : القومية العربية ودور التربية فى تحقيقها – الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٦م ص ١٠١ .

وهذا القول على اطلاقه ليس صحيحاً لأنّ الأتراك بصفة عامة ومحمد على بصفة خاصة قد اهتموا بالتعليم وفتح المدارس والانفاق عليها ولكن اهتمامهم بالتعليم والحق يقال لم يكن فى مستوى اهتمامهم بالنواحى الادارية والعسكرية والعمرانية .

أمّا لماذا لم يضع محمد على سياسة تعليمية واضحة فى السودان فالسبب فى ظنى يرجع إلى أنّ محمد على كان يفكّر فى إنشاء دولة مترامية الأطراف ولذلك كان تركيزه فى المقام الأول على الجوانب الادارية والعسكرية حتى إذا ما استقرت هذه الأمور فكر فى الجوانب الأخرى .

وتناول أحد الكتاب سياسة محمد على التعليمية بقوله : " كان لمحمد على سياسة معروفة تتعلق بالتعليم فقد كان يغلّب المنفعة على النظريات وقد أبقى فى مصر التعليم القومى ، وهو التعليم الدينى المنتشر فى القرى والحواضر على أوضاعه المألوفة . أى أنه واجه مشكلة الثقافة عموماً ومسائل التربية والتعليم خصوصًا بروح الاعتدال فتجنب الإملاء على الناس كما تجنب الفصل بين نظم ونظم ، فلم يخلق ثنائية فى معاهد التعليم بل تمت تلك الثنائية فى أيام الجيلين الحاضر والسابق من المصريين . ولم تعرف أيام محمد على إلا ثقافة اسلامية فى كل مكان ، أضيف اليها إعداداً فنياً فى امكنة معينة [(١)]" .

ويمكن أن يضاف إلى تشجيع محمد على للتعليم الذى كان موجودًا فى السودان اهتمامه بالرحلات الكشفية ومجهوداته فى كشف منابع النيل معلومة وقد تحدثنا عن ذلك فى النظام الادارى .

---

(١) عبد العزيز أمين عبد المجيد ـ تاريخ التربية فى السودان ج ٢ مرجع سابق ص ١٣ .

مما تقدم نلاحظ أنّ محمدعلى قد شجع التعليم الاسلامى الذى كان موجوداً فى السودان بطرق شتى شملت بناء المساجد والخلاوى ودعمها وارسال العلماء إلى السودان وتشجيع الطلاب على السفر إلى القاهرة ، إلا أنّ الأمر الذى يؤخذ عليه هو أنه لم ينتهج سياسة واضحة فى هذا المجال كتلك التى انتهجها فى مصر ولم يقم بفتح مدرسة واحدة فى السودان فى الوقت الذى أنشأ فيه عشرات المدارس هناك .

...

الفصل الثاني

نظام التعليم في السودان
في الفترة من ١٨٤٩ - ١٨٦٣م

تمهيـــــد :

تحدثت فى الفصل السابق عن نظم التعليم التى كانت سائدة فـــــى السودان قبل عصر محمد على ثم تطرقت لجهود محمد على فى مجال التعليـــــم فى السودان بعد ضمه إلى الادارة المصرية وذكرت أنّ محمد على قد شجع التعليم الدينى الذى كان موجوداً فى السودان ولكنه لم يسع إلى تطويره ولم يتيسر له فتـــح مدرسة واحدة فى السودان كما فعل فى مصر . وسأحاول فى هذا الفصل تتبـــع جهود خلفاء محمد على ، عباس وسعيد فى مجال التعليم في السودان .

- جهود عباس الأول :

قام عباس الأول باغلاق بعض المدارس التى كان جده محمد على قـــــد افتتحها فى مصر مما جعل بعض الكتاب يتهمونه بالرجعية ومحاربة العلـــــم والعلماء . ولكن الأمر الذى فاجأ به عباس هؤلاء الكتّاب هو قيامه بافتتـــاح مدرسة نظامية فى الخرطوم تعتبر الأولى من نوعها مما جعل قطاعاً كبيراً مــن المؤرخين يشككون فى نوايا عباس ويعتقدون أن عباس ما افتتح هذه المدرســة إلا لتكون منفى لرجال العلم والادب وقيادة النهضة فى مصر[1] .

وقد جاء فى خطاب عباس باشا الذى أرسله إلى حكمدار السودان بخصـوص هذه المدرسة مايلى : " لما كانت الأقاليم السودانية من البلاد الجسيمـــة ولمّا لم يكن قد أنشئت فى تلك الديار المتسعة مدرسة يربى فيها أولاد مشايخها وغيرهم من أهلها والأولاد الأتراك الذين ذهبوا إلى تلك الديار وتوطنوا بهـــا

---

(١) انظر Hill, Richard - Egypt in the Sudan. op cit. P. 88.
وكذلك الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطهاوى - تحقيق د. محمـــد عمارة المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ج ١ ص ٥٧ ومابعدها .

منذ أعوام خلت وكذلك أحفادهم ، يتعلموا فيها الفنون والقراءة والكتابة فيزدادوا شفافة وفطانة ولمّا كان المجلس الخصوصى قد تشاور فى جلسته التىعقدها أخيرًا فقرر إنشاء مدرسة بتلك البلاد بغية انقاذ أولادها من ظلمات الجهل وتنويرهم بأنوار المعارف بمقتضى مراحم الذات الخديوية والمكارم الآصفية التى شملت جميع الرعايا والبرايا ، قد قرّ الرأى على أن تفتح هذه المدرسة فىالعاصمة الخرطوموأن يكون نظامها موافقًا لأصول المدارس المصرية وعلى نمط ترتيب مدرستى المبتديان(١) والتجهيزية(٢) ،وأن يقبل ويسجل فيها نحو مائتين وخمسين غلامًا من أولاد المشايخ والأهلين القاطنين بمديريات دنقله والخرطوم وسنّار والتاكة وملحقاتها ، وكذلك من أولاد الأتراك الذين توطنوا بتلكالديار وأحفادهم وعلىأن يولى عليها ناظر معلم بأصول المدارس ليتمكن من ترتيبها كما ينبغى وتنظيمها علىأحسن وجه فاستحسن المجلس إختيار أميرالاى رفاعة بك الذى بديوان المدارس ناظرًا للمدرسة المذكورة وارساله إلى تلكالديار وانتخاب المعلمين الذين تحتاج إليهم تلك المدرسة برأى البك المشارإليه وكتب إلى حضرة صاحب العزة الباشا مدير المدارس فى ٦ من رجب ١٢٦٦ مورقم ١٦٦ بأن يبلغ رفاعة بك المشار إليه مهمته ويطلب إليه أن يشعر المجلس بالمعلمينالذين يصطفيهم وينتدبهم وأن يضع مشروعًا يبين فيه مقدار المأكولات والملابس وسائر اللوازم التى تصرف لهذه المدرسة شهريًا و سنويًا على نحو الترتيبات المتبعة فى المدارس المصرية وأن يرسل هذا المشروع موضوعًا على نهج مدرستى المبتديان والتجهيزية كما اسلفنا وقد أنبأنا حضرة المدير المشارإليه فى كتابه رقم ٧٢ المحرر

---

(١) المدارسالابتدائية التى كانت موجودة فىالأقاليم فى عهد محمد على – انظر أحمدعزت عبدالكريم – تاريخ التعليم فىعصر محمد على ص ١٤٧.

(٢) التجهيزية عبارة عن مدرسة ابتدائية كانتتعد الطلاب لدخول المدرسة الحربية انظرالمرجع السابق ص ٨٣.

فى ١٣ من رجب سنة ١٢٦٦ م ان المعلمين اللازمين لتلك المدرسة قد انتخبوا من بين أكفاء الرجال وأنه قد وضع مشروع يبين فيه الموظفون الآخرون ومقادير الفرش والملابس والجرايات والمرتبات فرفع إلى الاعتاب فنال موافقة ارادة ولى النعم وأن الاشياء اللازمة للطلبة والمذكورين التى جاء بيانها فى المشروع قد قدرت أثمانها على حسب أسعار القاهرة وأن على المعلمين الذين ذكرت أسماؤهم فى المشروع أن يقوموا بتدريس الطلبة وبمهمة الضبط والربط ، والوزان ووكيل الخرج(١) والغسال والسقاء والطباخ وغيرهم من الخدم ينبغى انتدابهم من تلك الديار ، وأن تلاميذ اذ يكونون مبتدئين عند دخولهم المدرسة فيستطيعون الدخول فى عداد التلاميذ التجهيزية فى ظرف ثلاث سنوات أو اربع فقد اعتبروا مبتدئين والحالة هذه وخصص لكل منهم مرتبا شهرى قدره ستة قروش • وقد أرسل الينا المشروع المذكور فاطلعنا عليه وتبين لنا أن مجموع نفقات المدرسة المذكورة سنويا تبلغ ثلاثمائة وثلاثين ألفا وثلاثة وثلاثين قرشا وتسعا وثلاثيه بارة فوافق المجلس على تنفيذ مقتضى الترتيب المذكور وقرر استصدار أمر إلى رفاعة بك المشار اليه بأن يستصحب حين يبلغه القرار الأحد عشر معلما والطبيب الذين انتدبوا من هنا وذكرت أسماؤهم فى المشروع السالف ذكره فيسرع بهم إلى صوب مهمته ويبادر فى تأسيس المدرسة المذكورة وينظمها وفق المطلوب السامى عند وصوله الى الخرطوم بعد أن يخابر حضرة الباشا حكمدار السودان وأن لا يألوا جهدا فى التأكيد على المعلمين وفى البحث والتحرى وأن لا تعد عيناه عن التلاميذ وأن يرغبهم في العمل ويبذل همته فى سبيل تقدمهم فى اكتساب العلوم والمعارف وأمر إلى صاحب العزة الباشا مدير المدارس فى سياق نحو قيد البك المشار اليه وقيود المعلمين والطبيب الذين سبق ذكرهم من سجلات استخدامهم ويرسل كشوف مرتباتهم وجراياتهم إلى

---

(١) لم أقع على معناها •

حضرة صاحب السعادة حكمدار السودان ليقيدوا فى مجال استخدامهم بتلك الديار جرياً على الأصول وأمر الى حضرة صاحب السعادة حكمدار السودان بأن يخصص محلاً مناسباً للمدرسة المذكورة حين يصل البك المشار اليه إلى الخرطوم فيقيد البك المشار اليه والمعلمين والطبيب السالف ذكرهم بموجب الكشف الذى سيرسل من ديوان المدارس وأن يختار الخدم والموظفين الآخرين الوارد ذكرهم فى الترتيب من أهل تلك الديار وأن يقيد للمدرسة المذكورة بتشاور مع الناظر المشار إليه طلبة من أولاد مشايخ الجهات السابق ذكرها وأهلها من أولاد الأتراك المتوطنين بتلك الديار منذ قديم الزمان وأحفادهم على الوجه الذى أسلفنا كما (هكذا) جاءوا حتى يبلغ عددهم مائتين وخمسين طالباً وأن يقيد طعامهم ولباسهم ومرتباتهم ولوازمهم الأخرى على الوجه الذى يبين فى كتاب الترتيب ابتداءً من تاريخ قدومهم ويحضرها ويصرفها لهم فى آونتها . كما قرر المجلس إرسال صور من المشروع المذكور إلى المشار اليهم فى هذا القرار"(١) .

وتنفيذاً لما جاء فى هذا الخطاب انتخب رفاعة الطهطاوى أحد عشر مدرساً وطبيبا للعمل معه فى مدرسة الخرطوم وكان أكثر المدرسين من تلاميذه الذين درسوا عليه (٢) .

---

(١) عابدين - المعية دفتر ١٩٥٨ قرارات المجلس الخصوصى (تركى) رقم (٤) صفحة ١١٩ فصل المدارس نقلاً عن د. محمد فؤاد شكرى - الحكم المصرى فى السودان . مرجع سابق ص٣٠٢-٣٠٤ .

(٢) الأساتذة الذين أختيروا لمدرسة الخرطوم هم :

١- القائمقام محمد بيومى أفندى من قدامى أساتذة مدرسة المهندسخانة ورئيس قلم ترجمة الكتب الرياضية .

٢- الصاغول أحمد طائل من مدرسى المهندسخانه وقد كان مفتشاً بديوان المدارس .

٣- الملازم أول محمد على أفندى ٤- الملازم ثانى على عثمان أفندى

٥- الملازم ثانى ابراهيم محمد أفندى

(=)

لقد كان من الأهداف التى يرجى أن تحققها تلك المدرسة ايجـــاد موظفين سودانيين يعرفون القراءة والكتابة ليتولوا أعمال الكتبـــة والمحاسبين فى دواوين الحكومة وربما ترسل هذه المدرسة بعض الطـــلاب الذين يظهرون استعدادًا طيبًا للدراسة فى مصر فى المدارس التجهيزيـــة . إلا أنّ ظروفا غامضة اكتنفت إنشاء هذه المدرسة منذ البداية . فعلـــى الرغم من أنّ قرار إنشاء هذه المدرسة قد صدر فى سنة ١٨٥٠ إلا أنه لم يتم افتتاح هذه المدرسة إلا فى عام ١٨٥٣م فقد مضت ثلاثة أعوام بين صـــدور القرار بانشاء هذه المدرسة وبين افتتاحها بالفعل . كما ان رفاعـــة الطهطاوى لم يكن سعيدًا بالعمل الذى انتخب لأدائه . ولعله قد اضطـــر إلى الإنصياع لأمر الباشا إضطرارا . ولم يكن بعيدا أنّ رفاعة رأى فـــى شخوصه الى الخرطوم عقابًا له ونفيًا . فكثيرا ماشكا إلى اصحابه الذيـــن حملوا رسائله من الخرطوم إلى أهله وأصدقائه فى مصر(١) .

اتهم بعض الباحثين رفاعة رافع الطهطاوى بالتقصير فى أداء مهمتـــه والتهاون فى إنشاء المدرسة فى الخرطوم . ثم اوردوا اخيراً بأن رفاعـــة قد تصرف فى المهمات التى أخذها معه من مصر(٢)

(=) ٦- الملازم ثانى محمد مرسى افندى.
٧- الشيخ رجب وكان من علماء الأزهر .
٨- الملازم ثانى أمين أفندى .
٩- الشيخ اسماعيل فرغلى .
١٠- الشيخ أحمد الواعظ .
١١- الشيخ مكاوى من علماء الأزهر.
١٢- الطبيب سليمان السيوطى .
ويلاحظ أنّ معظم هؤلاء المدرسين من السلك العسكرى .
انظر عبد العزيز أمين عبد المجيد : تاريخ التربية فى السودان ج ٢ ، مرجع سابق ص ٢٨-٢٩.

(١) انظر د. ابراهيم الحاردلو : الرباط الثقافى بين مصر والسودان ، ص ١٢.

(٢) انظر عبد العزيز أمين عبد المجيد . نفس المرجع ، ص ٣١ .

وقد صحبت الفترة التى قضاها الطهطاوى فى الخرطوم ظروف قاسية إذ مات أربعة من المدرسين الذين صحبوه إلى الخرطوم للعمل فى مدرستها فأصبح هذا حدثاً فاجعاً للعاملين من المدرسين ومصدر فزع لكل من يعين مستقبلاً فى السودان . وكانوا يرجعون أسباب الموت إلى رداءة الطقس فى السودان والأمراض الناجمة عنه وكان من بين الذين توفوا محمد بيومى أفندى صديق رفاعة ورفيق دربه (١) .

يضاف إلى كل ذلك تشكيك المؤرخين – كما ذكرنا – فى نوايا عباس فعباس فى نظرهم مثال للرجعية ومعاداة العلم والعلماء وقد أغلق من المدارس ما كان قائماً فكيف يمكن تفسير افتتاحه لهذه المدرسة مالم يكن قصده منها أن تكون منفى للعلماء (٢) . ويؤكدون ذلك بان مرتب رفاعة الطهطهاوى ظل محجوزاً منذ أن غادر القاهرة حتى عاد إليها بعد وفاة عباس باشا . وكان حجز الصرف بدعوى أن رفاعة كان قد تصرف فى الكتبخانة الأفرنجية التى كانت بمدرسة الألسن . وتم حجز مرتبه حتى يتم الفراغ من جرد الكتبخانة . وبعد عودة رفاعة صدر أمر بصرف بعض استخقاقه . وقد دافع بعضهم عن نوايا عباس فى افتتاح هذه المدرسة بقوله " لو أراد عباس نفى رفاعة الطهطاوى أو غيره لأمكنه ذلك دون اللجوء إلى المبررات والمعاذير (٣) .

---

(١) انظر ابراهيم الجاردلو : الرباط الثقافى بين مصر والسودان ، مرجع سابق ص ١٣ .

(٢) انظر د. مكى شبيكه : السودان عبر القرون. مرجع سابق ص
ود. محمد عمارة : الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى ج١، مرجع سابق ص ٦٠ .

(٣) انظر عبد العزيز أمين عبد المجيد – تاريخ التربية فى السودان ج ٢ مرجع سابق ص ٢٥ .

وأنا أرى أنّ الأمرين معاً يمكن أن يكونا قد حدثا . لأن المجلس الخصوصى هو الذى وافق على افتتاح هذه المدرسة كما رأينا فى خطاب عباس باشا إلى حكمدار السودان . وربما يكون المجلس الخصوصى قد استشعر حاجة البلاد إلى مثل هذه المدرسة . فلّما رأى عباس أن المدرسة تقرر فتحها أرسل اليها رفاعة الطهطاوى ومن معه من الأساتذة غير المرغوب فيهم .

على كل افتتحت المدرسة بقليل من الطلاب ،واحدا وثلاثين(1) طالباً ولم يزيدوا على هذا العدد بعد استمرار الدراسة فيها إن لم ينقصوا . وهذا عدد قليل جداً بالنسبة للعدد الذى حدّده المجلس الخصوصى (٢٥٠ غلاماً) ولم تستمر الدراسة أكثر من سنة دراسية واحدة بدات فى شوال سنة ١٢٦٩ هـ الى شعبان سنة ١٢٧٠ هـ وكانت نحواً من تسعة أشهر. ولا أحد يستطيع الحديث عن الفائدة التى خرج بها هؤلاء التلاميذ. وفى هذا العام وبعد وفاة عباس باشا صدر أمر فى ٢٧ شوال سنة ١٢٧٠ هـ إلى حكمدار السودان بالغاء مدرسة الخرطوم وذكر أن حكمدار السودان لم يستقبل رفاعة وأصحابه استقبالاً طيباً بل وزع معدات المدرسة على الجيش وأهمل شأن رفاعة وصحبه وقد قيل أنهم بقوا فى الخرطوم مدة طويلة دون عمل وبلغ الهوان

---

(1) ذكر ريتشارد هل ان جيمس هاملتون الذى زار الخرطوم فى ذلك الوقت (١٨٥٣) قد وجد فى مدرسة الخرطوم أربعة وثمانين تلميذاً ليسوا من أبناء الشعب السودانى والمواطنين وإنما هم من أبناء العاملين فى الدولة كما ذكر أن المدرسة كانت تحت ادارة رفاعة الطهطاوى ومعه أثنى عشر معلماً ومعهم طبيب واحد وأنّ الطلاب كانوا يدرسون القرآن واللغة العربية والتركية وقليل من الهندسة وعجب هاملتون لتقدم التلاميذ فى هذه الفترة . انظر :

Hill, Richard - Egypt in the Sudan - op cit. p. 88.

برفاعه مبلغه عندما ندب لاحصاء النخيل (١) .

وقد ذكر الدكتور أبوسليم أنّ طلاب هذه المدرسة كانوا من أبناء الموظفين وأثرياء المدينة . أما أبناء العامة فكانوا يذهبون الى الخلاوى (٢) .

وقد ذكر الشيخ الطهطاوى بأنّ مشايخ الخرطوم الذين يحفظون القرآن قد تعلموا منه تجويد القرآن وعلم القراءات حتى صاروا ماهرين فى ذلك كما قام رفاعة بترجمة كتاب فى الأدب أثناء مكوثه في الخرطوم (٣)

وبالطبع " لم تسعد الخرطوم الشيخ فصار يرسل التوسل تلو التوسل لرؤسائه يستعطفهم العفو عنه واعادته إلى مصر وقد سجل لنا فى كتبه شيئاً عن السودان بما فى ذلك قصيدة هجا فيها الخرطوم وحياتها القاسية التى إذا قورنت بما رأى من حال المدنية والحضارة فى فرنسا تعد أكثر من بدائية (٤) وهذا ماتكشفه لنا قصيدته الطويلة والتى اختتمها بقوله :

ثلاث سنين بالخرطوم مرت	بدون مدارس طبق المراد
وكيف مدارس بالخرطوم ترجى	هناك ودونها خرط القتاد
نعم ترجى المصانع وهى أجدى	لتاييد المقاصد والمبادى

---

(١) انظر د. محمد ابراهيم أبوسليم : تاريخ الخرطوم . مرجع سابق ص ٤٣.

(٢) انظر محمد ابراهيم ابوسليم . المرجع السابق نفس الصفحة .

(٣) انظر الاعكال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى . مرجع سابق جا ص ٤٦٢.

(٤) حسب الله محمد أحمد : قصة الحضارة فى السودان - دار يوليو للترجمة والنشر . القاهرة ١٩٦٦م . جماعة بعث التاريخ السودانى - ص ٣٦٦.

علوم الشرع قائمة لديهم لمرغوب المعاش أو المعاد (١)

ولم يقض رفاعة الطهطاوي في السودان بعد وفاة عباس باشا سوى أيام معدودات أعد فيها نفسه لمغادرة الخرطوم إلى القاهرة ولم يعد بعدها للسودان أبداً .

هذا ما كان عليه حال التعليم على الصعيد الرسمي . أمّا على الصعيد الشعبي فقد استمرت المساجد والخلاوي والعلماء في أداء مهمتها التعليمية واستمر الطلاب في هجرتهم إلى مصر لطلب العلم في الأزهر الشريف .

ويلاحظ أنّه قد ظهرت لأول مرة في هذا العهد إجازات علمية لبعض الطلاب السودانيين الذين كانوا يدرسون العلم بالأزهر . وسأحاول هنا أن أستعرض بعض هذه الاجازات مع التعليق عليها .

أقدم هذه الاجازات المؤرخة هي اجازة الشيخ على العربي من علماء الأزهر لأحمد بن محمد بن عيسى السناري (٢) وولده الشيخ محمد (٣) وهي

---

(١) انظر الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي ج ١ ص ٤٥٣ وما بعدها .

(٢) هو أحمد البدوي أحد حفدة الشيخ عيسى بن بشارة الأنصاري الخزرجي ولد بقرية كترانج جنوب الخرطوم . رحل إلى مصر والتحق بالأزهر ودرس على شيوخه ونال بعض الاجازات . عاد الى السودان سنة ١٢٧١ الموافق ١٨٥٥م وجلس للتدريس في كترانج .كانت وفاته سنة ١٨٦٩/١٢٨٦ ببربر وهو في طريقه إلى الحج ودفن بها . انظر عز الدين الأمين . قرية كترانج . مرجع سابق ص ٧١ .

(٣) الشيخ محمد بن أحمد البدوي رحل من مولده كترانج إلى مصر وتلقى علوم الأزهر عن شيوخ والده وحصل معه على اجازات مشتركة بينهما وهذه الاجازات تدل على أن الفقيه محمد تلقى كوالده في المذاهب الثلاثة المالكي والشافعي والحنفي . ولقد عين الفقيه محمد مدرساً بالازهر وظل في وظيفته تلك ثماني سنوات حيث توفي هناك ودفن بمصر بعد أن قام بها اقامة علمية تزيد عن العشرين سنة . انظر المرجع السابق ص ٧٤ .

بتاريخ سنة ١٢٦٧ هـ مع أن هناك بعض الاجازات غير المؤرخة لهذين الشيخين من بعض شيوخ الأزهر . وقدجاء فى الاجازة الأولى[(١)]:

الحمد لله رب العالمين و العاقبة للمتقين ولاعدوان إلا على الظالمين والصلاة و السلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد فقد استجازنى كل من أخينا الفاضل و الهمام الكامل بركة الوقت وصالح الزمان الحقيق لكماله بأن يشار إليه بأطراف البنان من أرجو الله أن ينفعنى ببركته وشريف همته الممنوح من العطايا بامداد المولى البارىء الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى السنارى وولده العامل و الفاضل الكامل الشيخ محمد بما أجازنى به مشايخى الكرام الذى من جملته ما تضمنه هذا الثبت لظنه أنى أهل لذلك رأنى من فرسان تلك المسالك فقلت وبالله التوفيق أجزت كلاً منهما بما تجوز لى وعنى روايته من معقول ومنقول أدام الله لهما السرور والقبول راجياً ألاّ ينسيانى من الدعوات فى الخلوات والجلوات والناجى منّا يأخذ بيد أخيه يوم لاينفع مال ولابنون وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . كتبه بيده الفقير على العزى المعروف بالمحلانى الشافعى مذهباً الأحمدى طريقة غفر الله له ولوالديه وأحسن إليهما وإليه وإلى جميع المسلمين آمين ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم"[(٢)] .

---

(١) اعتبر الدكتور عز الدين الامين هذه الاجازة هى الثانية من ضمن الاجازات التى منحت للفقيه أحمد بن محمد بن عيسى ولابنه محمد ولكن أعتبرها الأولى لأنها تحمل تاريخ سنة ١٢٦٧ هـ بينما بقية الاجازات لاتحمل تاريخاً أصلاً أو تحمل تاريخا بعد هذا.
انظر: د. عز الدين الامين : قرية كترانج وأثرها العلمى . مرجع سابق ص ٨٣.

(٢) انظر صورة هذه الاجازة فى ملاحق هذا البحث .

(هنا ختمه على العزى)[١]
١٢٦٧

تحليل هذه الاجازة :

طريقة الاجازات طريقة معروفة فى نظم التعليم الاسلامية وقد تحدث عنها القلقشندى باستفاضة فى كتابه صبح الأعشى • وهى نظام أشبه بنظام الشهادات العلمية التى تمنحها الجامعات والمعاهد لطلابها فى زماننا هذا•

وبالنظر لهذه الاجازة العلمية يمكن ملاحظة عدد من الملاحظات منها أن هذه الاجازة بدأت بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وهذه سمة موجودة فى كل الاجازات باعتبار أنّ كل أمر ذى بال لابد أن يبدأ بالبسملة والصلاة على النبى – ص – •
الملاحظة الثانية هى أن الطلاب هم الذين يطلبون هذه الاجازات من شيوخهم ويتضح ذلك من قول الشيخ (فقد استجازنى كل من أخينا الفاضل والهمام ••• الخ) •

ولكن الشيخ لايقوم باعطاء الاجازة إلا بعد أن يتاكد من اتقان الطلاب لعلومهم باعتبار أن هذا العلم أمانة •
الملاحظة الثالثة هى أن الشيخ يجيز فيما أجازه مشايخه من علم وبهذه الصورة يكون العلم منضبطا ومتسلسلا•
الملاحظة الرابعة تتعلق بأسلوب كتابة الاجازة الذى غلب عليه السجع وهو من أساليب تلك الفترة •

---

(١) يذكر الدكتور عزالدين الامين أن اسم هذا الشيخ هو الشيخ محمد العربى وليس العزى • انظر د• عزالدين الامين : تراث الشعر السودانى • مرجع سابق ص ٤٤•

من الملاحظات أيضاً أن هذه الاجازة لم تحدد علماً بعينه ولا كتابا باسمه وإنما جاء فيها (أجزت كلاً منهما بما تجوز لى وعنى روايته من معقول ومنقول) وربما يكون سبب ذلك أن الشيخ كان مشهورًا وبالتالى كانت المواد التى يقوم بتدريسها مشهورة ومعروفة كذلك .

فى نهاية الاجازة ذكر الشيخ مذهبه وطريقته واختتم ذلك بالدعاء له ولوالديه ولسائر المسلمين ثم الصلاة والسلام على رسول الله . وفى ذيل الاجازة وضع ختمه .

- الاجازة الثانية (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم والحمد منك وإليك ونصلى ونسلم على سيدنا محمد خير من دل عليك وعلى آله وصحبه الهادين والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين أمّا بعد فقد طلب منى الشيخ الفاضل والصالح والكامل الناجح الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى السنارى وولده العالم الفاضل محمد أن أجيز كلاً منهما بما تصح لى اجازته وصحت لى روايته من العلوم منقولها ومعقولها وقد اجتمع علينا كل منهما فى قراءتنا بالأزهر الأنور المعمور بذكر الله وسمع كل منهما منّا من العلوم منقولها ومعقولها فقلت أجزتهما بما صح لى وعنى وسمعاه منى على شروط الاجازة المقررة المشهورة فى بابها المحررة موصياً لهما بتقوى

---

(١) اصول هذه الاجازات موجودة بمكتبة جامعة الخرطوم وأورد نصوصها كل من عبد العزيز أمين عبد المجيد - تاريخ التربية فى السودان - مرجع سابق ج ٣ ص ٤٩-٥٥ و د. عز الدين الامين : قرية كترانج واثرها العلمى فى السودان - مرجع سابق ص ٨٩ ومابعدها.

الله العظيم وأن لاينسيانى فى خلواتهما وجلواتهما من صالح دعواتهما وعلى الله اعتمادى وهو حسبى وكفى وسلام على عباده الذين أصطفى قاله الفقير أحمد بن حمد كيوة العدوى حامداً مصلياً مسلماً .

(ختمه احمد بن على بن حمد كيوه المالكى)[1]

التعليق على الاجازة :

نفس الملاحظات السابقة يمكن ملاحظتها على هذه الاجازة مما يدل على أن أسلوب كتابة الاجازات فى الأزهر كان أسلوباً واحداً معروفا ومتداولاً حتى أن الباحث يلاحظ أنّ عبارات بعينها قد وردت فى الاجازتين معاً مما يجعلنى اعتقد بأنّ أحد الشيخين قد رأى اجازة الشيخ الآخر قبل أن يكتب هو اجازته ولو كانت الاجازة الثانية مؤرخة بتاريخ معين لاستطعت أن أحدد من من الشيخين رأى اجازة الشيخ الآخر . إنفردت الاجازة الثانية بوصية للفقيه أحمد وابنه بتقوى الله العظيم .

-الاجازة الثالثة :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلي الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم حمداً لمن فتح قلوب ذوى المعارف لفهم أسراره ونوّر بصايرهم (هكذا) بنور جلاله وكساهم حلل أنواره فهم الوارثون للعلوم من حضرة الرسول مع اقتفا (هكذا) آثاره والمغازون[2] منه ببث العلوم والمعارف فصح سندهم فى ذلك وتابعهم فى ذلك سالف وخالف . فالسعيد من تعلق بأزيالهم واقتفا (هكذا) آثارهم والا فهو تالف وصلاة وسلاماً على (على)[3] من قال علما (هكذا)

---

(١) انظر صورة الاجازة فى ملاحق هذا البحث .

(٢) لعلها المجازون .

(٣) زيادة فى الاصل .

أمتى كأنبيا (هكذا) بنى اسرائيل فكفى بذلك شرفاً ويا حبذا ذلك الفضل والتعظيم وعلى الآل والأصحاب والأتباع ذو الفضل الجزيل وبعد فلمّا كان السند من مهمات الدين وشأن (هكذا) الجهابذة المخلصين طلب أخونا العمدة الفاضل العلامة اللوزعى الفهامة الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى السنّارى وابنه الشيخ محمد أن أجيزهما بما تلقيته عن الجهابذة الأعلام على عادة المحيين فأجزتهما بذلك وإن كنت لست أهلاً لما هنالك ضارعاً إلى المولى الكريم أن ينفع [١] به المسلمين موصياً بالتقوى فانها السبب الأقوى وألا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه وأن لاينسانى فى صالح دعواته فى خلواته وجلواته وصلاة على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم الفقير الى الله تعالى أحمد ابو السعود الاسماعيلى المالكى الصعيدى المقيم بالأزهر عفى عنه .

(هنا ختمه أحمد الاسماعيلى) [٢]

التعليق على الاجارة :

تضمنت هذه الاجازة ماتضمنته الاجازات التى سبقتها وهى كذلك مثل التى سبقتها بدون تاريخ . ويلاحظ أن بعض كلماتها لم ترسم رسماً صحيحاً خاصة تلك التى تنتهى بهمزة على السطر كاقتفاء وعلماء وأنبياء حيث كتبت بدون همزة . كما أنّ بعض الكلمات فى الاجازة ساقطة مثل كلمة ينفع المشار اليها وفى نفس الوقت وكانت هناك كلمات زائدة فى الأصل مثل كلمة على كما شاهدنا .

---

(١) غير موجودة بالاصل .

(٢) انظر د. عزالدين الامين : قرية كترانج وأثرها العلمى . مرجع سابق ص ٨٣ – ٨٤ .

يلاحظ كذلك ان الاجازة كانت للشيخ أحمد وابنه إلا أن نهايتها كانت خطاباً لمفرد لا لمثنى (أن ينفع به المسلمين ٠ أن لايقدّم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه وأن لاينسانى من صالح دعواته فى خلواته وجلواته)٠

الاجازة الرابعة :

الحمد لله الواحد الأحد الفرد العلى الماجد الصمد والصلاة والسلام على الرسول السند سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أولى الاغاثة والمدد وبعد فلما كان الاسناد من الدين وقد جرى عليه السلف من المتقدمين والخلف من المتأخرين وقد قيل أنّ من لا سند له كاللقيط الذى لا أب له ، استجازنى العالم الفاضل والهمام الرحامة الكامل الأخ فى الله تعالى الشيخ أحمد إبن أحمد بن محمد بن عيسى الأنصارى السنارى وولده الشيخ محمد بما تجوز لى روايته فقلت فقد أجزت المذكور وولده بما فى هذا السند كما أجازنى به أشياخى العارفون والأيمة (هكذا) الهداة المحققون موصياً لهما بما أوصى به نفسى من تقوى الله العظيم والنصح لعباد الله المسلمين بمتابعة النبى الكريم ومن يتقى (هكذا) الله يجعل له من أمره يسرا ومن يتقى (هكذا) الله يكفرعنه سياته (هكذا) ويعظم له أجرا وله الحمد فى الأولى والآخرة والصلاة والسلام على سيدنا محمد وخلقنا باخلاقه الطاهرة ٠
كتبه راجى عفو الله الفقير محمد خير الله العدوى المالكى عفى عنه ٠
(هنا ختمه)(١) ٠

الاجازة الخامسة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم أما بعد

---

(١) انظر د٠ عزالدين الامين – قرية كترانج وأثرها العلمى ٠ مرجع سابق ص ٨٦٠

فقد أجزت الأخ فى الله الهمام الأمجد والامام المفرد أحمد بن محمد بن عيسى الأنصارى السنارى وولده الفاضل الكامل الشيخ محمد بجميع ماتجوز لى روايته أو تصح عنى درايته من فروع وأصول ومنقول ومعقول كما أجازنى بذلك أشياخى سيما بما حواه ثبت شيخنا الأمير عليه وعلى بقية أشياخى سحايب (هكذا) رحمة ربنا القدير متع الله الوجود ببقاء المجازين ونفع بهما فى الدارين وأحسن لنا ولهما وجميع أهل العصر من المسلمين . الختام بجاه الرسول الامام الفقير مصطفى المبلط الشافعى خادم العلم بالازهر .

(هنا ختمه)[1]

الاجازة السادسة :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد فقد أجزت الأخ فى الله الهمام الأمجد والامام الشيخ أحمد بن محمد ابن عيسى السنارى الأنصارى وولده الشيخ محمد فى جميع مايجوز لى روايته أو تصح عنى درايته من فروع وأصول ومنقول ومعقول كما أجازنى بذلك أشياخى سيما بما حواه ثبت شيخنا الأمير الكبير وولده سيدى محمد الصغير عليهما وعلى بقية الأشياخ رحمة ربنا القدير متع الله الوجود ببقاء المجازين ونفع بهما فى الدارين وأحسن لنا ولهما وجميع أهل العصر من المسلمين الختام بجاه الرسول الختام عليه أفضل الصلاة والسلام الفقير الى الله أحمد .

(هنا ختمه أحمد السنهورى)[2]

ويلاحظ فى الاجازتين الخامسة والسادسة تشابه الأسلوب حتى أن كثيراً من الكلمات تكاد تكون متطابقة .

---

(١) انظر د. عزالدين الامين : قرية كترانج وأثرها العلمى . مرجع سابق ص ٨٧.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

هذا بالنسبة للاجازات المشتركة بين الفقيه أحمد بن محمد بن عيسى وولده محمد ولكن توجد هناك اجازتان منفردتان لكل منهما من الشيخ عليش وتحمل كل واحدة منهما تاريخ سنة ١٢٦٨هـ وهما كمايلى :

(١) اجازة خاصة بالفقيه أحمد البدوى بـ الشيخ محمد بن عيسى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم الدين . أمّا بعد فيقول محمد عليش قد من الله تعالى على بصحبة الشيخ المبارك أحمد بن الشيخ/ابن محمد بن الشيخ أحمد[1] بن الشيخ عيسى السنارى المشهورين بالعلم والصلاح والبركة مدة مفيدة ومشاركتى فى كتب عديدة فى فنون من العلوم الفرعية وآلاتها ولمّا أراد العود إلى وطنه التمس منى الاجازة بها ظنّاً منه أنى من أهل ذلك وأنا متيقن أنى لست ممن سلك تلك المسالك ولكن جبر خاطره ورجاء بركته حملانى على اجابته فقلت أجزت أخى المذكور بما سمعه منى وغيره مما أجازنى به أشياخى ضاعف الله لهم الأجور موصياً له بملازمة التقوى فانها للفلاح السبب الأقوى وأن لا ينسانى من صالح دعواته فى جلواته وخلواته ضارعاً للمولى الكريم أن يمن علينا بالخير العميم وأن يجنينا من الفتنة والأهوال وأن يصلح لنا ولأخواننا الأحوال وأن يختم لنا بخاتمة السعادة وأن يجعلنا ممن لهم الحسنى وزيادة الذين دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين (٢) .

(هنا ختمه محمد عليش ٦٨) .

---

(١) : زيادة فى الاصل .

(٢) انظر قرية كتراهج واثرها العلمى . مرجع سابق ص ٧٧ .

اجازة خاصة بالفقيه محمد بن أحمد البدوى :

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدًا لمن أجاز مستجازه وشكرًا لمن أجاب من دعاه وأفازه فله الحمد على نعمه التى لاتحصى وله الشكر على مننه التى لاتستقصى سبحانه لا اله غيره ولا خير إلا خيره رب العالمين وبر للعاملين وهو أجل من أن يثنى عليه وإنما هى أعراض دالة على كرمه منحها لنا على لسان رسوله لنعيده بها على أقدارنا لا على قدره وصلاة وسلامًا على سيدنا محمد وآله وصحبه مدى الأبد أما بعد فيقول محمد عليش قد تفضل الله تعالى على بصحبة الشاب الصالح المبارك الشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن الشيخ أحمد[1] بن عيسى السنارى المشاهير بالعلم والصلاح والبركة مدة طويلة وشاركنى فى كتب كثيرة من فنون العلوم الشرعية ومايعين عليها وحين قصده الرجوع إلى بلده[2] طلب منى اجازه لحسن ظنه فأجبته وأجزته راجيًا البركة لى وله قائلًا أجزت اخى المذكور بما سمعه منى وغيره مما أجازنى به أشياخى ضاعف الله لى ولهم الأجور موصيًا له بملازمة تقوى الله وتقديمها على كل ماتميل اليه النفس وتهواه سائلًا المولى الكريم أن يفيض علينا خيره الجسيم وأن يوفقنا للعمل بما علمناه ويمن علينا بعلم ماجهلناه وأن ينجينا من الأهوال ويصلح لنا الأحوال وأن يمن علينا بحسن الختام بجاه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وعلى سائر النبيين والحمد لله رب العالمين[3] ..

(هنا ختمه - محمد عليش ٦٨)

---

(١) زيادة فى الأصل .

(٢) فى الأصل قصده ولكن المعروف أن الشيخ محمد لم يرجع الى بلده وانما بقى فى مصر إلى أن توفى .

(٣) انظر صورة الاجازة فى ملاحق هذا البحث .

هذه الاجازات تعكس المستوى العلمى الجيد الذى حازه الشيخ أحمد وولده الشيخ محمد الذى أوصله علمه لأن يصبح استاذاً بالازهر. ولاشك أنّ الشيخ أحمد وابنه ماهما إلا نموذجين لكثير من الطلاب السودانيين الذين هاجروا إلى الأزهر لتلقى العلم فى هذه الفترة .

...

ـ التعليم فى السودان فى عصر سعيد باشا :

كان محمد سعيد مثل عباس باشا فى عدم اهتمامه بالتعليم فى مصر والسودان على الرغم من علمه وثقافته وتأثره بحضارة أوربا. بل قام سعيد بقفل المدرسة الوحيدة التى أنشأها عباس في الخرطوم والتى كانت بداية للتعليم المنظم فى البلاد.

ولكن استمر الحكمداريون فى منح العطايا والمكافات للعلماء والأدباء والطلاب الامر الذى شجع الحركة العلمية ولكنها على كل حال تبقى حركة شعبية غير مرشّدة ولا موجهة .

شهد عصر عباس وسعيد نوعاً جديداً من أنواع التعليم وهو التعليم الكنسى الذى كان له بالغ الأثر فى مستقبل البلاد.

فأنّ محمد على باشا كان قد أصدر أوامره للولاة فى الخرطوم بتقديم كل عون للارساليات واعفائها من الضرائب . كما وافق سلطان تركيا العثمانى استجابة لرغبة الامبراطور فرانز جوزيف امبراطور النمسا على منح الارساليات التبشيرية فى السودان نفس الامتيازات والاعفاءات التى منحن للمبشرين النصارى فى سائر أرجاء الدولة العثمانية (١) . وهذه الامتيازات كانت قد

---

(١) انظر محمد عمر بشير : تطور التعليم فى السودان ـ مرجع سابق ص ٤٩.

منحت للدول الاوربية فى الدولة العثمانية فى طورها الأخير أيام ضعفها وتفككها .

وقد بدأ نشاط الارسالية الكاثولكية فى الخرطوم سنة ١٨٤٨ حينما وصل الأب لويجى منتورى[٢] وفتح مدرسة صغيرة لأبناء الجالية النصرانية بالخرطوم ثم أنشأ كنيسة ومقبرة . وتواصل هذا الجهد بوصول دفعات من المبشرين البيض الذين تعرضوا لنكبات المرض والموت فى وسط أفريقيا حيث أمر البابا باغلاق ارسالياتهم فى وسط أفريقيا وقرر بقاءهم فى الخرطوم[٢].

وقد كان القبول بمدرسة الأب ليوجى منتورى قاصراً على أبناء الكاثوليك المقيمين فى الخرطوم وأبناء الرقيق الذين حررتهم الحكومة .وكان التلاميذ يدرسون فيها القراءة والكتابة والانجيل [٣] .

وقد كتب الأب منتورى إلى ممثل البابا بأنه اعتزم فتح مدرستين إحداهما بمنطقة الشلك بالجنوب والثانية بين قبائل القالا فى شرق السودان على حدود أثيوبيا . وكان من رأيه أن يعلّم ويدرب نفر من هذه القبائل للمساعدة فى نشر النصرانية فى أفريقيا الوسطى . إلا أن الاب منتورى غادر السودان قبل تنفيذ مشروعاته وخلفه فى الاشراف على الكنيسة والمدرسة القس سبراسنت الذى ترك رعاية الارسالية والمدرسة فى عام ١٨٥٥م[٤] .

---

(١) قسيس من نابلى بايطاليا كان قد حكم عليه بالاعدام فى أثيوبيا ولكنه فر الى السودان .

(٢) انظر حسن مكى محمد أحمد : جزور وأبعاد التبشير المسيحى فى العاصمة المثلثة . المركز الاسلامى الأفريقى بالخرطوم شعبة البحث والنشر . كراسة رقم (١) ص ٥٤ .

(٣) انظر محمد عمر بشير : تطور التعليم فى السودان . مرجع سابق ص ٥٠ .

(٤) انظر المرجع السابق نفس الصفحة .

وتنفيذاً لمقترحات الأب منتورى وافق البابا جريجورى السادس عشر على إنشاء مركز للفاتيكان فى أفريقيا وأصبحت الخرطوم بمقتضى هذا المرسوم البابوى مركزاً لنشاط الارساليات الكاثولكية فى السودان . ونتيجة لهذه الجهود افتتحت مدرسة بالخرطوم التحق فيها أبناء الأقباط وأبناء الأوربيين الموجودين بالخرطوم إضافة إلى أبناء غير المسلمين من السودانيين وكان يدرّس فيها اللغات العربية والفرنسية والايطالية والحساب والموسيقى والأعمال اليدوية ، وقيل أن تلامذة هذه المدرسة قد بلغ عددهم فى وقت من الأوقات أربعين تلميذا جلهم من السودانيين . وكانت المدرسة تحظى بتأييد سلطات الحكومة ولم يعترض عليها الأهالى لأنه لم يكن يعنيهم من أمرها شيئاً إذ لم تفتح أبوابها لقبول أبناء المسلمين بل اقتصرت على ابناء المسيحيين (١) .

هذا وقد أرسل اثنان من تلاميذ هذه المدرسة الى مالطة لمواصلة تعليمهم بينما انخرط التلاميذ الآخرون الذين أكملوا تعليمهم فى المدرسة فى سلك العمل الحكومى (٢) . وقد اتسع النشاط التبشيرى فى السودان حتى شمل الجنوب حيث أسس مركزان فى غندكرو فى سنة ١٨٥٠م وفى كاكا سنة ١٨٦٢م ، إلا أنّ هذين المركزين لم يذكر لهما نشاط فى حقل التعليم (٣) .

هذا ماكان عليه امر التعليم فى عصرى عباس وسعيد وسنحاول فى الفصل القادم أن نتتبع حركة التعليم فى عصر الخديو اسماعيل .

...

---

(١) انظر محمدعمر بشير : تظور التعليم فى السودان . مرجع سابق ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٥١ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

الفصل الثالث

نظام التعليم في السودان

في الفترة من ١٨٦٣-١٨٨٥م

نظام التعليم فى السودان فى عصر اسماعيل :

ذكرت فى الفصل السابق أنّ عباس باشا بدأ فى السودان لأول مرة تعليماً منظماً وذلك بافتتاحه مدرسة الخرطوم التى أغلقت بعد عام واحد من افتتاحها . كما أشرت إلى أن سعيد باشا لم يهتم بأمر التعليم لا فى مصر ولا فى السودان على المستوى الرسمى . أما على المستوى الشعبى فقد استمرت المساجد فى أداء رسالتها واستمر طلاب العلم فى هجرتهم إلى الأزهر كما استمر العلماء والمشايخ فى نشر العلوم والمعارف على الراغبين فيها .

إلا أنّ أكبر نهضة شهدها التعليم فى السودان فى هذه الفترة كانت فى عهد اسماعيل وذلك فى اعتقادى ربما يرجع الى سببين :

(١) السبب الأول هو اتصال اسماعيل بأوربا ووقوفه على النهضة هناك وبالتالى محاولة جلب هذه النهضة لبلاده . وهذا الاتجاه لايمكن أن يتم إلا بنشر التعليم الحديث .

(٢) حرص اسماعيل الشخصى واهتمامه بالسودان وترقية سكانه ويظهر هذا الحرص ـ كما سبقت الاشارة ـ فى معظم المراسلات التى كانت تدور بين اسماعيل وولاته فى السودان .

ويمكن أن نشاهد آثار هذه النهضة التعليمية على المستويين الرسمى والشعبى .

أولاً : على المستوى الرسمى :

فى عام ١٨٦٤م طلب موسى حمدى حكمدار السودان من الخديو اسماعيل أن يوافق على تعليم أبناء العمد والمشايخ القراءة والكتابة وذلك للاستعانة

بهم بعد اتمام دراستهم فى دواوين الحكومة وكان اسماعيل قد وافق على فتح مدرسة الخرطوم لتعليم أبناء السودان واشترط أن تضم المدرسة خمسمائة تلميذ (١) .

كما طلب هذا الحكمدار من الخديو ترتيب راتب شهرى مع كمية من الذرة لبعض الزوايا التى يتلقى فيها الطلاب العلم وقد رد الخديو على طلبه بالخطاب التالى :

من المعية إلى حكمدار السودان موسى حمدى

فى ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٠ هـ الموافق ٢٧ مارس ١٨٦٤م

" قد اطلعنا على المكاتبة العربية الواردة منكم رقم ٧ بتاريخ ١٨ رجب سنة ٨٠ التى تطلبون فيها ترتيب مرتب ٧٥ قرشاً وأردباً من الذرة ، شهرياً إلى الزاوية التى بناها الشيخ مصطفى ابراهيم الأصوانى أحد الفقراء المتوطنين فى بربر بناءً على التماسه ترتيب مبلغ بصفة إعانة حيث أنّ تلك الزاوية محضرة لتعليم القرآن والعلوم الدينية وينتسب لها أثنان وعشرون نفراً لتلقى العلوم الشريفة والتى تذكرون فيها أنّ المساجد الشريفة الكبيرة الموجودة بالسودان مرتب لها مرتبات لغاية ٢٥٠ قرشاً وأربعة أرادب بصفة احسان من الحكومة إعانة لها لمعيشة الفقراء (٢) وبما ان أملنا الوحيد هو قيام الشعب بتحصيل العلوم وتعلمها وصلاح حالهم ودخولهم إلى سبيل المدنية بتعلم القراءة والكتابة وحيث أن إنشاء مثل هذه الزوايا والأعمال الخيرية ممّا يستوجب سرورنا نأمر بتوسيع زاوية الشيخ مصطفى ابراهيم وتجديد

---

(١) انظر د. السيد يوسف نصر : الوجود المصرى فى أفريقيا – مرجع سابق ص ٢٧٦ .

(٢) يعنى الطلاب المنقطعين لتلقى العلم .

بنائها لتكون مثل الزوايا الأخرى بالسودان على نفقة الحكومة واحتساب المصاريف وخصمها من الاحسانات على جانب الديوان ، ونأمر أيضاً بصرف ٢٥٠ قرشاً شهرياً إلى ما شاء الله وكذلك صرف أربعة أرادب شهريا بصفة احسان للزاوية المذكورة لفقراء الأهالى الذين سيقصدونها لتعلم القرآن والعلوم الشريفة أسوة بالمساجد الكبيرة . فنأمركم بتنفيذ ذلك كما أننا نطلب منكم عناية كبيرة بتعليم القرآن وتدريس العلوم للأهالى فى مقابل هذا الالتفات السامى"(١) .

وهذا الخطاب يعتبر من أكبر الدلائل على حرص اسماعيل على نشر التعليم فى بلاد السودان ، إذ أنّ حكمدار السودان وصاحب الزاوية المذكورة قد طلبا مبلغ ٧٥ قرشا فقط وأردباً واحداً من الذرة ولكن حرص الخديو على نشر العلم جعله يرفع المبلغ إلى مائتين وخمسين قرشاً كما أنه رفع أردب الذرة إلى أربعة أرادب .

ويزيد الخديو من اهتمامه بالتعليم فيأمر بفتح خمسة مدارس ابتدائية دفعة واحدة بدلاً من مدرسة واحدة تكون فى الخرطوم وذلك بغرض نشر التعليم فى أكبر مساحة ممكنة من البلاد السودانية وقد رؤى أن تكون هذه المدارس فى مدن الخرطوم ، بربر ، دنقله ، كردفان ، والتاكة . وقد جاء فى خطاب اسماعيل للحكمدار بهذا الشأن مايلى : " وحيث أن تأسيس خمس مدارس فى المديريات المذكورة لنشر وتعميم العلوم والمعارف والحضارة على الوجه المشروع موافق لنفس المصلحة ، بناءاً عليه بادروا إلى اجراء ايجابه واسعوا فى تعليم سكان الجهات المذكورة وتقدمهم بأحسن وجه "(٢).

---

(١) عابدين - المعية دفتر ٥٢٩ تركى رقم ٢ ص ١١٧ نقلا عن د. محمد فؤاد شكرى - الحكم المصرى فى السودان . مرجع سابق ص ٣٠٥.

(٢) مكى شبيكه : السودان عبر القرون. مرجع سابق ص ١٤٣.

وقد زودت هذه المدارس بما يلزمها من الكتب والأدوات المكتبية وغيرها .وقد خصت مدرسة الخرطوم بخمسين كتاباً من كل صنف من أصناف الكتب المقررة وزودت المدارس الأخرى بخمس وعشرين كتاباً من كل صنف .كما زودت هذه المدارس بالمدرسين اللازمين للتدريس [١] .وكان كل واحد منهم يتقاضى مبلغ شهرى قدره ألف قرش . أمّا العمال فقد كان العامل يتقاضى مبلغ خمسة وثلاثون قرشاً [٢] .

وقد كانت هذه المدارس تحت الاشراف الفنى لديوان المدارس بمصر ، وتتبع خطط الدراسة المتبعة فى المدارس المصرية وقد اختير بعض خريجى هذه المدارس لاتمام تعليمهم بمدارس التلغراف والهندسة والطب والصيدلة ، والمدارس الفنية بمصر [٣] .

وقد بلغ عدد الطلاب الذين كانوا يتلقون تعليمهم فى مدرسة الخرطوم ١٢٤ طالباً و ٧٥ طالباً فى جميع المدارس الأخرى [٤].

والمناهج التى تدرس فى هذه المدارس اللغة التركية وفى بعضها اللغة الفرنسية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ كما كان يدرس فيها علماء من الأزهر علوم اللغة العربية والدين كشرح الكفراوى وشرح الشيخ خالد أو شرح الأزهرية وشرح ابن عقيل على الفية ابن مالك . بالاضافة إلى تعليم الخط ، الذى عنى به عناية خاصة ، حتى أنّ الطالب لاينجح إذا رسب فيه . ويمكننا من ذلك أن ندرك المستوى الرفيع الذى بلغته تلك المدارس [٥] .

---

(١) وزع هؤلاء المدرسين على المدارس كالتالى : محمود شاكر أفندى بمدرسة الخرطوم ، حافظ محمد على الخربوطلى بمدرسة دنقله ، محمد أفندى يوده بمدرسة بربر ، حافظ خليل أفندى بمدرسة التاكة ، اسماعيل يوسف افندى بمدرسة كردفان.

(٢) انظر د.السيد يوسف نصر: الوجود المصرى فى أفريقيا، مرجع سابق ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٣) انظر شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ج٢ مرجع سابق ص١٤٣.

(٤) انظر د.محمد عمر بشير: تطور التعليم فى السودان . مرجع سابق ص ٤٢.

(٥) انظر محمد سليمان :دور الأزهر فى السودان مرجع سابق ص ٥٧.

وكان من يتخرج فى هذه المدارس من الطلبة يستوعب فى الوظائف فى دواوين الحكومة للمساعدة فى الادارة والكتابة ومن أراد منهم أن يواصل تعليمه يلتحق بالمدرسة التجهيزية فى مصر (١) .

" وكان نظام الدراسة فى هذه المدارس ينقسم إلى قسمين : قسم خارجى وهو بالمصروفات التى تبلغ قيمتها الشهرية ريال مجيدى لكل تلميذ (أى ستة عشر قرشاً) وقسم داخلى وكانت الدراسة فيه بالمجان. وبعد التخرج كان تلاميذ القسم الداخلى يعينون فى وظائف كتابية فى السلكين العسكرى والادارى بينما كان تلاميذ القسم الخارجى يخيرون بين التوظيف والأعمال الأخرى وكان تلاميذ هذه المدارس من أبناء المصريين المقيمين بالسودان ومن أبناء جنود الجهادية والمشايخ والعمد" (٢) .

هذا وقد كان جعفر باشا مظهر حكمدار السودان محباً للعلم والأدب فاجتمع حوله كثير من العلماء والأدباء الذين كسبوا عطفه . ونالهم حظ من رعايته واهتمامه . فخلق هذا الاهتمام وسطاً أدبياً علمياً فى أيامه وزاد من الصلة الثقافية بين مصر والسودان واخذ أدباء السودان وشعراؤه يرسلون أعمالهم الأدبية لنشرها فى الوقائع المصرية بالقاهرة "(٣) .

وقد كتب هذا الحكمدار إلى مصر يطلب الموافقة على إرسال بعثات من الطلاب السودانيين الذين يحفظون القرآن وممن حصلوا على بعض مبادىء الفقه والتحقوا للدراسة بالأزهر الشريف لمدة ثلاث سنوات يعودون بعدها لأهلهم رسل ثقافة دينية سليمة ودعاة دين قويم (٤) .

---

(١) انظر د. ابراهيم الجاردلو ـ الرباط الثقافى بين مصر والسودان . مرجع سابق ص١٥ .

(٢) د. السيد يوسف نصر : الوجود المصرى فى أفريقيا ١ مرجع سابق ص ٢٧٨ .

(٣) انظر د. ابراهيم الجاردلو. نفس المرجع ونفس الصفحة .

(٤) انظر محمد سليمان :دور الأزهر فى السودان . مرجع سابق ص ٥٦ .

وقد رد عليه الخديو بالخطاب التالى :

من المعية إلى حكمدار السودان جعفر باشا مظهر

فى ٥ شعبان سنة ١٢٨٤ (٢ ديسمبر ١٨٦٧م)

فقد عرضنا على أعتاب ولى النعم إفادتكم المفصلة الواردة هذه المرة بتاريخ ١٧ رجب سنة ٨٤ الوارد فيها أنه بناءاً على أمر الجناب العالى الخاص بلزوم تشويق وترغيب الأشخاص المسلمين بعلوم الفقه والنحو من أهالى السودان فى الحضور إلى الجامع الأزهر وملازمتهم الاقامة فيه مدة سنتين أو ثلاث سنوات لتكميل علومهم وهذا لأجل نشر وتعليم أصول أحكام الشريعة والديانة فى الأقطار السودانية حيث أنه يندر وجود العلماء والفقهاء فيها - بناءً على ذلكم الأمر قد أحضرتم معكم هذه المرة نجلى المرحوم الشيخ عمر قاضى عموم مديرية التاكة وذهبتم بهم إلى جامع الأزهر وحيث اعاشتهما برغيف واحد فقط الذى هو المرتب الوحيد لطلاب الجامع المذكور سيؤدى إلى نفورهما كما أنه سيوجب كسر رغبة أمثالهما فى المجىء إلى مصر . لذلك رأيتم من اللائق تخصيص مرتب يومى بمبلغ قرشين لكل منهما ليكون مداداً لمعيشتهما . وحيث أنّ الجناب العالى وإن كان وافق على تخصيص مرتب يومى بمبلغ قرشين لكل من الشخصين المذكورين حسب التماسكم إلا أنه أصدر نطقه الكريم بلزوم صرف هذه اليوميات من إيرادات الأقاليم السودانية "(١)

كما التمس الحكمدار جعفر مظهر كذلك زيادة المرتبات لمعلمى المدارس الابتدائية فى السودان وقد جاء رد الخديو كالتالى :

إلى حكمدار السودان فى ١٨ ربيع الاخر سنة ١٢٨٧ (١٨ يوليه ١٨٧٠م)

أمر منطوقه لقد علم لدينا من افادة سعادتكم المؤرخة ١٤ ربيع الأول سنة ٧٨ هـ نمرة (١) أن تلاميذ المدارس الأميرية التى بمراكز مديريات

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى - الحكم المصرى فى السودان - مرجع سابق ص ٣٠٦.

السودان تقدموا فى الكتابة والقراءة حتى أن بعضهم ألحق بعملية التلغراف والبعض استحصل على الكتابة الديوانية والبعض جارى تعليمه فن الهندسة ولمناسبة أن الماهيات المرتبة لكل من الخوجات [(١)] - مايتين وخمسين قرش مكفى والنظار فنهم لغاية خمسماية قرش وتكرر منهم التماس مكافآتهم على خدماتهم فلهذا وكونهم الجميع يستحقوا الزيادة فقد أوعدتهم[(٢)] بها واستحسنتم أن تكون العلاوة للخواجات من ثلاثمائة قرش لغاية خمسماية قرش بحسب استعداد ووظائف كل منهم وماية قرش على ماهيات النظار وأردب ، واحد ذرة لكل من الخوجات والنظار لبذل مجهودهم والتقائهم لأداء وظائفهم لآخر مافى الافادة ، وقد حصل لنا غاية الممنونية من أولئك التلامذة لما يستلزم على هذا من انتشار المعارف بالجهات السودانية وانتظام أهاليها فى سلك التمدن كما هو أقصى آمال الحضرة الخديوية . وعلمنا أن هذا ناشئ على حسن مساعيكم الخيرية .وبذل مجهود الخوجات فى حركة التعليم وقيام النظار بأداء واجبات الضبط والربط وحيث أنهم بهذا صاروا يستحقون المكافأة على حسن صنيعهم فقد وافق لدينا ما استحسنتموه من علاوة الماية قرش شهرى على ماهية كل من النظار واجعال ماهية الخوجات من ثلاثمائة قرش إلى خمسماية قرش بحسب ماتروه فى استعداد كل منهم ووظيفته مع ترتيب وصرف أردب الذرة فى كل شهر لكل من النظار والخوجات المذكورين ومع هذا يصير تفهيمهم بأننا مسرورون من قبلهم وأنهم إذا استداموا على ماهم عليه من حالة الاجتهاد وصرف الأفكار فى التعليمات مازال تحصل

---

(١) الخوجات يقصد بها المعلمين .

(٢) هكذا والصحيح ان يقول وعدتهم بها .

لهم المكافات وحسن الالتفات ولهذا لزم اصداره لسعادتكم للمعلومية (١)".

هذا وقد كانت هذه المدارس تكلف الحكومة المصرية الكثير من الأموال فقد بلغت تكاليف مدرسة الخرطوم الشهرية ٨٣٤٦/٤٠ قرشاً وتكاليف مدرسة كردفان بما فى ذلك مرتبات المدرسين ومعيشة التلاميذ ٢٩١٣/٧٢ قرشاً وتكاليف مدرسة بربر ٢٨٧١ قرشاً وتكاليف مدرسة دنقله ١٢٨٧ر١ قرشاً كما بلغت تكاليف مدرسة التاكة ٢٩١١ قرشاً وبلغت التكلفة الاجمالية الشهرية لهذه المدارس ٢٩٩١٣ قرشاً تقريباً (٢) .

كذلك أحدثت الادارة المصرية فى السودان شبكة لخطوط التلغراف بين الخرطوم والأبيض وفازوغلى والكوة وبربر وكسلا وسواكن وغيرها من مدن السودان (٢) .

وكان لابد لهذه الشبكة من فنيين فى التلغراف يقومون بأمرها ولذلك أنشئت مدرستان فى كل من الخرطوم وكسلا لتعليم التلاميذ من خريجى المدارس الابتدائية فى التلغراف وكان يشرف على هؤلاء التلاميذ أحد المهندسين ووكيل تلغراف كل جهة وبعد أن ينهى هؤلاء التلاميذ تدريباتهم فى تعلم فن التلغراف ينقسمون إلى ثلاث فئات حسب مستواهم العلمى فيقسمون إلى تلغرافجى أول وثانى وثالث ، وقد عمل هؤلاء التلاميذ بعد تخرجهم فى محطات التلغراف السودانية ، وإلى جانب تعلمهم فن التلغراف تعلم البعض منهم فن الهندسة والحساب فكانوا يلحقون أيضاً بترسانة الخرطوم البحرية وكانوا يمكثون بها عدة شهور وبعدها يوزعون للعمل على السفن التى تعمل فى النيل والبحر الأحمر (٣) .

---

(١) انظر د. السيد يوسف نصر الوجود المصرى فى أفريقيا . مرجع سابق ص ٢٧٨.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول شبكة التلغراف فى السودان فى هذه الفترة انظر الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فى أفريقيا . مرجع سابق ص ٢٩١.

(٣) انظر د. السيد يوسف نصر . المرجع السابق ص ٢٧٩.

هذا وقد أنشأ محافظ سواكن والبحر الأحمر مدرسة ابتدائية في سواكن للمحررين من العبيد بسبب عدم انصهارهم في المجتمع وعدم تقبل المجتمع في ذلك الوقت لاندماجهم فيه (١) .

واضافة إلى هذه المدارس طلب حكمدار السودان من الصاغ محمد شكري أحد الاطباء الذين يعملون بمستشفى الخرطوم أن يقوم بتعليم عدد من التلاميذ من خريجي المدارس الابتدائية مهنة الطب وقد أبدى هذا الطبيب استعداده للقيام بهذه المهمة ولكن لما عرض هذا الأمر على الخديو اسماعيل رفض ذلك بحجة أن مهنة الطب تحتاج إلى وقت طويل من التعليم ووعد بأنه سوف يرسل أطباء من مصر للسودان (٢) .

ويذكر الدكتور شوقي الجمل أنه قد أنشئت بعض المدارس لتدريب السودانيين على الصناعات الصغيرة المختلفة ، وبعض هذه المدارس كانت تعلم الصبية في الصباح بينما يؤمها الكبار في الليل لدراسة القرآن الكريم . كما يضيف كذلك أن ممتاز باشا عندما شعر بالحاجة إلى ميكانيكيين لادارة الماكينات الخاصة بمحالج القطن أرسل عدداً من الشباب السودانيين إلى مصر لتعلم الصناعات الميكانيكية (٣) .

هذا وقد وضع مشروع لفتح مدرسة صناعية في جنوب السودان ليستفيد منها الأهالي في تعليم أبنائهم تعليماً مهنياً فضلاً عن تعليمهم اللغة العربية والدين الاسلامي . كما وضع مشروع متكامل لفتح مركز لتطوير المجتمع

---

(١) انظر محمد عمر بشير : تطور التعليم في السودان . مرجع سابق ص ٤٥ .

(٢) انظر د. السيد يوسف نصر – الوجود المصري في أفريقيا – مرجع سابق ص ٢٧٩ .

(٣) انظر د. شوقي الجمل : تاريخ سودان وادي النيل . مرجع سابق ص ١٤٣ .

فى أدفو بالقرب من القاهرة ليلتحق به حوالى مائة وعشرين طالباً سودانياً على أن تتراوح أعمارهم من اثنتى عشر سنة إلى خمسة عشر سنة على أن يقبل مئتى طالب كل عام • وأن يسكن الطلاب فى مشروع زراعى وأن يتلقوا تعليماً أوليا وتدريباً عملياً فى الزراعة • وكان المشروع يتضمن دراسة مبسطة للاقتصاد والتدبير المنزلى وتربية الأطفال • وكان يهدف أساساً لمد السودان بمزارعين متعلمين وذوى خبرة إلا أنّ هذه المشروعات لم تر النور(١) •

كذلك تشير بعض المراجع إلى أنّ بعض التلاميذ الذين ذهبوا إلى مصر قد التحقوا بمدرسة المبتديان وذلك ليتعلموا العلوم الزراعية وبعض العلوم الأخرى وكان بعض الذين التحقوا بمدرسة المبتديان من كبار السن والبعض الآخر من صغار السن ويبدو أنّ كبار السن كانوا لايتقدمون فى دراستهم ولمّا علم اسماعيل بعدم تقدمهم فى الدراسة قرر أن ينهى دراستهم وأن يلحق أقوياء البنية منهم بالجيش • أما ضعاف البنية فيلحقون بالحرف والصناعات الأخرى(٢) •

ذكرت سابقاً(٣) أن الحكومة المصرية سمحت للبعثات التبشيرية بممارسة نشاطها فى السودان كما أن الحكومات الأوربية حصلت على إذن بذلك للبعثات التبشرية من السلطان العثمانى باعتبار أنّ السودان جزءً من الأراضى العثمانية وبالتالى يحق للأوربيين التمتع بالحقوق والامتيازات التى أعطتها لهم الدولة العثمانية فى أيام ضعفها وقد ذكرت فيما سبق

---

(١) انظر د• محمد عمر بشير : تطور التعليم فى السودان • مرجع سابق ص ٤٥-٤٦•

(٢) انظر د• السيد يوسف نصر – الوجود المصرى فى أفريقيا • مرجع سابق ص ٢٨٠•

(٣) انظر فصل نظام التعليم فى تهدى عباس وسعيد•

المحاولات التى قامت بها البعثات لنشر نوع من التعليم الخاص بها. ولقد ساعد الحكام الأجانب الذين عملوا فى السودان هذه البعثات فى مهامها وخاصة الانجليزى غردون الذى كتب فى سنة ١٨٧١م لمجلس الكنيسة الاسقفية فى إنجلترا داعياً إياها للقيام بنشاط تبشيرى فى المناطق الاستوائية (١).

وكان من أكبر المبشرين فى تلك الفترة فى السودان الأب دانيال كميونى (٢) الذى عمل فى السودان منذ سنة ١٨٥٧م وكان يرى أن اعتناق الأفارقة للمسيحية لايمكن أن يتم إلا بقسس من بنى جلدتهم يتعلمون تعليماً خاصاً . وقد نشر هذا الرأى فى كتيب صغير سنة ١٨٦٤م وفى عام ١٨٦٧م أسس معهدان للتبشير المسيحى فى فيرونا بايطاليا وكان أولهما معهد ملاذ السود يقوم بتعليم وتدريب القسس للتبشير فى أفريقيا وثانيهما هو معهد الأمهات الصالحات لتدريب الراهبات لنفس الغرض كما أسس دانيال كميونى معهدين آخرين لنفس الغرض فى القاهرة (٣) .

وقد أرسل الاب كميونى ثلاثة سودانيين من الجنوب إلى معهد فيرونا بايطاليا كما أرسل ثمانية عشر امرأة إلى معاهد القاهرة لتلقى التدريب هناك . كما أنشا الأب كميونى مركزاً تبشيرياً بالجنوب وفتح مدرسة مهنية بالأبيض وقد بلغ عدد طلابها فى سنة ١٨٧٦م أكثر من مائة وخمسين طالباً درسوا مختلف المهن . وفى سنة ١٨٨١م اعدت مزرعة كبيرة فى جنوب الأبيض كانت تعيش فيها حوالى ثلاثمائة أسرة وكان أفرادها يدربون على الأعمال الزراعية .

---

(١) انظر د.محمد عمر بشير : تطور التعليم فى السودان . مرجع سابق ص ٥٣.

(٢) مبشر إيطالى توفى بالخرطوم سنة ١٨٨١م ودفن بها.

(٣) انظر محمد عمر بشير . المرجع السابق ص ٥٤.

كذلك أسست مدرستان تبشيريتان فى بربر وسواكن . كما بلغ عدد طلاب مدرسة الخرطوم الكاثوليكية فى سنة ١٨٧٧م مائتين من البنات ومن الطلاب ثلاثمائة معظمهم من السودانيين .

ونتيجة للنجاح الملحوظ الذى حققه دانيال كميونى فقد طلب منه غردون باشا وجس وأمين باشا أن يعيد إنشاء وتنظيم التعليم التبشيرى فى جنوب السودان (١) .

إلا أنه يجب أن نذكر فى هذا المقام أن قدرًا من اللغة العربية والتعليم الاسلامى قد إنتشرت فى الجنوب فى هذه الفترة بسبب امتداد الادارة المصرية إلى هناك . وبسبب نشاط التجار الشماليين كالزبير باشا وغيره وفى هذا الصدد يقول الأستاذ حسن مكى "ومايهم أن جهود الزبير أدت إلى استتباب الأمن وازدهار التجارة مما أدى بدوره إلى تقوية إنتشار الاسلام واللغة العربية كما لعب المجندون الجنوبيون فى جيش الزبير باشا دورًا بارزًا فى نشر اللغة العربية ، لأن ولاء هؤلاء ظل يتنقل عبر الحكام والمغامرين بعد إبعاد الزبير فعملوا مع غردون وأمين باشا وجسى وعدد هؤلاء ليس بقليل إذ فى الجيش الاسلامى الذى كونه الزبير بلغ عدد الجنوبيين إثنا عشر ألف عسكرى" (٢) .

إلا أنه يعلق على دخول الاسلام واللغة العربية إلى الجنوب بقوله : " وهكذا نرى أن دخول الاسلام والعربية فى جنوب السودان حدث أبان انحطاط الدولة الاسلامية وضعف كيانها إذ افتتح الجنوب على العالم الاسلامى فى

---

(١) انظر محمد عمر بشير : تطور التعليم فى السودان . مرجع سابق ص ٥٤ .

(٢) حسن مكى محمد احمد : السياسة التعليمية والثقافة العربية فى جنوب السودان ، مرجع سابق ص ١٢ .

القرن التاسع عشر حينماكانت الخلافة العثمانية تتهاوى أمام ضربات الأوربيين كما أن الاسلام الرسمى الذى دخلالسودان إنماكان إسلام العلمانيين الذى يقوم على فصل الدين عن الدولة ، ويعد محمد علىأول أبطاله فى العصر الحديث كما أن ممثلىالدولة التركية فى جنوب السودان جلهم من المسيحيين لذا فان الاسلام الذى دخل الجنوب إنما جاء نتيجة للجهد الشعبى والاتصال الحضارى العضوى (١).

ـ وظيفة الافتاء ودورها فىنشر العلم الشرعى :

عندما تم تعيين مفتى عام للسودان فى الخرطوم وتعيين مفتيين فى المديريات قام هؤلاء المفتون بدور كبير فىنشر العلم الشرعى الاسلامى واللغة والأدب حيث كان اتصالهم بالجمهور اتصالاً مباشراً.

هذا ويشير كثيرمن الباحثين إلىازدهار اللغة العربية وعلومها فى هذه الفترةوذلك نتيجة لوجود المدارس التى أكسبت العقول ثقافة ونضجاً انعكس على شعر الشعراء ومن أمثلة ذلك القصائد التى قيلت فى مدح محمد رؤوف حكمدار السودان والتى قيلت بمناسبة الاحتفال بامتحانات مدرسة الخرطوم فى ١٨ من شعبان سنة ١٢٩٧ هـ الموافق سنة ١٨٨٠م وكان الحكمدار قد حضر ذلك الاحتفال وألقيت القصائد من قبل الطلاب والمدرسين (١) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٣-١٤.

(٢) انظر د. عزالدين الامين ـ تراث الشعر السودانى ـ مرجع سابق ص ٤٨.

هذا وقد سبقت الاشارة إلى اهتمام الحكمدار جعفر باشا مظهر بالعلم والأدب والتفاف العلماء والادباء حوله وتشجيعه لهم حيث أنهم أصبحوا يرسلون انتاجهم إلى القاهرة لنشره فى الصحف المصرية ٠

أمّا على المستوى الشعبى فقد استمر الطلاب فى هجرتهم الى أرض الكنانة للتزود بالعلم وبعد عودتهم إلى ديارهم يقومون بنشره ومن أمثلة هؤلاء الشيخ أحمد الازهرى(١) الذى ذهب الى مصر وقضى بها فترة طويلة وأصبح من أساتذة الأزهر ثم رجع إلى بلاده حيث قصده الطلاب من أماكن بعيدة(٢).

كما استمرت المساجد فى أداء رسالتها من تحفيظ للقران ونشر لعلوم الشريعة ومن المساجد التى عمرت فى هذا العهد مسجد الخرطوم، الجامع الشريف بدنقلة ، الجامع العتيق بالأبيض ، مسجد سنّار ، مسجد قرية عبود بالجزيرة ، مسجد المسلمية ،مسجد مروى مسجد،طوكر والمساجد التى بنيت فى سواكن وغيرها(٣) ٠

وبهذه المناسبة نذكر أنّ ممتاز باشا عندما كان حكمداراً على السودان أوقف صرف المكافات والاعانات التى كانت تعطى للعلماء بحجة ضبط وتنظيم الميزانية (٤) ٠ وأعيد صرف هذه المكافات والاعانات الا أنّ غردون باشا قد أوقفها بعد تعيينه حكمداراً عاماً على السودان ٠

---

(١) انظر ترجمته فى النظام القضائى ٠
(٢) انظر تطور القضاء فى السودان - مرجع سابق ص ١٠٢٠
(٣) انظر د٠ شوقى الجمل - تاريخ سودان وادى النيل ج٢ مرجع سابق ص ١٤٥٠
(٤) انظر الشاطر بصيلى عبد الجليل - معلم تاريخ سودان وادى النيل ، مرجع سابق ص ٢٧٢٠

هذا ماكان عليه أمر التعليم في السودان في عهد الخديو اسماعيل والباحث المنصف يلمس نهضة وتطوراً في مجال التعليم في السودان في هذه الفترة وقد أشاد بهذه النهضة التعليمية عدد من الكتاب السودانيين منهم محمد أحمد الجابري في كتابه في شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله حيث يقول : ولم تقتصر نهضة السودان على النواحي الاقتصادية والاجتماعية فحسب بل شملت هذه النهضة الناحية الفكرية فكان عهد التركية السابقة (١) فتحاً جديداً في تاريخ الفكر السوداني إذ استيقظ الفكر السوداني في ذلك الوقت من سباته فتحرر من كابوس الخيالات الأولى التي تشبه هذيان المرض وأوهام الاطفال ونفض عن نفسه ماكان يساوره من فزع وهلع ازاء مشاهد الطبيعة وأحداثها.

" فبفضل انتشار التعليم وإنشاء المدارس ودراسة العلوم الفقهية والرياضية وبفضل تعيين الأهالي في وظائف الحكومة الادارية وبفضل ارسال البعثات للخارج صارت تتسابق الناس إلى دور التعليم والانتساب إلى العلماء والفقهاء "(٢) .

وممن أشاد بهذا الجهد من الكتاب المصريين الدكتور شوقي الجمل إلا أنه راى عليه بعض المآخذ منها أن هذا التعليم لم يكن سائراً على خطة معلومة كما أنّ هذا التعليم لم يصبغ بالصيغة الدينية "(٣) .

---

(١) سبق أن اشرت إلى ان كثير من الكتاب يطلقون على هذه الفترة فترة التركية السابقة . انظر فصل النظام الاداري .

(٢) محمد أحمد الجابري : في شأن الله – مرجع سابق ص ٣٨-٣٩.

(٣) انظر د. شوقي الجمل : تاريخ سودان وادي النيل ج ٢ مرجع سابق ص ١٤٦.

ويمكن لى من خلال هذا الاستعراض أن أسجل الملاحظات التالية :

(١) إنّ التعليم خلال فترة اسماعيل شهد نهضة كبيرة على المستويين الرسمى والشعبى وفى جميع المجالات تقريباً بالنسبة لما كان عليه قبل هذه الفترة .

(٢) هذه النهضة التعليمية والتوسع فى افتتاح المدارس لم توضع لها سياسة واضحة تحكم مسارها وتحدّد أهدافها مثلما كان فى مصر وإنما كان الأمر متروكاً لمبادرات الحكام وتوجهاتهم .

(٣) كانت هذه الفترة هى بداية الفصام فى السياسة التعليمية والتى استمرت إلى اليوم حيث جعلت مؤسسات التعليم المدنى موازية لمؤسسات التعليم الدينى وكانت هذه التجربة منقولة من التجربة المصرية ومن الآثار السيئة لهذه التجربة ظهور العلمانية فى مجال التعليم والتى مايزال التعليم فى السودان يعانى منها .

ولو قامت الادارة فى السودان بتوحيد التعليم المدنى والشرعى لكان السودان فى غنى عن المشكلات التى يعانى منها اليوم . ولكن الذى حدث هو أن المدارس المدنية مثلما هو فى مصر - تخرج أجيالاً لاصلة لها بالدين إلا نادراً وأنّ المدارس والمعاهد الدينية تخرج أجيالاً تفتقر إلى العلوم العصرية مما أحدث ثنائية سيئة فى بنية المجتمع الواحد .

(٤) سمحت الدولة للمؤسسات التبشيرية بانشاء تعليم كنسى كان له أثر سلبى على أبناء المسلمين . كما أنّ هذه المؤسسات التبشيرية ظلت تنفث سمومها ضد الاسلام وحضارته عبر مدارسها ومؤسساتها التعليمية كما أوجدت هذه المؤسسات شريحة من المتعلمين غربية الولاء أحدثت شرخا واسعاً فى المجتمع السودانى المسلم .

وهذه الطريقة السيئة التى اخطتها الادارة المصرية بالسماح للمؤسسات التبشرية بانشاء تعليم خاص بها ماتزال قائمة الى اليوم • وهذه المؤسسات التعليمية الكنسية لاتخضع لنظام التعليم فى الدولة وبعد أن كانت فى الماضى قاصرة على أبناء النصارى أصبح يدرس بها اليوم قطاع كبير من أبناء المسلمين •

ومما يجدر ذكره فى خاتمة هذا الفصل أن جميع المؤسسات التعليمية التى أنشئت خلال هذا العهد قد توقفت أبان فترة المهدية ، واستأنف بعضها نشاطه بعد ذلك •

•••

الباب الثالث

نظام القضاء

ويحتوي على :-

١- نظام القضاء في السودان من ١٨٢٠ - ١٨٤٨م
٢- نظام القضاء في السودان من ١٨٤٩- ١٨٨٥م

الفصل الأول

نظام القضاء في السودان

في الفترة من ١٨٢٠ - ١٨٤٨م

- تمهيـــد :

سأتحدث في بداية هذا الفصل عن النظم القضائية التي كانت سائدة في الممالك السودانية قبل ضمها إلى ادارة محمد على باشا ، وذلك حتى يتسنى لنا مقارنة هذه النظم بالنظام الذي أحدثه محمدعلي والتطورات التي يمكن أن تكون قد حدثت في هذا النظام .

في البداية أقول إن النظام القضائي في السودان أحد من النظم التي لم يهتم بها الذين اشتغلوا بتاريخ السودان فلايكاد الباحث يجد إلا إشارات هنا أو هناك ، بينما يتركز إهتمام المؤرخين والباحثين حول النظم السياسية والادارية وتطوراتها . ولذا يجد الباحث في هذا المجال صعوبة كبيرة في جمع تلك الأشتات ليصوغ منها صورة واضحة لنظام قضائي متكامل .

أولاً : النظام القضائي في مملكة سنّار :

مملكة سنّار كماسبقت الاشارة في النظام الاداري واحدة من الممالك الاسلامية التي كانت تجتهد في أن تحكم نفسها بالكتاب والسنة ، في ذلك الزمن الذي كان يكتنفه الجهل خصوصاً سكان تلك المناطق النائية . وقد سبقت الاشارة إلى ماذكره صاحب الطبقات في هذا الشان حيث قال: " ولم تشتهر في تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن ويقال أن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها من غير عدة حتى قدم الشيخ محمود العركي من مصر وعلم الناس "(١) .

---

(١) كتاب الطبقات : مرجع سابق ص ٣٤٤ .

وقد أشرت فى نظام التعليم إلى الدور العظيم الذى لعبه سلاطين هذه المملكة فى نشر العلم ، واكرامهم للعلماء حتى انتشرت مدارس الفقه والقرآن . وكان المذهب الرسمى لهذه السلطنة هو المذهب المالكى .

وقد كان منصب القضاء فى هذه السلطنة يقوم به عالم ينتدبه السلطان للنيابة عنه فى نظر القضايا بين المسلمين فى المحاكم ويسمى هذا القاضى بقاضى الاسلام .

كما أنّ منصب الافتاء يقوم به عالم ينتدبه السلطان ليستفتى فى مسائل المسلمين الدينية وكان يطلق عليه مفتى الاسلام .

كذلك هنالك منصب شيخ الاسلام ويقوم به عالم ينتدبه السلطان يرعى شئون العلماء بحسب درجاتهم واستحقاقهم ولياقتهم وينظر فى جميع المسائل المتعلقة بهم كالعزل والتولية والايقاف .

كما ينتدب السلطان كذلك عالماً يرعى الطرق الصوفية وشئونها ويسمى شيخ مشايخ الطرق [1] ويلاحظ أنّ هذا النظام يكاد يطابق نظام الدولة العثمانية وربما انتقل هذا النظام إلى مملكة سنار من مصر أو الحجاز بحكم أنها كانت ولايات عثمانية .

أنشأت دولة سنّار محكمة عليا بسنّار العاصمة وعين ملوكها لها قاضياً يسمى بقاضى عموم سنّار وأمروه بالحكم بين الناس بالعدل والانصاف . كما أنشأ كل ملك من ملوك هذه المملكة وكل شيخ من مشايخها محكمة صغرى بعاصمته وعين لها قاضياً ليحكم بين الرعية بما أنزل الله . فهناك قاضى مملكة

---

(١) انظر حسين سيد احمد المفتى : تطور نظام القضاء فى السودان . مرجع سابق ص ١٧ .

السعداب فى شندى وقاضى مملكة الرياطاب فى ابى حمد وقاضى مملكة الميرفاب فى بربر وقاضى مملكة الشايقية فى حنكوقاضى مملكة المحس فى فريق وقاضى مشيخة الشنابلة فى المسلمية وقاضى مشيخة المناصير فى السلمات وقاضى مملكة الدفار فى الحتانة وقاضى مملكة تنفسى بجزيرة تنقس وقاضى مملكة الخندق بالخندق وقاضى مملكة أرقو بأرقووهكذا فى باقى أنحاء المملكة "(١) .

وكانت المحاكم تشكل من قاضى واحد أو أكثر وعدة نواب يختلف عددهم قلة وكثرة بحسب أهمية المحكمة وأعمالها ويجوز أن يكون بالمملكة أو المشيخة الواحدة عدة قضاة فى جهة واحدة أو فى جهات متفرقة ومن ذلك ماحصل فى مشيخة العبدلاب فان الملك دكين ١٥٦٢م-١٥٧٧م الموافق ٩٧٠-٩٨٥هـ امر الشيخ عجيب من مشايخ العبدلاب بتوليه القضاء فى مشيخته فولى الشيخ عبدالله العركى والشيخ عبدالرحمن بن الشيخ النويرى والشيخ بقدوشى على دار الجموعية (٢) .

هذا وكان يوجد قضاء بالممالك المذكورة يسمى " قضاء الشريعة البيضاء " وهو ينحصر فى القرى والبوادى فاذا حصل نزاع بين جماعة من أهل القرية أو البادية فأن لهم أن يذهبوا باختيارهم الى أحد العلماء المقيمين معهم بالقرية أو المسافرين معهم بالبادية فيقضى هذا العالم بينهم بالشريعة الاسلامية فإذا عارض معارض فى الحكم فأنه فى هذه الحالة يكتب العالم حكمه فى ورقة يرسلها مع المعارض إلى قاض المملكة أو المشيخة للنظر ومتى وجد القاضى الحكم مطابقاً لأحكام الشريعة

---

(١) انظر حسين سيد احمد المفتى : تطور نظام القضاء فى السودان • مرجع سابق ص ١٧ • ويبدو أن أهل السودان كانوا يطلقون على حكام الولايات أيضاً لقب الملوك •

(٢) انظر كتاب الطبقات - مرجع سابق - ص ٢٥٢•

فانه يجيزه ويسرى مفعول الحكم كسائر أحكام القضاة "(١) .

كذلك عرف نوع من القضاء أطلق عليه قضاء الأجاويد وهم جماعة من كبار السن وشيوخ القبائل اذا عرضت مشكلة من مشكلات الأرض أو الدماء أوغيرها فانهم يجتمعون ويدرسون المشكلة ويعملون على حلها وهذا النوع من القضاء موجود فى كل المجتمعات البدوية تقريبا.

ولم تحدد دولة سنار رواتب محددة للقضاة بل كان الملك يأمر بأن يدفع إلى القاضى من بيت المال مافيه الكفاية له حتى لايمد يده إلى أموال الناس بطريقة تسىء إليه وإلى قضائه .

- المحكمة العليا بسنار :

هذه المحكمة عبارة عن محكمة عليا ولذلك فهى لاتختص بنظر دعاوى اقليم بعينه وإنما يشمل اختصاصها كل أرجاء دولة سنار وتحكم هذه المحكمة فى القضايا الخاصة بالسلب والنهب والسطو والقتل وفى قضايا الزواج والطلاق والوراثة والوصايا والهبة والبيع والشراء والوقف والوكالة وكانت أحكامها وفق المذهب المالكى وبها عدد من النواب العلماء المعروفين بالعلم وحسن السيرة يعينهم القاضى ليساعدوه فى الأحكام كما أن بها كذلك عدد من الكتاب الذين يشتهرون بحسن الخط ولهم إلمام تام باللغة العربية وفقه الشريعة ولم يكن لهذه المحكمة دار معينة فكانت تعقد بمسجد المدينة أو بمنزل القاضى أو فى أى مكان آخر.

---

(١) انظر حسين سيد أحمد المفتى : تطور نظام القضاء فى السودان . مرجع سابق ص ١٨.

ويحيط بمجلس القضاة الحجاب لجلد كل من تحدثه نفسه بالتشويش أو التعدى على الغير أثناء انعقاد الجلسة فإذا تمادى هذا المعتدى أمر القاضى بحبسه حالاً تاديباً له ومحافظة على حسن سير مجلس القضاء. لذلك فأنه قد كان للجلسة روعتها وأبهتها وجلالها الشيء الذى يدل على مكانة القضاء فى نفوس جميع السكان .. ثم يشرع القاضى فى سماع الدعوى ويتولى بنفسه توجيه الأسئلة إلى الخصوم وسماع شهادة الشهود ومناقشتهم ولامانع من أن يطلب من النواب الذين معه بالجلسة توجيه مايريدون من الأسئلة وبعد أن يتم التحقيق اللازم فى القضية يأمر القاضى الخصوم بالخروج من قاعة الجلسة وبعد خروجهم يتناقش القاضى والنواب فى القضية وبعد البحث والمناقشة إذا تم اتفاق الجميع فبها ونعمت - أما إذا حصل اختلاف فيرجح الجانب الذى معه القاضى وقل أن يختلف القاضى مع النواب . ثم يعاد الخصوم إلى الجلسة فينطق القاضى بالحكم ثم يملى القاضى الحكم على أحد الكتبة فيذكر فيه أقوال المدعى والمدعى عليه وأدلة الأثبات والنفى وشهادة الشهود وغير ذلك من الاجراءات والمرافعات ثم ترجيح أحد الجانبين مع بيان النصوص الشرعية التى يعتمد عليها فى حكمه فيكتب الكاتب ذلك على ورقة بخط جميل واضح وبعد التوقيع عليها من القاضى تسلّم إلى المحكوم له الذى يجب عليه أن يحافظ على هذه الورقة حتى يتم تنفيذ الحكم إذ لا صورة لها بالمحكمة (١) .

والقاضى فى دولة سنار لايتقاعد عن العمل مادام يتمتع بصحة جيدة فى جسمه وقوة فى عقله وسمعه وبصره ولذلك قل أن تجد قاضيًا من الشباب .

---

(١) مخطوطة مذكرات الاستاذ محمد عبد الرحيم مؤرخ السودان نقلا عن حسين سيد أحمد المفتى - تطور نظام القضاء فى السودان . مرجع سابق ص ٢٨ .

ويظهر أن القضاء في مملكة سنّار في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري قد توارثه الناس كما تتوارث الضياع فبيوت القضاء معروفة مشهورة لايخرج القضاء عنها ولذلك في كثير من الأحوال تجد أن قاضي الجهة هو ابن قاضيها السابق وحفيد قاضيها الأسبق كما في تراجم كثير من القضاة في كتاب الطبقات مثال ذلك الشيخ حلالي بن الشيخ محمد عيسى سوار الدهب فقد كان قاضياً بدنقله وكان أبوه قاضياً بها والشيخ دياب ابن الشيخ نجيب كان قاضياً بسنار وكان ابوه قاضياً بها والشيخ قناوى بن محمد القناوى المصرى كان قاضياً ببربر كما كان ابوه قاضياً بها . ويروى صاحب الطبقات عن الشيخ محمد القناوى هذا قصة مشهورة إذ تناول ابنه قناوى الرشوة في أحكامه فركب الشيخ محمد القناوى رايته وحمل علماً أبيض وطاف بالأسواق وهو ينادى أنّ أحكام ابنه قناوى باطلة لأنه ارتشى في قضائه (١) .

- المحاكم الصغرى :

تحدثنا عن المحكمة العليا . أمّا المحاكم الصغرى فاختصاصها الحكم في المسائل الزراعية والجرائم الصغيرة كالمشاجرات والسرقات البسيطة وفي مسائل الزواج والطلاق والمواريث والهبة والحجر والوصاية والوقف وكتابة حجج العقارات والأطيان ولا اختصاص لها في الدعاوى الكلية التي تختص بها المحكمة العليا .

وتتشكل كل محكمة صغرى من قاض واحد ونائب واحد - إلا فيما ندر - فإنها تتشكل من أكثر من ذلك كما سبقت الإشارة إلى محكمة الجموعية

---

(١) انظر كتاب الطبقات - مرجع سابق ص ١٠٠.

التى ذكر صاحب الطبقات أنّ قضاتها ثلاث وربما يرجع ذلك لأهميتها وكثرة القضايا فيها أو لاتساع المنطقة التى تدخل فى دائرة اختصاصها.

هذا وقد ذكر بعض الرحالة الأوربيين الذين زاروا مملكة سنار بعض المشاهدات المتعلقة بالقضاء ومن ذلك ماذكره الرحالة يونسيه عن حاكم سنار حيث قال إنّه " لم يكن يظهر فى المناسبات العامة لجمهور الناس إلا وعلى وجهه نسيج من الشفوق الملوّن يغطى ملامحه ، يرأس بنفسه محكمته القضائية فى هيئة شبيهة بهيئة حاكم رومانى . وفيما يصدر الحكم على المجرمين كانوا يطرحون ارضاً ويضربون بالهراوات حتى الموت"(١).

ويصعب على المرء تصديق هذه الرواية فى ضوء النظام القضائى الذى رأينا كذلك ذكر الرحالة كرمب أنه شاهد محكمة الماتجل(٢) فذكر أنّ الشاكى والمدعى عليه يختار كل منهما محاميه من بين الحضور فيخير الشاكى محاميه بالقضية الذى يقوم بعرضها ويرد المدعى عليه بأنه غير مذنب ثم يترافع كل محام عن جانبه الذى أوكله وقد يشترك بعض الحاضرين فى المناقشة مؤيدين أو معارضين وأثناء ذلك ينصت الماتجل وقد استوعب القضية بعد شرحها وتقديم الأدلة من الجانبين سواءً من المحامين أو من الحضور الذين اشتركوا فى المناقشة وعند الانتهاء يصدر حكمه الذى لا استئناف بعده . وفى هذه المحاكمة بالذات أصدر حكمه على احد المتخاصمين بالضرب حيث تناول الحاضرون عصيهم وانهالوا عليه ضرباً حتى أمر المانجل بالتوقف (٣) .

---

(١) آلان مورهيد : النيل الأزرق . مرجع سابق ص ٢٣١ .

(٢) فى دولة سنار كان يطلق على حاكم المنطقة او المشيخة لفظ مانجل.

(٣) انظر د. مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل - مرجع سابق ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

هذه الحادثة والتى سبقتها لايمكن أخذها على اطلاقها وذلك لجهل هؤلاء الرحالة بلغة أهل البلاد وعاداتهم اضافة إلى أن مشاهداتهم هذه لاتصلح للتعميم إذ ربماشاهد أحدهم واقعة تأديب بعينها فيأخذها كمثال يصدر به حكماً عاماً.

وقد علق أحد الباحثين على نظام القضاء الاسلامى فى دولة سنّار بقوله : " لهذا يمكننا أن نقول بأن تطبيق الشريعة خلال هذه الفترة قد شابه شئ غير قليل من التحريف لعدم وجود علماء يصلحون لاستنباط الأحكام الفقهية التى قامت عليها القواعد القانونية المختلفة خلال فترة مملكة الفونج (سنّار) ويمكننا أن نقول أيضا بأنّ ضآلة علم القبائل التى تكونت منها مملكة الفونج بالشريعة الاسلامية أدى إلى اختلاط قواعد الشريعة بشئ غير قليل من العادات القبلية وإلى طغيان تلك العادات على الشريعة نفسها أحيانا . وقد ظلت العادات والعرف القبلى يسيطران على المجتمعات القبلية التى لم تدخل تحت سيطرة الفونج وبالتحديد فى أقاصى الجنوب والشرق "(١) .

وربما يكون هنالك شئ من الجهل وربما تكون بعض التقاليد والأعراف قد أخذت طريقها إلى النظام القضائى وخاصة قضاء الأجاويد ولكن قطعاً لم تكن الصورة بهذه القتامة التى حاول الباحث أن يعكسها ودليلنا على ذلك هذا النظام القضائى الذى أشرنا إليه والذى قام عليه قضاة علماء سبق أن ترجمنا لبعضهم فى نظام التعليم .

---

(١) الأستاذ زكى مصطفى عبد المجيد المحامى : القانون المدنى السودانى تاريخه وخصائصه ـ معهد الدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص ٦-٧ .

النظام القضائى فى سلطنة الفور :

كان فى سلطنة الفور نوعان من القضاء قضاء شرعى وقضاء عرفى أما القضاء الشرعى فقد كان يقوم على الكتاب والسنة ويستند فى أحكامه على المذهب المالكى . وكانت محكمة السلطان فى الفاشر العاصمة تتكون من عدد من القضاة ولها دار ملحقة بقصر السلطان ويرأس هؤلاء القضاة أوفرهم علماً ومعرفة وأكثرهم فطنة ويقوم بتعيينه السلطان وتستمع هذه المحكمة إلى القضايا فاذا كان المدعى والمدعى عليه موجودين بالفاشر سمعت الدعوة وفصل فيها أما إذا تخلف أحدهما فتؤجل القضية لإعلانه بالحضور وتحدد جلسة لسماع القضية .

ويجلس الخصوم على الأرض كجلسة المصلى تأدبا للمحكمة وينظر كل منهم إلى الأرض ولايرفع رأسه إلا إذا طلب إليه الكلام . ويسوى رئيس الجلسة بين الخصوم فى الجلوس والاقبال والإشارة والنظر لافرق فى ذلك بين غنى وفقير ووزير وخفير وكبير وصغير . ويحافظ الرئيس على حسن سير مجلس القضاء فاذا حصل من أحد الخصوم إساءة أدب أو حصل مايشوش على المحكمة أو يخل بنظامها انتهره الرئيس فأن لم يمتثل وتمادى فى فعله أمر بجلده فى الحال . ويحيط بالقضاة جماعة من الرجال عرفوا إذاك باسم القلاقنة وهم يقومون بدور الجلاوزة والحجاب .

ويباشر الرئيس التحقيق فى القضايا بحضور باقى الأعضاء ويشاورهم فيما يحتاج إليه ولامانع من أن يلفت أحد الأعضاء نظر الرئيس إذا فات عليه شئ أثناء نظر القضية . وكانت القضايا لاتدوّن فى محاضر . وكانت أحكام محكمة الفاشر غير قابلة للطعن أو المراجعة (١) .

---

(١) انظر مخطوطة مذكرات الاستاذ محمد عبد الرحيم مؤرخ السودان نقلاً عن حسين سيد أحمد المفتى ـ تطور نظام القضاء فى السودان . مرجع سابق ص ٥٦ـ٥٧ .

أمافى الأرياف فقدكان لكل جهة محكمة تتألف من قاض واحد وكان اختصاصها فى القضايا الجزئية كقضايا الطاعة والحضانة والديون وأمور الزراعة . أمّا القضايا الكلية فيجب احالتها إلى محكمة الفاشر . وكان للخصوم الحق فى استئناف أحكام قضاة الأرياف أمام محكمة الفاشر . وكان القاضى فى دارفور يرتدى جبة وقفطاناً من أجود واردات القطر المصرى ويلبس الطربوش المغربى من غير أن يضع عليه عمامة .

وكان جل القضاة فى دارفور من خريجى الأزهر الشريف (١) .

اما القضاء العرفى فى دارفور فكان يوجد فى القرى وقبائل الرحل ويشبه إلى حد كبير قضاء الأجاويد الذى يقوم به كبار السن . والقضاء العرفى فى دارفور مخالف لأحكام الشريعة وربما يكون السبب فى ذلك أن كثيراً من القبائل فى دارفور لم تكن مسلّمة أو ان بعض أفرادها قد دخلوا فى الاسلام حديثاً . ومن الأمور التى تصالح عليها القضاء العرفى مايلى :

(١) حرمان النساء من الارث .

(٢) كل من يسرق يحاكم بغرامة مقدارها ست بقرات أو قيمتها .

(٣) كل من يزنى بمتزوجة يحاكم بغرامة قدرها ست بقرات فاذا زنى بغير متزوجة فيحاكم بغرامة قدرها بقرة واحدة فقط .

(٤) جزاء القاتل الدية وهى من البقر مائة إذا كان القاتل من ملاك الأبقار اما اذا كان القاتل من أصحاب الابل فالدية مائة بعير .

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٥٩ .

(٥) كل من يضرب غيره ضرباً مبرحاً ينتج عنه كسر في العظم أو تهشيم يحاكم بغرامة هي ثوب من الدمور (نوع من القماش) فاذا كان الضرب غير مبرح فالغرامة نصف ثوب من الدمور.

(٦) كل من يشتم غيره شتيمة فظيعة فغرامته ثوب من الدمور فاذا كانت الشتيمة غير فظيعة فالغرامة نصف ثوب من الدمور .

(٧) لاعقاب على الجرائم التي تقع من الصغار بعضهم على بعض.

(٨) لاعقاب على الذي ياخذ من بهائم غيره لغرض ذبحها في وليمة عرسه بشرط أن يكون العدد الماخوذ في حيز المعقول[1] .

وقد جمعت الاحكام العرفية كلها في كتاب واحد عرف بقانون والي وهو بمثابة قانون الجزاء ويقوم بتنفيذه المقاديم بالاتفاق مع أصحاب المناطق والقبائل[2] .

- القضاء في كردفان :

بالرغم من أنّ جزءاً كبيراً من كردفان كان تابعاً لسلطنة الفور إلا أنّ القضاء يختلف هنا قليلاً عن القضاء في دارفور .

فقد عين سلطان الفور قاضياً عاماً لكردفان وجعل مقره الأبيّض وأمره بالقضاء بين الناس بالعدل ومن اختصاص هذا القاضي الفصل في سائر القضايا على اختلاف أنواعها طبقاً لأحكام الشريعة والمذهب المالكي ومن اختصاص هذا القاضي أيضاً تعيين الكتاب والنواب لمحكمته وكان للمحكمة

---

(١) انظر حسين سيد أحمد المفتي : تطور نظام القضاء في السودان . مرجع سابق ص ٦٠-٦١.

(٢) انظر نعوم شقير: تاريخ السودان - مرجع سابق ص ٧٩.

مقر دائم هو مسجد الأبيّض حيث يجلس القاضى ضحى كل يوم للقضاء بين المسلمين وعن يمينه وشماله نوابه ومعهم جماعة من الفقهاء والأجاويد ومشايخ القبائل ويحيط بهم الحماة والأعوان وقد اختيروا بحيث يستطيعون التغلّب على من يلجأ إلى القوة والعنف • ويباشر القاضى التحقيق فى القضية بصفته رئيس الجلسة وكان القاضى فى كثير من الأحوال يرجع إلى النواب وإلى الفقهاء الموجودين معه بالجلسة فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية وكان لايقطع أمراً دون استشارتهم • وبالمحكمة المذكورة جماعة من الكتّاب لكتابة الأحكام بعد أن ينطق بها القاضى ولم تجر العادة هناك بتدوين مايجرى بين الخصوم فى محاضر ولا دفاتر وكل مافى الأمر أنه بعد أن ينطق القاضى بالحكم فانه يأمر الكاتب بأن يكتب على ورقة تسلّم إلى المحكوم له مذيلة بختم القاضى وكان القاضى فى كثير من الأحوال يبعث نائبه ومعه من يستعين به من الكتاب وأصحاب الخبرة فى معاينة الأراضى وذلك للتمكن من اصدار الحكم الصحيح(١) •

وأحكام هذه المحكمة لاتقبل المعارضة ولا الاستئناف ولا الطعن ويتم التنفيذ بواسطة نائب السلطان المقيم بالأبيّض وذلك بالنسبة للأحكام الكبرى أمّا الاحكام الجزئية كأحكام الطاعة والجلد فيأمر بها القاضى وتنفذ فى جلسة المحكمة •

من خلال هذا العرض يتضح أنّ النظام القضائى الذى كان مطبقاً فى دارفور وفى كردفان لايختلف كثيراً عن ذلك النظام القضائى الذى كان معمولاً به فى سنّار•

---

(١) انظر حسين سيد احمد المفتى : تطور نظام القضاء فى السودان ، مرجع سابق ص ٦٧•

هذا عرض للنظم القضائية التي كانت سائدة في سنّار ودارفور وكردفان، قبل ضمها للادارة المصرية وسنحاول أن نستجلي معالم النظام القضائي الذي أنشأه محمد علي في السودان بعد ضمه للادارة المصرية .

- النظام القضائي في السودان في عصر محمد علي :

معلوم عند المؤرخين أن محمد علي كان قد أرسل ثلاثة من القضاة بصحبة حملته التي أرسلها إلى السودان وهم القاضي محمد الأسيوطي الحنفي والقاضي أحمد البقلي الشافعي والقاضي السلاوي المغربي المالكي ووهب كلًا منهم خلعة سنية وخمسة عشر كيسًا وأوصاهم أن يحثوا أهل البلاد على الطاعة بلا حرب بحجة أنهم مسلمون وأن الخضوع لجلالة السلطان أمير المؤمنين وخليفة رسول المسلمين واجب ديني (١) .

وبعد أن تمت عملية فتح السودان تم تعيين القاضي محمد الأسيوطي في منصب قاضي عموم السودان وهو من علماء الحنفية المعروفين إذاك بالديار المصرية وبقي الشيخ في منصبه هذا إلى أن توفي في سنة ١٨٢٣م بمدينة ود مدني التي كانت مقر رئاسة الحكومة في ذلك الوقت (٢) .

وبعد موت القاضي الأسيوطي قام عثمان بك حكمدار السودان بتولية الشيخ إدريس اليعقوبابي منصب قاضي عموم السودان سنة ١٨٢٥م وكان هذا القاضي من علماء السودان وقد مات بعد عام من توليته القضاء في سنة ١٨٢٦م بمرض الجدري.

---

(١) انظر نعوم شقير - تاريخ السودان . مرجع سابق ص ١٩٦.

(٢) انظر حسين سيد أحمد المفتي : تطور نظام القضاء في السودان . مرجع سابق ص ٩٩.

وفى شهر يونيو سنة ١٨٢٦م تم تعيين العلامة الاستاذ الشيخ أحمد السلاوى المغربى المالكى الذى قدم إلى السودان مع حملة اسماعيل باشا قاضياً عاماً للسودان . وقد كان عالماً وشاعراً . والى جانب تعيينه قاضياً عاماً على السودان تم تعيينه مفتياً للمالكية بالسودان . وقد كان أثر القاضى السلاوى على السودان كبيراً خاصة فى مجال التعليم كما سبقت الاشارة إلى ذلك .

أما القاضى البقلى فقد رجع إلى مصر بعد عام من فتح البلاد السودانية (١) .

وقد سبق أن ذكرت أن المذهب الرسمى للممالك السودانية قبل ضمها للادارة المصرية كان هو المذهب المالكى ولكن بعد ضم الاراضى السودانية للادارة المصرية أصبح المذهب الرسمى هو المذهب الحنفى الذى كان معمولاً به فى جميع أرجاء الدولة العثمانية فأصبح أهل السودان من ذلك التاريخ يتمذهبون فى شعائرهم على المذهب المالكى وفى معاملاتهم واقضيتهم بالمذهب الحنفى .

كما أن الحكومة قد جعلت رواتب معلومة للقضاة فى السودان تتراوح بين الخمسمائة والألف قرش للقاضى شهرياً مع اعفائه من العوائد والضرائب. وكان القاضى يرتدى جبة وقفطاناً ويضع على راسه الطربوش المغربى وعليه عمامة بيضاء (٢) .

---

(١) انظر محمد سليمان : دور الأزهر فى السودان - مرجع سابق ص ٥٥.
(٢) انظر حسين سيد أحمد المفتى : تطور نظام القضاء فى السودان - مرجع سابق ص ٧٩.

" ومن أشهر القضاة الذين رشحهم الأمير اسماعيل نجل محمد على باشا للقضاء فى دنقله الاستاذ الورع العلامة الشيخ البدوى القرافى الذى يقال أنه قد اشترط ألا يأخذ أجراً من الحكومة عن القضاء كما اشترط أن لايقيد نفسه باللوائح والمنشورات بل يقضى بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ومما يشار إليه ان جميع القضاة فى ذلك العهد كانوا من السودانيين فيما عدا قضاة مديرية سنّار وبربر "(١) .

وبضم السودان إلى الادارة المصرية أصبحت البلاد عبارة عن وحدة ادارية واحدة مقسمة إلى مديريات يرأس كل مديرية مدير كان يجمع فى يده جميع السلطات العسكرية والمدنية ويرأس قوة أمن الجند لحفظ الأمن فى المديرية ويساعده فى شئون الادارة وكيل وعدد من المعاونين والكتاب وقاضى ووكيل قاضى ومفتى ومجلس أهلى وضبطية (٢) .

ونلاحظ هنا أنّ النظام القضائى أخذ شكلا محدداً يتمثل فى قاضى المديرية ووكيله والمجلس الأهلى والضبطية التى تقوم باقرار النظام رغم أن المصادر لاتفصل أكثر ولكن تشير إلى أنّ الشئون القضائية كان القاضى هو الذى يفصل فيها ويصدر الأحكام(٣) .

وتشير بعض المراجع إلى أن الحكومة المصرية رأت أنه لابد من إنشاء محاكم شرعية فى السودان لتقوم بمهمة القضاء حيث أن قانون الشريعة كان هو القانون المعمول به فى تلك الديار .وتم لها ذلك وأنشئت محاكم شرعية عديدة فى المراكز وفى المديريات . وكان قاضى عموم السودان هو الذى

---

(١) انظر حسين سيد أحمد المفتى ـ المرجع السابق ص ٨٠.

(٢) انظر د.نسيم مقار : الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى ـ مرجع سابق ص ٤٧.

(٣) انظر نفس المرجع ص ٤٨.

يختار القضاة من بين العلماء ويقوم حكمدار عموم السودان بالتصديق على تعيينهم .أما قاضي عموم السودان فيتم تعيينه من قبل الحكومة المصرية بالتشاور مع حكمدار عموم السودان .

وكانت المحاكم الشرعية وحدها المرجع الأعلى لكل ماينشأ من خصومة بين السكان على السواء فالمحاكم الشرعية هي التي تنظر في قضايا القتل والسرقة والديون وقضايا الأحوال الشخصية وكل مايتعلق بالأمور العائلية والارث والوقف واقامة الاوصياء على القصر واقامة القيم على المحجور عليه من أهل السفه والجنون والمفقودين وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وهباتهم ونقل الملكية وغير ذلك من أمور القضاء الشرعية .

ولكن لم يطل الزمن على هذه الحالة حيث صدر أمر باحالة نظر القضايا الجنائية لمديري المديريات . وفي الخرطوم العاصمة كان ينظر في القضايا الصغرى مأمور الضبطية ومعه مفتي من الضبطية (١) .

من هذا يستخلص أحد الباحثين أن الادارة المصرية في السودان لم تفلح في وضع نظام ثابت للقضاء في السودان واتسمت سياستها في هذا الجانب بشئ غير قليل من التخبط والارتجال . ولكن الشئ الذي يمكننا أن نستنتجه من الوثائق الخطية وما كتب عن هذا الموضوع أنه على الأقل من الناحية النظرية كان هناك مجلس محلي لكل مديرية وكان هناك مجلس استئناف بالخرطوم يسمى مجلس استئناف السودان . وفي بعض الأحيان كان يوجد بكل مديرية مفتي يقوم بالتصديق على أحكام المجلس المحلي وأحكام قاضي المديرية كما كان هناك مفتي لمجلس استئناف الخرطوم وكانت كل أحكام ذلك المجلس تخضع لتصديقه .

---

(١) انظر حسين سيد أحمد المفتي : تطور نظام القضاء في السودان - مرجع سابق ص ٠٧٦

وكان مجلس استئناف السودان يختص بنظر الاستئنافات من جميع أنحاء القطر السوداني ، كما أن كل الأحكام الهامة كقضايا القتل والأذى الجسيم وسرقة أموال الدولة تحال إلى مجالس الأحكام في القاهرة للتصديق عليها(١) .

ويضيف هذا الباحث " وتوضح الوثائق أن الصلة بين مجلس كل مديرية ومفتيها ومجلس استئناف السودان ومفتيه من جهة ومجلس الأحكام في مصر يشوبها كثير من الغموض : وقد صدرت لوائح عديدة لتنظيم هذه المسائل ولكن الغموض والخلط وتداخل الاختصاصات ظل الطابع المميز في علاقات هذه المؤسسات وقد امتد هذا الخلط والتداخل فشمل تعيين القضاة وعزلهم ، إذ أن بعض الوثائق تتحدث عن صلاحيات حكمدار السودان في تعيين القضاة وعزلهم بينما تتحدث وثائق أخرى على أن تعيين القضاة من حق ولي الأمر في مصر أو من حق مجلس الأحكام بالقاهرة . ولم تكن تشترط في البداية مؤهلات معينة في القضاة حتى أننا نجد أنه قد تم تعيين أحد الجنود الأتراك قاضياً في مديرية كردفان في وقت لم يكن فيه ذلك التركي يعرف حتى مبادىء القراءة والكتابة .وكان أعضاء المجالس المحلية على الدوام من الأعيان ووجوه المنطقة ولم يكن يشترط في تعيينهم أن يكونوا ملمين بقدر من المعرفة أو العلم بالقانون "(٢) .

ولعل السبب في اضطراب نظام القضاء في السودان في بداية عهد الادارة المصرية هو ماصاحب هذه الادارة نفسها من اضطراب كما سبق توضيح ذلك في النظام الاداري . يضاف إلى ذلك جهل الحكومة بطبيعة السودان

---

(١) انظر زكي مصطفى عبد المجيد : القانون المدني السوداني – مرجع سابق – ص ٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٩.

وأعراف أهله وعاداتهم وصعوبة المواصلات وانتشار الامية .

وهذا النظام القضائى الذى وضعته حكومة محمد على - وإن كان نظرياً فى أغلبه - إلا أنه كان أساساً لنظام قضائى متكامل طبق فى السودان بعد ذلك .

وسنتعرض فى الفصل التالى على ما اضافه أبناء محمد على فى هذا المجال .

...

الفصل الثاني

نظام القضاء في السودان
في الفترة من ١٨٤٩ - ١٨٨٥م

تمهيـــــد :

لم تذكر لنا المصادر والمراجع شيئاً يذكر حول نظام القضاء في عصرى عباس وسعيد وربما يرجع ذلك إلى أن هذه الفترة تعتبر قصيرة إذا ماقيست بفترة محمد على السابقة أو فترة اسماعيل اللاحقة . وقد سبق لى أن أشرت إلى عدم اهتمام عباس الأول بأمور السودان عامة وأغلب ظنى أن القضاء فى هذا العصر استمر بنفس النظام الذى أقامه محمد على والذى يتميز بوجود قاض لعموم السودان يشرف على شئون القضاة وتعيينهم وعزلهم وقضاة المديريات إلى جانب القضاء المحلى الذى يقوم به مشايخ القبائل والرؤساء المحليين ومما يؤكد هذا الأمر أن سعيد باشا أبان زيارته للسودان أشار فى منشوره الأول الذى أصدره فى الخرطوم لتنظيم الادارة الى بعض النواحى التى تتعلق بالجانب القضائى فأشار الى المؤسسات القضائية التى سبق انذكرناها . ومما جاء فى هذا المنشور عن القضاء قوله : " أما المنازعات والقضايا فيكون بحثها والبت فيها أمام المشايخ . ولكن فى الحالة التى يتعذر فيها الوصول إلى حل بهذه الطريقة فأن هذه القضايا يفصل فيها المكوك (١) الذين يقبلهم الطرفان المتنازعان . وإذا كانت من نوع لايحل بهذه الطريقة فأنها ترسل إلى المديرية . ومالم يمكن الفصل والحكم فيه فانه يعرض على المجلس أثناء الشهور الثلاثة التى ذكرت أعلاه - فعلى المجلس أن ينظر فى هذه الأمور ويصدر حكمه فيها "(٢) .

وهذا هو القضاء المحلى المرتبط بالادارة الأهلية ويختص بالمنازعات البسيطة حيث يتحاكم الناس إلى مشايخهم فأن قبلوا أحكامهم انحلت المشكلات

---

(١) المكوك جمع مك وهم الحكام المحليين فى السودان فى تلك الفترة .
(٢) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان - مرجع سابق ص ٣٤٧ .

وإلا فيلجأ الخصوم إلى المكوك وهم الحكام المحليون فأن فشلوا فى حل القضايا فأنها ترفع إلى محكمة المديرية فأن عجزت محكمة المديرية فى حل بعض القضايا فأنها تحال إلى المجلس الذى كوّنه محمد سعيد فى الخرطوم من الحكّام والرؤساء المحليين وشيوخ القبائل لينظر فى كيفية حلها .

ويضيف سعيد باشا فى منشوره " أما فيما يختص بالمسائل المتعلقة بالقانون فهذه يحكم فيها القضاة . ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام المشايخ والمديرية . أمّا قضايا القتل فيجب أن ينظر فيها مدنيًا بمساعدة المديرية وتبحثها المحكمة فى المديرية ، وفى المجلس الذى سبق التحدث عنه وذلك بحضور القاضى والذين يخصهم الأمر حتى ترفع إلىّ بعد ذلك بواسطة المديرية . أمّا قضايا البدو فهذه من اختصاصات شيخ قبيلتهم أو الشيخ الأعلى"(١) .

ونجد أنّ سعيد قد ترك المسائل المتعلقة بالقانون للقضاة لأنهم أهل دراية ولم يتركها للحكام المحليين ولا للحكام العسكريين ولا لمشايخ القبائل ولاحتى للمجلس الذى يجمعهم جميعا واشترط فى القضايا التى يبحثها المجلس أن تكون بحضور القاضى كما أن قضايا القتل بعد الحكم فيها لابد من رفعها إليه فى القاهرة للتصديق عليها .

وفى منشوره هذا ذكّر سعيد الحكام بالعدل بين الناس وبرحمة المساجين ومما جاء فى هذا الشان قوله " ابحثوا المسائل واعدلوا بين الناس دون ما تحيز فإذا استحق إنسان السجن لذنب من الذنوب فمن واجبكم الاهتمام بانهاء هذه المسالة حتى لايبقى المجرم وقتاً طويلاً فى السجن ، لأنه

---

(١) المرجع السابق ص ٣٤٧ .

مع كون السجن ضرورياً لعقاب أحد الأشخاص على ارتكاب عمل سيء ومن المنتظر أن ينتج خيراً إذ أن هذا من شأنه أن يمنع المجرم من اقتراف آثام أخرى فى المستقبل وفى نفس الوقت تكون هذه العقوبة مثلاً يردع الآخرين عن الاتيان بأعمال تستحق هذا العقاب ، فأنه لما كان السجناء هم من رعاياى وشعبى فان عدلى ورحمتى لايسمحان بأن يبقوا فى السجن أكثر من الوقت المقرر ورغبتى أن أكون شفيقاً فى معاملتهم "(١) .

هذا كل ماوصلت اليه حول نظام القضاء فى عهدى عباس الأول وسعيد باشا أما عن نظام القضاء فى عصر اسماعيل فسنحاول التعرف عليه خلال الصفحات التالية :

ب نظام القضاء فى السودان فى عصر اسماعيل :

بما أن فترة حكم الخديو اسماعيل باشا كانت طويلة نسبيا ١٨٦٣-١٨٧٩م فقد شهد نظام القضاء فيها مثل بقية أنظمة الحكم والادارة - تطوراً نحاول هنا أن نتلمس جوانبه .

فى هذا العهد ب عهد اسماعيل - قسمت المحاكم إلى محكمة عليا ومحاكم محافظات ومديريات ثم محاكم أقسام .

- أولاً : المحكمة العليا :

مقرها الخرطوم وكانت تسمى مجلس استئناف السودان وتشكل من عدة قضاة برئاسة قاضى عموم السودان ولها فقيها ويسمى مفتى مجلس قضاة السودان ومن خصائصها أنها كانت تنظر فى الأحكام الصادرة من قضاة المديريات والمحافظات الكائنة من مختلف أنحاء السودان بصفة استثنائية

---

(١) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان - مرجع سابق ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

اذا لم يقتنع المستأنف بقرار الاستئناف الصادر من مفتى المديرية فى الحكم فأن كان الحكم مطابقاً للأصول الشرعية صدقت عليه وإلا قررت بطلانه وحددت جلسة للنظر فى القضية والفصل فيها ، والأحكام التى تصدرها هذه المحكمة تكون نهائية وغير قابلة للمعارضة [١] .

هذا وقد كان آخر رئيس لهذه المحكمة هو الشيخ محمد خوجلى حتيك كما ان الشيخ شاكر بن الرئيس كان المفتى الأخير لهذه المحكمة وكانت أحكامها تسجل فى محاضر ومن أمثلة القضايا التى قامت بالفصل فيها قضية التنازع بين أهالى قبة خوجلى وأهالى جزيرة توتى[٢] فى الحد الفاصل بينهم فى الأطيان [٣] .

هذا وقد صدر قرار بالغاء هذا المجلس وتكوين مجالس مشابهة في كل مديرية وقد جاء قرار الالغاء هذا فى الخطاب الصادر من الخديو اسماعيل فى الثانى والعشرين من ذى القعدة سنة ١٢٨٨ هـ الموافق الثانى من فبراير سنة ١٨٧٢م . وقد جاء فى هذا الخطاب مايلى :

" جواب للمستشار صورته ورد للمعية إفادة من مجلس الأحكام رقم ٢٧ نمرة ١٢ بأن جهة السودان كان موجوداً بها مجلس واحد وكانت قضاياه تقدم للأحكام[٤] والآن وردت مكاتبة من حضرة الباشا مدير عموم قبلى[٥] انفهم منها[٦] لغو (هكذا)[٧] ذلك المجلس وأن حضرة مدير التاكا

---

(١) انظر حسين سيد أحمد المفتى ـ تظور نظام القضاء فى السودان . مرجع سابق ص ٨٣.
(٢) ضاحيتان من ضواحى الخرطوم بحرى .
(٣) انظر حسين سيد أحمد المفتى . نفس المرجع ص ٨٤-٨٥.
(٤) يقصد مجلس الأحكام بالقاهرة .
(٥) يقصد مدير عموم قبلى السودان .
(٦) يقصد فهم منها .
(٧) يقصد إلغاء .

غير معلوم [(١)] إن كان صدر أمر بلغو (هكذا) مجلس السودان المحكى عنه أو تسميته باسم آخر كما أنه مهما علم هو تشكيل مجالس لمديرية التاكة وبربر ومحافظات سواكن ومصوع مافهم إن كان مديريات كردفان وعموم قبلى السودان ترتب لها مجالس محلية أم لا . وإن كان ترتب للجميع مجلس استئناف أم كيف ؟ لآخر ماذكر ، والحال أنه وإن كان لم يصدر أوامر خصوصية بلغو (هكذا) المجلس السالف ذكره غير أن وجوده كان قبل تبديل هيئة الأقاليم السودانية كما هو معلوم بالمجلس الخصوص . ولما صارت التشكيلات الجديدة واجعالها (هكذا) جهات قايمة بنفسها ولغو (هكذا) الحكمدارية ، قد أشير بالأوامر فى وقتها أن كل جهة تعمل ترتيبها [(٢)] ، وتقدمه وفى غضون ذلك كان محافظ مصوع عمل ترتيب رقم (٢) ثم إن مدير التاكا عمل أيضًا ترتيبًا وقدمه للمعية وأرسل إلى المجلس الخصوص بافادة رقم (١٦) شوال سنة ٨٨ هـ نمرة (٢٢) للنظر فيه كما أن مدير عموم قبلى السودان عمل ترتيبه وقدمه إلى المجلس المشار اليه وأرسل صورته إلى المعية مع افادة رقم (٤) الماضى نمرة (١١) وافادة أخرى فى ذلك التاريخ نمرة (١٢) بأنه لمناسبة لغو [(٣)] (هكذا) واستقلال المجلس البلدى قد أجرى رقت الذوات الذين كانوا بمجلس السودان ورتب مجلس للخرطوم مركب من ريس (هكذا) وفقى [(٥)] (هكذا) وكتاب وفراش وموظفين وأن الاعضاء يكونوا من عمد ووجوه البندر

---

(١) يقصد الغاء .

(٢) يقصد أنه لايعلم .

(٣) يقصد أنه قد ترك لكل جهة اختيار التنظيم الذى يناسبها .

(٤) يلاحظ ضعف لغة الخطابات الرسمية وركاكتها فى هذه الفترة وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن القائمين على شئون الدواوين كانوا من الأتراك الذين كان إلمام معظمهم باللغة العربية ضعيفًا .

(٥) يقصد فقيه .

يحضروا بأوقات اللزوم ، فبهذه المناسبة وما تودى عن مجلس الأحكام عن وجود مجالس ببعض الجهات دون البعض وعن مجلس الاستئناف الذى قيل عنه صار هذا مما ينظر فيه بالمجلس الخصوصى وأن تحسن وجود مجلس بكل جهة واستئناف بالخرطوم على مجالس الجهات القريبة منه مثل جهات قبلى السودان وكردفان ودنقله وبربر عدا التاكا وسواكن ومصوع لمناسبة بعدهم عن الجهة المذكورة وقربهم لمصر يكونوا تابعين استئناف مصر أو غيرذلك فما يرى ويستصوب بأفكار المجلس الخصوصى بهذا الشأن يصدر عنه القرار اللازم ويتقدم لعرضه على الأعتاب السنية(١) ، بناءً عليه اقتضى تحريره بما ذكر(٢) ".

ثانيا : محاكم المديريات :

ودائرة اختصاص كل محكمة مديرية تشمل البلاد الداخلة فى حدود المديرية الكائنة بها .وتختص هذه المحكمة بالنظر والفصل فيما يرفع إليها بصفة استئنافية من الدعاوى المحكوم فيها من قضاة الأقسام التابعة لها . كما تختص بالنظر والحكم فيما يرفع اليها من القضايا بصفة ابتدائية متى ماكان المدعى من متوطنى بلاد مركز المديرية . وتشكل كل محكمة مديرية من قاضى واحد ونائب واحد وعدة كتبة . وكانت الجلسة علنية يحضرها من يشاء من العلماء والفقهاء ولمن يشاء منهم أن يعارض القاضى أثناء التحقيق متى ما رأى اغفالاً عن نقطة لازمة فى القضية فاذا اقتنع القاضى بصحة رأى المعارض قبله ، وأما إذا أصر القاضى على رأيه وأصدر حكماً - فللمعارض فى هذه الحالة - أن يقدم مذكرة إلى مدير المديرية يذكر فيها ماكان من القاضى ويشير إلى الخطأ الذى ظهر

---

(١) يقصد بالاعتاب السنية حضرة الخديوى .

(٢) عابدين دفتر ١٨٥٢ - معية عربى رقم ٢٩ صفحة ٧٣ نقلا عن الحكم المصرى فى السودان ص ٢٧٦-٢٧٧.

له ثم يذكر مايؤيد معارضته من النصوص الشرعية وهنا يطلب المدير إلى القاضى النظر فى مذكرة المعارض فإذا وافق عليها فيجب إعادة النظر فى القضية [(١)] .

أما إذا لم يوافق القاضى على مذكرة المعارض فيجب عليه أن يرفع مذكرة الى مدير المديرية يذكر فيها حيثيات حكمه ثم بعدذلك يرسل مدير المديرية مذكرة المعارض وحيثيات حكم القاضى مع أوراق القضية إلى المفتى للنظر فيها ، ويجب هنا إيقاف تنفيذ الحكم حتى يأتى الرد. ولايخلو الرد من أمرين إما أن يؤيد المفتى حكم القاضى وإما أن يوافق على مذكرة المعارض . وفى الحالة الأخيرة يكلف مدير المديرية القاضى باعادة النظر فى القضية مراعياً ماجاء فى رد المفتى .

واذا استشار المحكوم عليه عالماً من العلماء وأخبره بحكم القاضى ورأى العالم أن حكم القاضى كان خطأ فيجوز أن يذهب العالم إلى القاضى ويلفت نظره إلى الخطأ فى الحكم ، وبعد المناقشة إذا اقتنع القاضى برأى العالم أعاد النظر فى القضية ، أما إذا لم يقتنع القاضى فللعالم أن يبادر برفع مذكرة إلى مدير المديرية . ويحصل هذا عادة فى القضايا الكبرى والمهمة . ولهذا الاجراء فائدة كبرى حيث يشعر القاضى أن أعماله مراقبة من قبل غيره كما أن أحكامه عرضة للانتقاد ولذلك كان القضاة يبذلون جهدا كبيراً واحتياطاً واسعاً ومراجعة للنصوص قبل النطق بالحكم .

استمرت هذه الحال فى محاكم المديريات فى السودان عندما كان مجلس استئناف السودان قائماً . ولما تم إلغاء هذا المجلس جعل لكل مديرية

---

(١) انظر حسين سيد أحمد المفتى ـ تطور نظام القضاء فى السودان ص ٨٦.

مفتياً أصبح يقوم بمهمة مجلس الاستئناف وفى حدود المديرية .وكانت محاكم المديريات لها أماكن معينة وغالباً ماتكون مبانى المحكمة ضمن مبانى المديرية نفسها (١) .

ثالثاً : محاكم الأقسام واختصاصها :

توجد هذه المحاكم فى الأقسام التى تتكون منها المديرية أو المحافظة وتسمى فى بعض الاحيان محاكم الأقاليم .

ودائرة هذه المحاكم تشمل البلاد الداخلة فى القسم الذى توجد به المحكمة وتشكل هذه المحاكم من قاض واحد ونظام الجلسات فيها لايختلف كثيراً عن نظام الجلسات فى محاكم المديريات - واختصاص هذه المحاكم يشمل النظر والحكم فيما يرفع اليها من القضايا متى ماكان المدعى بدائرة القسم الذى توجد به المحكمة ولكن يجب عليها أن تحيل القضايا الكبرى إلى محكمة المديرية أو المحافظة التى يتبع لها الاقليم أو القسم وقد جاء فى خطاب الحكومة المصرية إلى المسئولين فى السودان بهذا الشان مايلى :

" والدعاوى الجسيمة التى تحتاج إلى النظر فى القرى والبلاد تحال على قضاة الولايات (المديريات) لينظروا فيها بما يتحقق وليحكموا بما يوافق أصول الشريعة الغراء (٢) .

ومن حقوق محكمة القسم كغيرها من المحاكم اضافة إلى الفصل فى القضايا ، كتابة حجج العقارات والأطيان ومباشرة الاشهارات كالهبة والوقف والتوكيل والرهن والبيع والشراء وكمثال على هذا حجة الشراء

---

(١) انظر تطور نظام القضاء فى السودان - مرجع سابق ص ٨٧

(٢) المرجع السابق نفسه ص ٩٧.

التى قام بكتابتها قاضى اقليم الحلفاية (١) فى سنة ١٢٩٧ هـ الموافق سنة ١٨٧٩م ونصها كالتالى:

" حجة شرعية مضمونها اشترى حضرة المكرم على ولد سالم بماله لنفسه من بايعه أحمد ولد الفكى محمد ولد أحمد ولد النور قطعة أرض زراعية كائنة بجهة الدبيبة ساقية بنت أبكر قدرها خمسة أذرع بالزراع الثمانى المتعارف عليه بينهم ومحدودة جهتها وحدها من جهة الصعيد البشير ولد الحسين ومن جهة الشمال طين بابكر ولد النصيح وشرقاً منتهى حد جيرانها وغربا بالبحر (٢) بمبلغ وقدره ثمانية ريال مجيدى ونصف وربع من الريال قيمة كل ريال عشرون قرشاً من القروش الأربعينية قطعة مصرية عملة رائجة فضة خالصة مسكوكة وكذلك البيع الواقع بينهما عاماً اتفقا على فى هذا العقد بمجلس بينهم وعلى هذا المذكور ايجاب من البائع وقبول من المشترى ويشتمل هذا البيع على الايجاب والقبول والتسليم والتسلم وشروط الصحة واللزوم ومكن البائع هذا المشترى من قبض هذه البقعة الواقع فيها البيع بالتخلية الشرعية بينه وبينها وأوقفه عليها وعلى حدودها فارغة عن تعلق حق أحد عليها وصارت ملكه وحقه بالبيع والتسليم بطوعهما واختيارهما وعقلهما وصحة تصرفهما وافترقا عن تراض منهما بذلك بشهادة البشير ولد حسين وحاج محمد الصادق .

٢١ جماد اخر سنة ١٢٩٧ (١٨٧٩م)

قاض اقليم الحلفاية

خوجلى عبد الرحمن

(الختم) (٣)

---

(١) ضاحية من ضواحى الخرطوم بحرى .

(٢) يقصد بالبحر نهر النيل .

(٣) حسين سيد أحمد المفتى :تطور نظام القضاء فى السودان ص ٩٨ .

- منصب قاضى عموم السودان فى هذه الفترة :

تولى منصب قاضى عموم السودان فى عهد اسماعيل باشا الشيخ محمد خوجلى حتيك وهو من قبيلة المحسن (١) وكان ذلك فى عام ١٨٥٨م وكان عالماً ورعاً تقياً وبقى فى منصبه المذكور إلى أن قتل يوم سقوط الخرطوم على أيدى أنصار المهدى(٢) ٠

ومن هذا يتضح أنه فى عهد اسماعيل لم تكن هناك فترة محددة للقضاة يتقاعدون بعدها وانما يستمر القاضى فى منصبه الى أن يهرم أو يموت أو يعزل لسبب من الأسباب ٠

فى عام ١٨٨٢م رأت الحكومة المصرية فصل غرب السودان قضائياً عن شماله فعينت المغفور له السيد أحمد الازهرى(٣) قاضياً عاماً لغرب السودان ، ولكنه توفى قبل تسلم مهام منصبه ٠

أما فى شرق السودان فعندما ضمت سواكن الى أملاك الخديو اسماعيل " استصدر محافظها ممتاز باشا مرسوماً من الخديو اسماعيل باشا بتعيين القاضى عبد القادر حسين بن عبد القادر أفندى إذ كان أول الفائزين فى الامتحان الذى أجراه مندوب مشيخة الأزهر الشريف بسواكن فكان نزيها جدا ومدققا فى أحكامه الشرعية والمدنية وخصوصا الجروح فانه يعطيها

---

(١) المحسن من قبائل السودان الشمالى ويسكنون إلى الجنوب من حلفا وهم احدى المجموعات النوبية التى تسكن شمال السودان ٠ انظر محمد عوض محمد : السودان الشمالى ٠ مرجع سابق ص ٣٠٢٠

(٢) انظر تطور نظام القضاء فى السودان ص ١٠١٠

(٣) ولد السيد أحمد الازهرى بمدينة الأبيض عاصمة مديرية كردفان سنة ١٨٢١م وحفظ القران الكريم بمسجد والده بالأبيض وتلقى علومه الاولية على بعض العلماء فى كردفان ومن ثم ذهب إلى الأزهر لطلب العلم فانتظم فى سلك طلبته وأظهر نبوغا عظيما وبعد أثنتى عشر عاماً قضاها فى الأزهر أصبح من فحول العلماء العاملين وعين مدرساً بالأزهر فكان مرجع (=)

استحقاقها من العناية سواءً كانت كبيرة أو صغيرة . واشتهر بتعيين القضاة من أبناء البيوتات الدينية فى المراكز التابعة لرئاسة فضيلته "(١) .

بعد ذلك جمعت سواكن ومصوع فى ادارة واحدة فكان يقوم بالقضاء فى كل منها مجلس مكون من العمد والتجار ورأى المجلس الخصوص أن القضية إذا نظرت بأحد هذين المجلسين يكون استئنافها فى المجلس الآخر . هذا وقد طلب حاكم هذه الادارة إلغاء هذه المجالس لأنها كلفت الحكومة المصرية مصاريف كثيرة مع أنه لاتوجد قضايا تستدعى ذلك ولكن مصر لم تقر طلبه (٢).

وقد كان من اختصاص قاض عموم السودان إلى جانب تعيين القضاة وعزلهم والمرور عليهم بالمديريات والمحافظات بعد تعيينهم والتفتيش على أعمالهم وارشادهم إلى مايجعل أعمالهم صحيحة - إلى جانب هذه الأعمال كان عليه رئاسة المحكمة العليا، بالخرطوم ."وسواءً كان القاضى مصرياً أم سودانيًا فقد كان يختاره قاضى عموم السودان ويعينه سعادة حكمدار عموم السودان . أما قاضى عموم السودان ومفتى مجلس استئناف السودان وشيخ العلماء فقد كانوا يعينون بامر خديو مصر" (٣) .

- وظيفة الافتاء :

ظهر منصب الافتاء كوظيفة رسمية فى السودان فى عهد محمد على كما سبقت الاشارة إلى ذلك حيث عين الشيخ القاضى أحمد السلاوى مفتياً للمالكية فى السودان كما تم تعيين السيد أحمد البقلى مفتياً للشافعية ولكنه رجع بعد فترة وجيزة إلى مصر لأنه لايوجد فى السودان إلا القليل جداً من الشافعية .

(=) العلماء والطلاب فى مصر فى المسائل العلمية وفى سنة ١٢٨٩/١٨٧٣م عاد السيد أحمد إلى وطنه السودان وفى بلده الأبيض عقد حلقات العلم فقصده الطلاب فى مختلف الجهات ثم عين قاضيا ولكنه توفى قبل استلام عمله .

(١) محمد صالح ضرار : تاريخ سواكن والبحر الاحمر . مرجع سابق ص ١٤٠.

(٢) انظر د. شوقى عطا الله الجمل - سياسة مصر فى البحر الاحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر - الهيئة المصرية للكتاب . القاهرة ١٩٧٤ ص ١٠٢.

(٣) عبد الله حسين المحامى - السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية . مرجع سابق ص ١٤٣.

بعد ذلك عين السيد الشيخ محمد السليدى سنة ١٨٢٥م واستمر في منصبه إلى أن توفى فى سنة ١٨٣٩م وخلفه الشيخ ابراهيم عبد الدافع ٠

ولما تم الغاء مجلس استئناف السودان جعل فى كل مديرية من المديريات مفتيا وكان اختصاص مفتى المديرية هو افتاء أهالى مديريته فى العبادات والمعاملات وغير ذلك من أمور الدين وكان مدير المديرية لايقوم بعمل يتعلق بالاسلام والمسلمين إلا إذا اتصل بالمفتى وتحصل على فتوى منه ٠

كما كان من اختصاصه أيضًا النظر بطريقة الاستئناف فى الأحكام الصادرة من قضاة مديريته إذا لم يقبل بها المحكوم عليهم وتلك الأحكام هى التى كانت ترسل إلى مفتى المالكية بمصر قبل إنشاء وظيفة الإفتاء فى السودان، فلمّا تم إنشاء وظيفة مفتى المديرية جعل من اختصاصه نظر ماكان يحال الى مفتى المالكية بمصر(١) ٠

وتذكر بعض المراجع أسماء المفتين فى المديريات ومنهم الشيخ اسماعيل عبد القادر المشهور باسماعيل المفتى ، مفتى مديرية كردفان وهو من خريجى الأزهر الشريف ٠ ومنهم الاستاذ عبد الحى الطرابلسى فقد كان مفتيًا لمديرية دنقله والأستاذ زروق إدريس الحلنقى الذى كان مفتيًا لمديرية التاكة والأستاذ السيد أحمد الشنقيطى الذى كان مفتيًا لمحافظة سواكن ٠٠ وهكذا فى بقية المديريات (٢) ٠

---

(١) انظر تطور نظام القضاء فى السودان ص ١٠٩٠

(٢)

- استئناف الاحكام :

أُوجد التنظيم القضائى الذى أُحدثته مصر فى السودان نظام استئناف الأُحكام فى حالة عدم قناعة المحكوم عليه بالحكم الصادر ضده وشمل نظام الاستئناف كل مراحل التنظيم القضائى ، ففى محاكم الأُقسام أُو الاقاليم متى ماصدر الحكم ضد شخص ورأُى المحكوم عليه ضرورة الاستئناف ذهب إلى محكمة المديرية ، وهناك يخذ القاضى بطلبه للاستئناف فيحدد القاضى يوماً للنظر فى الدعوى يحضر فيه الخصمان وتستمع المحكمة إلى أُقوالهما وإلى الشهود فاذا رأى القاضى صحة الحكم ولم يقدم المستأنف دفعاً شرعياً قرر تاييد الحكم الصادر من قاضى القسم أَو الاقليم . أُما إذا رأى قاضى المديرية بطلان الحكم الصادر هن قاضى القسم أَو الأُقليم سار فى الدعوى إلى أَن يفصل فيها بالمنهاج الشرعى .

وبعد انتهاء القضية من محكمة الاستئناف فى المديرية فأُن هذه المحكمة تخطر محكمة القسم بمضمون القرار الصادر عنها للعمل بموجبه (١) .

أُما الأُحكام التى تصدرها محاكم المديريات والمحافظات فانها لاتقبل الطعن إلا إذا قدّم الطاعن سواءً كان المحكوم عليه أُو المحكوم له نصوصاً شرعية تدل على عدم صحة الحكم ، وبيان ذلك ، إِمّا أُن يكون المستأُنف عالماً بالنصوص الشرعية وإما أَن يرجع إلى الراسخين فى العلم فيكتب له أَحد العلماء النصوص الشرعية ثم بعد ذلك يقدّم المستانف هذه النصوص إلى القاضى الذى أَصدر الحكم فإذا اقتنع القاضى بنصوص المستانف وحججه أُعاد النظر

---

(١) انظر تطور نظام القضاء فى السودان – مرجع سابق ص ١١٧.

فى القضية ، أما إذا لم يقتنع القاضى فللمستأنف أن يرفع الأمر إلى مدير المديرية الذى يطلب من القاضى حيثيات حكمه وأوراق القضية ثم يوقف تنفيذ الحكم الذى أصدره القاضى ويرسل النصوص التى قدمها المستأنف مع أوراق القضية وحيثيات الحكم إلى مصر فاذا جاء الرد من هناك بعدم مطابقة الحكم للنصوص الشرعية نظرت القضية من جديد وأصدر فيها الحكم الشرعى الواجب التنفيذ.

ـ تنفيذ الاحكام :

يكون تنفيذ الأحكام من اختصاص القاضى الذى أصدر الحكم متى ماكان الحكم جزئياً كأحكام الجلد والحضانة والطاعة ، فأن القاضى يأمر بتنفيذ أمثال هذه الاحكام فى قاعة الجلسة فيأمر بجلد المجرم ويسلم المحضنون إلى حاضنه والزوجة إلى زوجها وهكذا ، أما بقية الأحكام فيباشر تنفيذها الحاكم الإدارى من غير حاجة للتصديق من جهة أخرى إذا كانت هذه الأحكام لاتشتمل على حكم بالاعدام .

أما أحكام الإعدام فلايمكن تنفيذها إلا بعد التصديق عليها من قبل الحكومة المصرية بالقاهرة ، وبعد التصديق عليها فأن الحاكم الادارى هو الذى يقوم بتنفيذ الحكم ، ففى اليوم المحدد يؤتى بالمحكوم عليه مع جماعة من المسجونين ، ثم يأتى الحاكم الادارى والقاضى لمكان التنفيذ ثم تقرأ حيثيات الحكم جهراً على مرأى ومسمع من الحاضرين وبعد الفراغ من قراءة الحيثيات يسأل المحكوم عليه عمّا إذا كان يريد أن يوصى بشىء وهل له أو عليه بعض الديون وهل له رغبة فى تناول طعام أو شراب أو غير ذلك فان ذكر شيئاً معقولاً لايعطل التنفيذ فأنه يجاب إلى طلبه ، ثم بعد ذلك ينطق المحكوم عليه بالشهادتين وينفذ الحكم عليه علناً(1).

---

(١) انظر تطور نظام القضاء فى السودان . مرجع سابق ص ١٢٣.

القانون السائد :

القانون السائد فى كل الولايات العثمانية هو القانون الهمايونى العثمانى والمعروف عن هذا القانون أنه كان يقوم على أساس الشريعة الاسلامية رغم أن القوانين الوضعية الأوربية قد عرفت طريقها إليه منذ عهد السلطان سليمان المعروف بالقانونى . إلا أن هذا القانون فى معظمه كان قانوناً إسلاميا .

أما فى مصر فيذكر أحد الباحثين أن مصر حتى عهد محمد على كانت تطبق الشريعة الاسلامية " ومنعهد محمد على بدأ القانون الفرنسى يدخل مصر ، لاسيما فيما يتعلق منه بالتجارة والقانون الجنائى وأخذ تأثير الشريعة الاسلامية ينكمش رويداً رويداً كلما دخلت مصر قاعدة من قواعد القانون الفرنسى وانتهى الأمر فى عهد اسماعيل بأن صدرت التقنينات المصرية الأولى آخذة الأغلبية من أحكامها عن القانون الفرنسى والقليل النادر منها عن الشريعة الاسلامية ، وهكذا ضعف أثر الشريعة فىالقانون المصرى بالنسبة إلى مانظمته التقنينات الصادرة وقتذاك بيد أن هذه التقنينات لمتتناول تنظيم مسائل الأحوال الشخصية " (١) .

أما فى السودان فقد استمرت المحاكم الشرعية خلال فترة محمد على تطبق أحكام الشريعة وفق القانون الهمايونى وفى عهد اسماعيل بقىالقانون الهمايونى أساس المعاملات المدنية أما القانون العسكرى فهو السائد فى الأوساط العسكرية واختصت المخاكم الشرعية بالأحوال الشخصية (٢) . ويظهر

---

(١) الشيخ عبدالمجيد الشاذلى : حد الاسلام وحقيقة الايمان – مركز البحث العلمىجامعة ام القرى – الطبعة الاولى ١٩٨٣م مطابع الصفا بمكة المكرمة ص ٣٧٢.

(٢) انظر د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ٢٤٦.

هذا الأمر من خلال الخطاب الذى أرسله الخديو إلى رؤوف باشا حكمدار السودان وقد جاء فى هذا الخطاب مايلى : " وأما مايتعلق بالأمور القضائية سواءً كانت شرعية أو نظامية تجرونه على قواعده المتبعة والحالة هذه انما يختص بهذا القسم من المخابرات أو ماترونه لزوم اجرائه من الاصلاحات يجب أولاً المخابرة عنه مع نظارة الحقانية ثم إن الرخصة التى كانت ممنوحة لأسلافكم بتنفيذ مايصدر من الأحكام شرعية كانت أو سياسية فى المواد القضائية الحقوقية والجنائية قد أبقيناها بعهدتكم أيضا ماعدا أحكام القصاص الواجب استحصال أوامرنا عنها(١) " .

يقول الخديو فى موضع آخر من نفس الخطاب مايلى : " فهذه الأفكار هى التى تكون أسس أعمالكم فى ترتيب وتنظيم عسكرية السودان مع مراعاة اجراء القانون العسكرى وكافة مايتعلق بهذا القسم من المخابرات والاستئذانات هو خاص بنظارة الجهادية . هذا مع بقاء حيازتكم الرخصة المعطاة لأسلافكم بتنفيذ أحكام القانون العسكرى فى الجنايات وسائر الأحوال حسب ما تصدر به مضابط المجالس العسكرية فأن حكم العزل أو تنزيل رتبة أو ترقى الضابط جميع ذلك لابد من العرض عنه لطرفنا بواسطة نظارة الداخلية (٢) " .

هذا الخلط فى القوانين جعل أحد الباحثين القانونيين يقول " ولم يحدث أن وضع طوال فترة الحكم المصرى قانون خاص بالسودان وكل الذى نجده هو اشارات إلى منشورات ولوائح وأوامر صدرت لتنظيم أعمال المجالس أسوة بما كان يحدث فى مصر . ويبدو أن الادارة الجديدة وجدت نفسها مضطرة لاستمرار تطبيق الشريعة الاسلامية على السودانيين نسبة لأنهم كانوا يعتبرون القوانين الوضعية التى كان يطبقها المصريون بدعاً لاتتمشى مع الشريعة وليسوا على

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان – مرجع سابق ص ٣٠٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٩ .

استعداد لاحترامها والانصياع لها . وهذا مما اضطر هذه الادارة أن تطبق ثلاثة أنواع من القوانين، القانون المدنى المصرى على موظفى الدولة والقانون العسكرى على الجيش والمناطق التى توضع تحت القوانين العسكرية والشريعة على مسلمى السودان من المدنيين . بالاضافة إلى كل ذلك كان رعايا الدول الاجنبية لايخضعون لأى من هذه القوانين إذ كانت قضاياهم تحال الى قناصلهم وممثلى دولهم "(١) .

ويضيف هذا الباحث فى موضوع آخر من كتابه : " ... وقد طبقت قواعد الشريعة المتعلقة بالقسامة فى الحالات التى لم يعرف فيها القاتل. هذا فيما يختص بجرائم القتل أما الجرائم الأخرى المتعلقة بالانسان من أذى جسيم وبسيط وسب وخلافها فقد كانت تحاكم سياسة حسب نصوص القانون الهمايونى واللوائح والأوامر الصادرة بموجبه ، أما الجرائم المتعلقة بالأموال من سرقة وخيانة أمانة وأمتلاك جنائى وتعدى على ممتلكات الدولة أو الغير فقد كانت تحاكم سياسة وكانت عقوبتها رادعة صارمة .ويبدو أن جرائم قطع الطريق والسلب والنهب كان مرتكبوها يصلبون أو يرفعون على الخوازيق (٢) وفى بعض الأحيان يرسلون إلى الليمان لفترات طويلة أما خيانة الأمانة والاستيلاء على أموال الدولة فقد كانت من أكثر الجرائم المتفشية وسط موظفى الدولة وعمالها وقد كانت عقوبتها هى الأخرى صارمة للغاية تشمل ارجاع المسروقات والحبس مع الخدمات الدنيئة

---

(١) زكى مصطفى عبد المجيد : القانون المدنى السودانى . مرجع سابق ص ١٤.

(٢) الخوازيق جمع خازوق وهو من اللغة التركية (قازيق) ويعنى الوتد وهو عمود مدبب كانوا يجلسون عليه من يحكم عليه بالاعدام ليموت موتاً بطيئاً أليما بنزيف الدم . انظر تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل . مرجع سابق ص ٨١.

والتقييد بالحديد والارسال الى الجهادية[1] " .

" أما القضايا الأخرى التى كانت تشمل شرب الخمر ولعب الميسر فقد كان يقام الحد الشرعى على مرتكبيها بينما نجد أنه فى حالات أخرى كتزوير الأحكام يعاقب الجانى سياسة "[2] .

وفى ختام هذا الفصل نستطيع تسجيل الملاحظات الآتية :

(١) حدث تطور هائل لنظام القضاء فى السودان خلال عهد اسماعيل مقارنة بالذين سبقوه - ولو على المستوى النظرى - وأصبحت القضايا تسجل وتوثق .

(٢) نظام الاستئناف المعمول به يدل على الحرص على تحقيق العدل على الرغم من تأخيره للقضايا والنزاعات .

(٣) تعيين الحكام الأوربيين كان من الأسباب الأساسية فى اقصاء قوانين الشريعة واستبدالها بالقوانين الوضعية .

(٤) محاولة إلغاء قوانين الشريعة سببت سخطاً شديداً فى أوساط الشعب السودانى المسلم وجعلت قطاعاً كبيراً من هذا الشعب يلتف حول الدعوة المهدية لمناداتها بتطبيق الشريعة فى كافة أوجه الحياة .

هذا ويعد انتصار الثورة المهدية انهاءاً لهذا النظام القضائى كبقية الأنظمة وقام بدلاً عنه نظام قضائى آخر .

...

---

(١) زكى مصطفى عبد المجيد : القانون المدنى السودانى - مرجع سابق ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

الباب الرابع

بعنوان

النظام الاقتصادى والمالى

ويحتوى على :-

١- النظام الاقتصاى والمالى فى الفترة من ١٨٢٠-١٨٤٨م
٢- النظام الاقتصادى والمالى فى الفترة من ١٨٤٩-١٨٨٥م

الفصل الأول

النظام الاقتصادى والمالى فى السودان

فى الفترة من ١٨٢٠ - ١٨٤٨ م

- تمهيـــد :

- الوضع الاقتصادى فى السودان قبل عصر محمد على :

سأتحدث فى بداية هذا الفصل عن النظم الاقتصادية والماليـــة التى كانت سائدة فى أنحاء الممالك السودانية قبل ضمها للادارة المصريـة وذلك حتى يتسنى لنا معرفة التطور الذى يمكن أن يكون قد طرأ على السودان فى هذه المجالات فى ظل هذه الادارة من خلال المقارنة مع النظم السابقة .

- النظم الاقتصادية والمالية فى مملكة سنّار :

ذكرت عند الحديث عن النظام الادارى لهذه السلطنة أن النظام الادارى فيها كان نظاماً بسيطاً يدور حول القبيلة وشيخها وكان المجتمـــع نفسه مجتمع بدوى أو قروى كما أن الاقتصاد كذلك كان اقتصادا بسيطـــاً قوامه الرعى والزراعة والتجارة .

فالقرية وهى المعروفة محليا " بالحلة " قد تتكون من أســـرة واحدة أو مجموعة من قبيلة أو بطون قبائل متآلفة مع من دخل فى كنفهـــا من السكان المحليين . ويتولى شئون القرية زعيم يعرف بالشيخ يعاونــــه مجلس من كبار رجال القرية يسمى " الأجاويد " كما يساعده جماعة من أتباعـه يعهد إليهم بوظائف الكتابة وتحصيل العشور والمحافظة على الأمن ويتأثـــر هؤلاء فى عددهم ووظائفهم بمركز القرية الاقتصادى والمالى ، الأمر الــذى يختلف بين منطقة وأخرى .

والقرية تتكون من مجموعة قليلة من المساكن تقع على اطـــــراف الأراضى الزراعية التى يقوم الشيخ بتوزيعها على أفراد القرية وفق النطـاق الذى يراه من ناحية مقدرتهم على العمل فى الأرض . ولايختلف الحال كثيـــراً

من ناحية الأسس التى تقوم عليها القرية عن حال المدينة الصغيرة أو الكبيرة فالمدينة تسيطر على مجموعة من القرى ويتولى شئونها مانجل[1] أو مك. أما المدينة الكبرى وتكون عادة واقعة على ملتقى القوافل وتسيطر على عدد من المدن الصغيرة وما يتبعها من قرى ويتولى شئون هذه الوحدة الكبرى زعيم الدار ويحمل لقب مانجل وينادى بالأرباب .

وولاية السلطة للشيخ والمك والمانجل وراثية يتبادلها الزعيم وأقاربه أو من ينتمون إليه [2] .

وتقام فى المدن الكبرى والصغرى الأسواق الأسبوعية التى يختار لها يوم معين لكل منطقة يتناسب مع المصلحة العامة للسكان حتى يتمكنوا من الانتقال من سوق إلى سوق . وفى هذه الأسواق يتبادل الأهالى مختلف منتجاتهم المحلية وكان التبادل غالباً عن طريق المقايضة فى القرى والمدن الصغرى أما فى المدن الكبرى فكانت تستخدم بعض العملات الأسبانية وغيرها[3] .

" ويتحصل المانجل أو المك على نصيبه من الدخوليات ، ومن المكوس على القوافل التى تختلف قيمتها بين منطقة وأخرى ، ويدفع الزعيم المحلى جزءاً من حصيلته ، العينية والنقدية إلى خزينة السلطات السنّارى ، وكانت هناك ثلاث مراكز جمركية هامة فى السودان الأول فى دنقله والثانى فى قرى والثالث فى تشلجة[4] " .

---

(١) سبق شرحها.
(٢) انظر الشاطر بصيلى عبد الجليل ـ معالم تاريخ سودان وادى النيل مرجع سابق ص ١١٠ .
(٣) انظر المرجع السابق ص ١١١.
(٤) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والاوسط من القرن السابع حتى القرن التاسع عشر . الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٢م ، ص ٢٧٢.

أما سنّار العاصمة فيصفها الرحالة كرمب الذى زارها سنة ١٧٠١م بأنها " مركز تجارى هام وتتردد القوافل التجارية بينها وبين القاهرة ودنقلة ، وبلاد النوبة والهند وأثيوبيا ودارفور وبرنو وفزان وغيرها من الأقطار وهى تأتى فى المرتبة الثانية بعد القاهرة من حيث ازدحام السكان ويقطنها جميع الأجناس بحرية واطمئنان وسوقها منظم وكل سلعة لها أماكن خاصة تعرض فيها[1] " .

وكان من قبله الرحالة الفرنسى بونسيه قد ذكر أن البضائع التى ترد الى سنّار من الخارج هى البهارات والورق والنحاس الأصفر والحديد وأسلاك النحاس والأدوات الحديدية والعطور والكحل وغيرها من أدوات الزينة وتجار سنّار حسب مايروى الرحالة بونسيه يتعاملون مع ميناء سواكن حيث يأتون باللؤلؤ من مقاصاته فى تلك المدينة ويتاجرون مع مخافى اليمن ومع سورات فى الهند وهناك ينقلون إليها الذهب والزباد وسن الفيل ويرجعون بالبهارات والبضائع الهندية الأخرى ويمضون فى هذه الرحلة نحو سنتين من الزمان[2].

ومن داخل السودان كان يرد إلى سنّار التمر من دنقله ومن كردفان التبر والحديد ومن فازوغلى والصعيد يأتيها الذهب والعسل والجلود والنعال والسياط والسمسم . وكانوا يتعاملون بقطع من الدمور[3] . كما يتعاملون بقطع من النقود أشهرها ريالات ماريا تيريزا النمساوية[4] .

---

(١) د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ٨٠.
(٢) المرجع السابق نفسه صفحة ٧٧.
(٣) الدمور نوع من القماش .
(٤) انظر ألن مورهيد : النيل الأزرق – مرجع سابق ص ٢٦٦.

اما فى مجال الصناعة والحرف فيوجد الصاغة الذين اشتهر عملهم فىمصر بالسنارى وكذلك الحاكة لحياكة الدمور وغيره من المنسوجات القطنية . هذا وقد كان ملوك سنّار يجمعون الزكاة والفطرة والعشور على نحو مايفرضه الشرع الاسلامى . كما أنهم كانوا يقومون بتوزيع الأراضى على الراغبين فى فلاحتها أو رعيها وكثير من أهالى السودان اليوم يملكون اراضيهم بحجج منذ أيام ملوك سنار(١) .

ـ التعامل الاقتصادى فى دارفور :

اقتصاد دارفور كان بسيطاً مثل اقتصاد سنّار يقوم على الزراعة والتجارة والرعى . أهم زراعة كانت موجودة فى دارفور هى زراعة الدخن الذى كان يزرع بالأمطار(٢) .

هذا وكان سلاطين دارفور يعملون بالنظام المشهور فى الشرق فيما يتعلق بملكية الاراضى حيث جعلوا البلاد كلها ملكا للسلطان وقسموا بلاد الحضر إلى اقطاعات وحواكير وزعوها على اهلهم أو أصفيائهم أو كبار قومهم بحجج مختومة فعاشوا بريعها هم وأهلها المزارعون . وكذلك قسمت قبائل البادية فخصّت كل قبيلة بأمير من الأمراء أو بعين من الأعيان يجبى إليه خراجها . ويجمع السلطان من الناس الزكاة والفطرة والعشور حسبما تأمر به الشريعة الاسلامية وكان العمال يجمعون الزكاة من البادية وربما تنازل السلطان عن نصيبة فى القبيلة أو " الحاكورة " فيعطى صاحبها " حجة بالجاه " فلا يقربه أحد من الجباة "(٣)

---

(١) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ، مرجع سابق ص ١٢٧.
(٢) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ـ مرجع سابق ص ١٨٨.
(٣) انظر المرجع السابق ص ١٧٨.

أما دخل السلطان في دارفور الذى كان ينفق منه على بيته وأهله وجنوده فمن العشور والفطرة التى تجمع من الحضر والزكاة التى تجمع من أهل البادية وعشور البضائع التى تجمع من التجار والضرائب على التجار والحدادين والنفوس ومن الهدايا التى كانت تأتيه من الحكام وأصحاب المقاطعات والتجار ولم يكن يدخل عليه أحد من رعيته من موظفين وأعيان وتجار إلا بهدية نفيسة تعرف " بالسلام " من الرقيق والأبل والخيل والبقر والغنم والذهب والفضة والعسل والسمن وسن الفيل "(١) .

" وكانت سلطنة الفور مستقلة عن دول الأرض كلها لاتدفع جزية لأحد ماعدا الحرمين الشريفين فأنها كانت تخدمهما بمحمل وصرة كل سنة فكان موكب المحمل يأتى إلى مصر ومعه الريش والسن والصمغ وغيرها من خيرات البلاد فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرة ثم يستطرد الحج الى الحرمين مع الركب المصرى(٢) ".

أما عن التجارة فى دارفور فقد كانت تربطها علاقات تجارية مع كردفان وبحر الغزال وودای ومصر وكان يرد منها إلى مصر من ١٠-١٥ ألف جمل فى العام تحمل الرقيق والسن والريش والصمع والتمر الهندى والنحاس والعطرون والجلود والأقداح الخشبية والأطباق والعسل فتعود إلى دارفور ومعها الأنسجة القطنية والحريرية والدبلان والجوخ والملايات الحجازية والبنادق والسيوف والسروج وأنواع الحلى الذهبية والفضة والمرجان والسوميت وغيره من أنواع الخرز" (٣) .

---

(١) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان ص ١٨٠.
(٢) انظر المرجع السابق نفسه ص ١٨٣.
(٣) انظر المرجع السابق نفسه ص ١٨٨-١٨٩.

هذا وقد ذكر محمد بن عمر التونسى وسائل التعامل التى كانت سائدة فى دارفور فذكر أن " مملكة دارفور ليس فيها شئ من المعادن إلا ماجلب من الأقطار ، حتى ان أعظم حلى نسائهم من الحجارة ، وتغير الحال بدخول التجار فى دارفور وتمصرت متاجرهم وعملوا حينذاك سكة يتعاملون بها فى البيع والشراء فانقسمت بذلك مجموعات السكان أقساماً ، وأعمل كل قسم من المعاملة مايتناسب مع حاله وأول هذه الاقسام الفاشر وهى مقر السلطنة ، فقد جعلوا من القصدير خواتم يشترون بها مايحتاجونه من مأكل وغيره وهذه الخواتم تنقسم إلى قسمين رفيعة وغليظة ، ويتعاملون بالخواتم الرفيعة فى الأمور البسيطة ويتعاملون فى الأمور الكبيرة بالتكاكى جمع تكية (بضم التاء وكسر الكاف المشدد وفتح الباء) وهذه التكية عبارة عن شقة من غزل القطن طولها عشرة أذرع وعرضها ذراع وهى على نوعين : شبيكة (بكسر الشين وفتح الكاف) وهى نسيج خفيف غير مندمج والثانية كتكات (بفتح الكافين وسكون التاء) ونسيجها ثقيل مندمج وتعادل كل قطعة من التكاكى بريال فرنسى ومن الكتكات كل قطعتين ونصف بريال فرنسى .

وما عدا ذلك فبيعهم كله بالمقايضة شئ بشئ . وتباع الحاجيات الكبيرة بالرقيق "(١) .

والملاحظ أن هذا الريال الفرنسى هو المعروف باسم أبومدفع . وهو أيضا معروف بهذا الاسم فى حوض النيل الأوسط . كما أنهم يستعملون فى حوض النيل الابيض قطع القماش فى المعاملات بنفس الصورة المستعملة فى دارفور(٢).

---

(١) محمد بن عمر التونسى : تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان . مرجع سابق ص ٢٩٧.

(٢) انظر الشاطر بصيلى عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقى والاوسط . مرجع سابق ص ٣٨٧.

ويذكر التونسى أن أهل كيكبية يتعاملون بالحرش (حاء مفتوحة وراء مكسورة) وهو خرز ليس بالغليظ ولا بالرفيع ومنه أخضر وأزرق يعمل سبحا فى كل سبحة مائة حبة ويستعمل لزينة النساء كما يستعمل فى البيع والشراء للحاجيات الصغيرة ٠ وقيمة التكية ثمان سبح وتسير المعاملات فى بقية الأحوال كما هى عليه فى الفاشر.(١)

ويتعامل فى منطقة قوطة وما والاها بالفلقة (سكون اللام وضم القاف) وهو ملح يستخرج من تراب الأرض يصب عليه الماء لترسيب الأوساخ والتراب ويصفى ويقطر ماؤه ويتلقون المقطر منه فى قوالب كالأصابع ليجمع بعد برودته ٠ ويذكر التونسى أنّ لهذا لملح لذة عجيبة فى طعمه تخالف تلك التى فى الملح الطبيعى إلا أنّه غيرشفاف وفيه سمرة ٠ وفى دارفور ثلاثة أنواع من الملح : الزغاوى وهو ملح طبيعى يستخرج من بئر الزغاوى وميدوبى وهو ملح طبيعى ولونه أحمر وتستخرج منه قطع كبيرة وهو غال فى ثمنه وثالثها هو الفلقه السابق(٢) ٠

وفى منطقة كسا يتعاملون بالدخان الذى يعرف باسم التابا(٣) ويصنع منه أحجام على شكل أقماع هرمية مصنوعة من ورق الدخان الأخضر يعد دقة فى مهراس من خشب حتى يصير كالعجين ويجفف فى الشمس وهو شديد الرائحة ويتعامل به فى صغائر الحاجيات ومن هذه الأقماع ماهو صغيروكبير ويتعاملون أيضا بربطات غزل القطن طول الواحدة عشرة أذرع وفيها عشرون فتلة وتستخدم

---

(١) انظر تشحيذ الاذهان ٠ مرجع سابق ص ٢٩٨٠

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٩٩٠

(٣) لعله تصحيف لفظى لكلمة التبغ ٠

فى المعاملات الصغيرة كما يتعاملون أيضاً بلوزات القطن بعد جنيه "(١).

ويتعاملون فى سوق رأس الفيل بالحشاشات وهى قطع حديد يستخدم فى حرث الأرض . ويتعاملون فى الأمور البسيطة من حشاشة إلى عشرين ومازاد ، فبالتكاكى أما فى تموركه فمعاملتهم بدمالج النحاس وتستخدم فى الأمور الهامة وبالحذور (بفتح الحاء وتشديد الذال وفتحها) وهذه تستعمل فى المسائل الصغيرة ويتعاملون كذلك بالذرة والدخن كما يتعاملون بالبقر فيشترى الفرس مثلا بعشرة أو بعشرين بقرة (٢) .

وهكذا تختلف أساليب المعاملات فى سلطنة الغور من منطقة إلى اخرى. سبقت الاشارة فى النظام الادارى إلى أن هذه السلطنات قد ضعفت فى أواخر أيامها وانفرط فيها حبل النظام وتهدد الأمن فانعكس ذلك كله على النشاط الاقتصادى حيث لم يكن هناك سلطة عامة موحدة تستطيع أن ترسم سياسة اقتصادية موحدة أو مشتركة تشرف على أوجه النشاط الاقتصادى فى أقاليم السودان المختلفة وتوجه هذا النشاط وفق حاجات البلاد ومقتضيات الظروف والأحوال(٣) .

وخلاصة القول أنه لم يوجد بالسودان قبل امتداد الادارة المصرية إليه دول أو حكومات بمعنى الكلمة تشرف أو تنظم نواحى النشاط الاقتصادى المختلفة فى البلاد إذ فيما عدا الضرائب والرسوم التى كان السلاطين والملوك يجمعونها من التجار والمزارعين والبدو والحرص على تنظيم قوافل التجارة التى كان لهم فيها النصيب الأوفر ، فقد ترك كل شئ يكيف نفسه

---

(١) انظر التونسى : تشحيذ الاذهان . مرجع سابق ص ٣٠١.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٠٢ .

(٣) انظر د. نسيم مقار : الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى - مرجع سابق ث ٢٧.

وفق ظروفه الطبيعة الخاصة ، حتى أن الباحث في أحوال السودان الاقتصادية في ذلك الوقت يجد نفسه أمام أوجه للنشاط البشرى التلقائى الذى فرضته ظروف البيئة على الانسان ونتيجة لتفاعلها معه أكثر من أن يكون نشاطاً موجهاً من قبل الحكومات السودانية القائمة وقتذاك .

فالتجارة على سبيل المثال وقد كانت تمثل أهم مظهر للنشاط الاقتصادى، في الأقاليم السودانية قبل امتداد الادارة المصرية إليها فى سنة ١٨٢٠م أسهم فيها مختلف الجماعات من بدو وسكان مدن وقرى وحكام ، هذا المرفق الحيوى الهام فى اقتصاد البلاد كان يتهدده خطر داهم يتمثل في غارات السلب والنهب التى اعتادت بعض القبائل البدوية شنها على القوافل عند مرورها عبر الصحراء حيث يقطن أكثر هذه القبائل وبخاصة على الطرق الصحراوية التى كانت تربط شمال الوادى بجنوبه (١) .

هذا ما كان عليه أمر النظم الاقتصادية فى الممالك السودانية قبل أن يقوم محمد على باشا بحملته التى نتج عنها ضم هذه الممالك إلى الادارة المصرية وسنتناول فى الصفحات التالية النظم الاقتصادية والمالية التى أوجدها محمد على فى السودان بعد أن أصبح جزءاً من دولته .

ـ النظام الاقتصادى والمالى فى السودان فى عصر محمد على :

بعد أن تم لمحمد على ضم السودان إلى أملاكه على يد ابنه اسماعيل كامل باشا وصهره محمد بك الدفتردار ـ أنشأ فيه نظاماً اداريا أشبه بالنظام الادارى الذى كان قد أنشأه فى مصر ـ كما سبقت الاشارة عند الحديث عن النظام الادارى ـ وبالتالى كانت سياسة محمد على الاقتصادية والمالية

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩ .

تبعاً لهذا النظام الادارى وأشبه بسياسته فى هذا المجال فى مصر.

وقد سبق أن أشرت إلى الاهداف التى دفعت محمد على لفتح السودان فكان منها أهدافاً اقتصادية تتمثل فى استخراج الذهب وتأمين طرق التجارة(١).

ترك محمد على لابنه اسماعيل تقدير مايراه مناسباً من الضرائب عند فتحه للسودان وذلك لأن السودان كان مجهولاً بالنسبة لمحمد على . وبعد أن تم الفتح أرسل محمد على ابنه ابراهيم باشا ليعاون أخاه الأصغر فى ادارة البلاد وتنظيم اقتصادها وذلك لما له من خبرة فى الشام والحجاز.

اهتم ابراهيم واسماعيل بأمر الضرائب وتقديرها على الناس وكان من رأى ابراهيم باشا أن يجرى احصاءاً تقريبياً لعدد من القرى فى الأقاليم السودانية من أفواه الذين يوثق بكلامهم وبعد عمل هذا الاحصاء التقريبى كانت النتيجة أن قرى سنار والحلفاية تبلغ ثلاثة آلاف قرية وفازوغلى ألف قرية وكردفان وألف وخمسمائة قرية ولم تزد فى الوثائق احصائية عن قرى مناطق بربر وشمال السودان . ورأى ابراهيم أن يعين قائمقام مع عشرة من الفرسان وعشرة من الجنود المغاربة على كل من ١٣-١٧ قرية لجمع خراجها وقدر انه يمكن الحصول على ألف أو ألفين من الريالات فى كل قرية (٢)

ولكن فى تقديرى إن عدم معرفة ابراهيم باشا بواقع البلاد وباقتصاد أهلها هو الذى جعله يتصور امكانية الحصول على هذه المبالغ الكبيرة

---

(١) انظر الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل . مرجع سابق ص ١٥٦-١٥٧. ود. سليمان محمد الغنام : قراءة جديدة لسياسة محمد على باشا التوسعية ١٨١١-١٨٤٠م فى الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا . تهامة . الطبعة الاولى ١٩٨٠م ص ٤٨.

(٢) انظر مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١١٥.

فنظام الضرائب الذى أقامه محمد على فى السودان والذى هو من المقومات الرئيسية لسياسته المالية فى هذه البلاد لايختلف - كما ذكرت - فى جوهره عن النظام الضريبى الذى طبقه فى مصر من حيث أنه يقوم أصلاً على أساس أن تدفع الضريبة نقدًا . وربما كان دفع الضريبة بالنقد أمراً مألوفاً عند المصريين بحكم تقدم مجتمعهم وتمدنه بيد أنه أمر لم يعتده السودانيون إذ كانت غالبية التعامل بينهم تجرى بطريقة المقايضة أو المبادلة بالسلع والمنتجات المختلفة . وليس من شك فى ان حكومة محمد على قد أخطات التقدير حين افترضت وفرة النقد فى السودان وفاتها أن الحال فى السودان غيره فى مصر (١) .

ترك اسماعيل باشا بعد عودة أخيه إلى مصر - أمر تقدير الضرائب إلى وكيله سعيد افندى والمعلم حنّا الطويل فقاما بتسجيل القرى ووضعا عليها ضرائب باهظة لم يألفها الناس من قبل فقد رأيا أن يدفع صاحب الحمار خمسة ريالات فى العام وكذلك صاحب الشاة فى وقت ماكانت الشاة ولا الحمار يساوى ثمنها هذا المبلغ وبالطبع " ماكان لوكيل مثل محمد سعيد أفندى يريد أن يرتفع فى عين رئيسه أو لمباشر كحنّا الطويل يريد ان تتضخم الجزية التى يحرسها أن يفعلا غير ذلك وربما كانا يقيسان الحالة بمصر وهما يجهلان مبادىء الاقتصاد ويجهلان أن السلع تختلف قيمتها باختلاف البلاد . وهذه المقارنة قادتهما إلى ارتكاب ذلك الخطأ الفادح فأهل السودان آنذاك اغلبيتهم تتعامل بالذرة والدمور كنقد والريالات المتداولة

---

(١) انظر د.نسيم مقار : الاسس التاريخية للتكامل . مرجع سابق ، ص ٦٢-٦٣.

بين الناس قليلة . والسودانى الذى يريد ان يقوم بتأدية هذه الضريبة الباهظة قد يعوزه السوق الذى يبيع فيه ماشيته "(١) .

وقد أدت هذه الاجراءات المستحدثة إلى فرار قطاع كبير من السكان الذين لجاوا إلى تخوم بلاد الحبشة كما فكر بعضهم فى الثورة على النظام الجديد . وكان المعلم حنا الطويل قد ارسل الدفاتر التى قدرت فيها الضرائب الى مصر لاعتمادها . فلما راى اسماعيل باشا الأثر الذى احدثته هذه الاجراءات فكر فى تعديلها وبعث بهجان ليلحق بالدفاتر التى ارسلت الى مصر ويرجعها ولكنه لم يدركها فحذف اسماعيل جزءا كبيراً منها بأن أنزل الخمسة ريالات الى ريالين وأمر الجباة باستعمل الرفق واللين فى تحصيلهما "(٢) .

ولكن اسماعيل باشا لم يستعمل هذا الرفق واللين مع نمر ملك الجعليين حين طالبه بمبلغ ضخم احتج عليه الملك نمر مما جعل الباشا يشىء إليه الأمر الذى تسبب فى مقتل اسماعيل .

ذكرت فى فصل النظام الادارى ان الشئون المالية والضرائبية قد اختص بها المباشر أو الباشكاتب وهو الذى يتولى تقدير الضرائب وتوزيعها على أقسام المديرية المختلفة ويقوم بعمل حسابات المديرية لتقدم للخزانة العامة فى القاهرة فى الوقت المعين ويكون ذلك بجمع حسابات الأقسام التى تضمها المديرية وعمل حساب اجمالى فى دفتر خاص يصدق عليه مدير المديرية والحكمدار ويشفع بالمستندات المالية اللازمة (٣) .

---

(١) د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١١٨.

(٢) انظر المرجع السابق نفسه ص ١١٩.

(٣) انظر د. نسيم مقار : الأسس التاريخية للتكامل ص ٤٨.

" ويعاون الباشكاتب فى الشئون المالية والضرائبية الصراف ويتولى رؤية الحسابات النقدية فى المديرية . وفى المناطق التى يكثر فيها التعامل بالاقمشة التى تصنع محلياً ويقدمها الأهالى من حساب الضريبة المقررة عليهم كما هو الحال فى مديرية دنقلة كان يعين فيها صراف لرؤية أمور الجوالات والقماش . كذلك فى المناطق التى يكثر فيها التعامل بالذهب والفضة وتكون أكثر المعاملات التى ترد لخزانة المديرية أو تصرف منها من هذين المعدنين كما فى مديرية سنّار وفيزوغلى[1] وكان يعين فيها صراف مختص باختبار الذهب والفضة وضبط عيارهما ويعرف بالمعيارجى" [2] .

هذا ويدخل ضمن اختصاصات الحكمدار القيام بجولات تفتيشية فى المديريات والمراكز وبخاصة عند وقوع حوادث رشوة او اختلاسات مالية . وفى تلك الحالة تتولى لجان فنية تكون عادة مرافقة للحكمدار وتضم عددا من المفتشين الماليين والكتبة مهمة فحص اوراق وحسابات الجهة التى تقع فيها مثل هذه الحوادث . وهو مايعرف بنظام التفتيش المالى[3] وقد تطرقت لذكره عند حديثى عن النظام الادارى فى عصر محمد على .

أدرك محمد على بعد فترة خطأ سياسته الاقتصادية فى السودان والتى كانت غايتها أول الأمر الاستغلال السريع غير المنظم الذى يصل أحيانا الى درجة الاستنزاف وتمثل ذلك فى حرصه على ارسال العبيد إلى مصر وحرصه الشديد على جمع السلع والمنتوجات السودانية ذات القيمة التجارية مثل الصمغ وسن الفيل وريش النعام وحثه الحكام والموظفين على بذل الجهد والسعى للحصول عليها بكافة الطرق والوسائل . هذا إلى جانب إهتمامه البالغ بأمر التنقيب عن معدن الذهب فى بعض مناطق السودان . ولكن سرعان ما اتضح

---

(١) هكذا والصحيح فازوغلى .
(٢) د. نسيم مقار : الاسس التاريخية للتكامل الاقتصادى ص ٥٠.
(٣) انظر المرجع السابق ص ٤٥.

لمحمد على فشل خطة السعى إلى الاستغلال السريع غير المنظم وأدرك أن الحصول على المنافع الحقيقية والشاملة لاتكون بهذه الطريقة إذ أن السودان غنى بموارده الطبيعية المتنوعة (١) .

ويشير الدكتور شوقى الجمل إلى أن امتداد الادارة المصرية للسودان ترتب عليه زيادة فى حجم التجارة الخارجية بالاضافة إلى تنظيم التجارة الداخلية حيث بدأت تنتشر العملة المصرية الفضية والجنيه المصرى خاصة فى مدن السودان الكبرى (٢) .

كذلك تشير المراجع الى أن محمد على قد اهتم بالبلاد السودانية إهتماماً كبيراً بعد أن وصلته أنباء الدمار الاقتصادى الذى أصاب هذه البلاد نتيجة لسياسة ولاته ، فأرسل خورشيد باشا حكمداراً على السودان وأمر أن يرسل معه ماينوف على المائة من الفلاحين والخولية وزعوا على الأخطاط المختلفة يعلمون الأهالى بالطريق العلمى أحدث وأنفع طرق الزراعة . كما وضح لخورشيد باشا أن الانتاج الزراعى يجب أن يبنى على الرى المستديم لا على مياه الأمطار ، فطلب عمالاً من مصر يجيدون صناعة السواقى المصرية لتروى بها أراضى بلاد الجعليين كما طلب عمالا آخرين لحفر الترع حيث تستغل مياه الفيضان . وفى الجزيرة أغرى خورشيد السكان الذين يقطنون بعيداً عن النيل بأن يبنوا بيوتهم عليه وينشئوا السواقى هناك .

وقد استحضرت أغراس الأشجار المثمرة من مصر لتزرع فى السودان وشجعت بعض المزروعات كالنيلة وقصب السكر ولتحسين نسل الضأن الموجود بالسودان ، جلبت أكباش ممتازة من مصر لتحقيق هذا الغرض (٣) .

---

(١) د. نسيم مقار : الاسس التاريخية للتكامل الاقتصادى ص ٥٦-٥٧ .
(٢) انظر د. شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل مرجع سابق ج٢ ص ٣٥ .
(٣) انظر د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٢٨ .

ودعا خورشيد باشا لاجتماع موسع يضم معظم الاداريين بالبلاد وذلك لمناقشة الوضع الاقتصادى والمالى وقد تم هذا الاجتماع فى يوم السبت الثامن من محرم سنة ١٢٤٢ هـ الموافق ١٢ اغسطس سنة ١٨٢٦م وقد حضر هذا الاجتماع صاحب الدولة الدفتردار وحسن أغا ناظر المواشى وحسين بك ورستم أفندى ناظر القماش ومحمد أفندى ناظر القسم الثانى للمعامل (الفاوريقات) وراتب أفندى وكيل ناظر الكيلارية (١) وأمين افندى وكيل الأصناف وأمين أفندى ناظر المبانى الأميرية وعبد الرازق أغا مأمور التقارير والمعلم حنا الطويل وآخرين . وقد كتب بهذا الاجتماع محضر وارسل إلى القاهرة وهو محفوظ بدار المحفوظات المصرية (٢) .

فى بداية هذا الاجتماع قال خورشيد باشا مخاطبا الحضور: "ونحن نبذل مافى وسعنا ومقدورنا فى عمران هذا الأقليم ولكننا نرى هذا الأقليم فى غاية من الخراب والتشتت والوقت لايسمح لنا أن نتجول فى أنحاء البلاد كى نطلع على الدرك الذى أنحطت اليه من الخراب إطلاعا مصيبًا لحلول الأمطار فكل واحد منكم قد قضى فى هذه الديار سنة أو سنتين أو ثلاث سنين فأنبئونا بما عندكم من العلم بما يختص بعمرانها أو خرابها كما وكيفا" (٣)

كانت أول مشكلة تعرض لها هذا الاجتماع هى مشكلة المواطنين الفارين من الضرائب وكيفية طمأنتهم وتحصيل الضرائب السابقة منهم حيث قال أحد الحاضرين: "واما مسألة عمران الجزيرة وتحصيل الأموال الأميرية فلم يقبض

---

(١) كلمة كيلار كلمة تركية من أصل يونانى وهى غرفة تخزن فيها حوائج البيت من المواد الغذائية والكيلارية تعنى المخازن . انظر تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى فى الدخيل . مرجع سابق ص ١٨٠.

(٢) عابدين : المعية ـ محفظة ١٩ ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٢.

(٣) د. محمد فؤاد شكرى ـ الحكم المصرى فى السودان . مرجع سابق ص ٣٢٠.

شئ من مال سنة احدى وأربعين (١٢٤١هـ) حتى الآن ولن يمكن تحصيل شئ منه بعد ذلك مادامت البلاد خربة ، وأما مال سنة اثنين واربعين (١٢٤٢ هـ) فاذا نزلت الامطار كالمعتاد قديمًا ورجع الفارون أو الهاربون وعمرت الجزيرة ومنع من الناس ظلم العساكر ومنعت سخرتهم وصار رفع الاهانة عنهم، اهانة العربان واذاهم ، ولم يطلب منهم المال بموجب الترتيب والتوزيع القديمين ، بل وزع بمعرفة خورشيد على السواقى والجرف والجزر والقرى على حسب قدرة كل شخص وبمقتضى القانون توزيعًا لائقًا وحسبت الذرة والسمن والقماش المأخوذ منهم لحاجة الجنود من المطلوبات الأميرية فأنه يمكن قبض سدس المطلوبات الأميرية من الجزيرة وحلفا والبحر الأبيض بموجب الدفتر الذى نظمه حنا الطويل . وأما سنة ثلاث وأربعين (١٢٤٣هـ) فلاذا روعيت فيها المساعدة والاعفاء أيضًا وأنشئت سواقى بالأقاليم وزرع القطن والنيلة وصار شراؤهما من الرعايا بأثمان مناسبة فى مقابل المطلوبات الأميرية ، فأنه يمكن قبض ثلث الأموال الأميرية بموجب الدفتر القديم وعلى هذا يمكن قبض نصف المال الأميرى سنة أربعة وأربعين (١٢٤٤هـ)(١) .

وقد تحدث فى هذا الاجتماع كل من موسى الكاشف وعثمان أغا ناظر المهمات وصالح أغا وحنا الطويل أما الدفتردار فقد قال : " أنا أيضا نزلت إلى سنار فى شوال سنة ١٢٣٨ ففتحت خراج ١٢٣٧ هـ فى ربيع الأول سنة ١٢٣٩هـ (٢) . وقد افتتح أيضًا عثمان بك خراج سنة ١٢٣٨ هـ فى ربيع الأول سنة ١٢٤٠ هـ . وقد قال مباشر سنّار فى تقريره أنه يمكن تحصيل ألف كيس من مال خراج سنة ١٢٤٢ وأمّا مال سنة ١٢٤٣ فيمكن تحصيل أربعة آلاف كيس

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان - مرجع سابق ص ٣٢١.
(٢) لعل السبب فى تاخير الخراج هو اضطراب الاحوال الامنية بسبب مقتل اسماعيل باشا .

منه بعد مساعدة البلاد واعانتها . فعلى تقرير المذكور يمكن تحصيل ستة آلاف كيس من مال خراج سنة ١٢٤٤ هـ بعد بذل الاعانة وصرف الجهد على الوجه المشروع (١) .

وعند الحديث عن الايرادات طلب الاجتماع من المعلّم حنّا الطويل توضيح المقدار الذى يبلغه الايراد فأخذ المعلّم دفتر الايراد وقرّر المعلّم ميخائيل(٢) بموجب ترتيب المعلّم حنّا الطويل أنّ ايراد نفس جزيرة سنّار يبلغ ١١١٠٠ كيس وأنّ ايرادها حقّاً يبلغ ٢٩٤ كيساً وأنّ الايراد الوارد من العرب بجهة النيل الأبيض يبلغ ٣١٤ كيساً وأنّ المجموع كله يبلغ ١١٧٠٨ كيساً(٣).

هذا وقد ترك المجتمعون أمر تعديل هذه المبالغ للحكمدار خورشيد باشا. بعد ذلك ناقش المجتمعون أمر زراعة الأفيون التى كان محمد على باشا قد بدأها فى السودان فقرروا وقف هذا النشاط وذلك لأنّ الأفيون لم يُنتج فى السودان . كما قرر الاجتماع إرجاع خبراء الأفيون إلى مصر حيث أنّ مرتباتهم الشهرية تكلف الحكومة اثنى عشرة كيساً (٤) .

كذلك ناقش هذا الاجتماع مواضيع اقتصادية أخرى مثل صناعة الدباغة والتنجيم عن الذهب ومتأخرات الجند وتوزيع الخولية الذين أتوا من مصر بصحبة خورشيد باشا كما ناقش الاجتماع موضوع إقليم عطيش التابع للحبشة حيث أنّه أصبح ملجأً للفارين من الضرائب (٥).

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٣.

(٢) لاحظت أنّ معظم القائمين على النظام المالى فى السودان فى عهد محمد على وأبنائه كانوا من الأقباط .

(٣) انظر د. محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان مرجع سابق ص ٣٢٨

(٤) يتعجب المرء كيف تقوم دولة مسلمة بتشجيع مثل هذا النوع من النشاط الاقتصادى فى الوقت الذى كانت فيه الدول غير المسلمة تقوم بمحاربة زراعته بشتى السبل .

(٥) انظر د. محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان – مرجع سابق، ص ٣٢٠ ومابعدها.

بلغ من اهتمام الادارة المصرية وحرصها على رفع مستوى إدراك السودانيين فى نواحى النشاط الاقتصادى المختلفة وتزويدهم بالخبرات اللازمة للاستقلال موارد بلادهم الطبيعية على الوجه المرضى ، أنها فرضت على الخبراء والفنيين المصريين الذين يقومون بتعليم السودانيين وتدريبهم فى المجالات الاقتصادية أن يقوم كل واحد منهم حسب مجاله بتعليم وتدريب عدد معين من السودانيين ، بل وألا يغادر البلاد السودانية إلى الديار المصرية قبل أن يتم له ذلك . وهذا مافعلته مع المشايخ والخولية والمهندسين الزراعيين ومع أصحاب الحرف مثل الدباغين والحدادين والنجارين (١) .

سعت الادارة المصرية فى المجال الصناعى الى تعليم السودانيين وتدريبهم على بعض الحرف والصناعات مثل صناعة دبغ الجلود وصناعة النيلة التى تستخدم فى صناعة الاقمشة . كما اهتمت هذه الادارة بصناعة السفن والتعدين .

أما فى مجال الزراعة فنجد أن محمد على عند زيارته للسودان عام ١٨٣٨ / ١٨٣٩م قد شرح للزعماء والمشايخ السودانيين فضائل الزراعة ووضح لهم ماتتمتع به بلادهم الواسعة من الأراضى الخصبة ومايمكن أن يعود عليهم بالنفع والخير والتقدم وحثهم فى الوقت نفسه على أن يوفدوا أبناءهم إلى مصر ليستزيدوا بالعلم والمعرفة (٢) .

ويبدو أن حديثه كان له تأثير كبير فى نفوسهم ، فسارعوا إلى تلبية الدعوة وسافر بالفعل بعضهم ـ كما سبقت الاشارة فى نظام التعليم ـ حيث

---

(١) انظر د. نسيم مقار ـ الأسس التاريخية للتكامل . مرجع سابق ص ٦٠.

(٢) انظر : مجلة آداب القاهرة العدد ٨ المجلد الثانى ص ٤٤ .

التحقوا بمدارس مصر التجهيزية والفنية وقد أوصى محمد على المسئولين بوجوب معاملتهم معاملة ممتازة نوعًا ما عن التلاميذ الآخرين نظرًا لمجيئهم من بلاد بعيدة وروعى أن تكون مدة تعلمهم ثلاث سنوات - يتعلمون فيها في بادىء الأمر القراءة والكتابة حتى إذا ظهرت كفاءتهم بدأوا في تعلم فن الزراعة لتكون لهم القدرة التامة علمًا وعملًا في الشئون الزراعية (١) .

واستكمالا للمنفعة أمدت الحكومة الفلاحين بالآلات الزراعية التي كان يستعملها الفلاحون المصريون وتتذكر أهمها المحراث الحديدي الذي لم يكن قد انتشر استعماله في بلاد السودان حتى ذلك الوقت . وفي الوثائق إفادة من مجلس شورى المعاونة إلى وكيل الجهادية يستعجله فيها ضرورة إرسال خمسمائة محراث (٢) .

ولقد توسعت الادارة المصرية بصفة عامة في اقامة السواقي وشجعت الأهالي في جهات السودان المختلفة على الاكثار منها وبخاصة في المناطق التي أقامت فيها بعض مشروعاتها الزراعية لانتاج الغلات والمحصولات الجديدة وكذلك في الأراضي الخالية " البور " حيث سمحت للمواطنين أن يقيموا عليها السواقي بقصد استغلالها في الزراعة وزيادة عمرانها ،(٣) حتى أنّ أحد الباحثين قد ذكر أنّ قرية القطينة (٤) الواقعة على الطرف الشمالي للنيل الأبيض كانت تنتج محصولاً وفيراً من القمح بفضل الساقية المصرية التي عرفها أهالي هذه الجهات منذ الفتح التركي المصري فقط . كذلك اهتمت الحكومة بحفر الترع

---

(١) انظر محمد عمر بشير : تطور التعليم في السودان . مرجع سابق ص ٤٠ .

(٢) انظر د. نسيم مقار : الأسس التاريخية للتكامل . مرجع سابق ص ٧١ .

(٣) انظر المرجع السابق نفس الصفحة .

(٤) سماها الكاتب قرية جوتينة والصحيح القطينة وربما يكون السبب في ذلك ان الكاتب استقى معلوماته من مصادر أجنبية .

والقنوات والآبار في بعض جهات السودان التي يتطلب التوسع الزراعي فيها مثل هذه الوسائل لري الأرض كدنقلة وسنّار وكردفان وبربر التي بعث حاكمها مرة إلى حكومة القاهرة يفيدها بوصول المهندس الذي أُرسلته لحفر الترع في الاقليم المذكور ٠

وقد ذكرت بعض المراجع أنّ عدد الآبار التي قامت الحكومة المصرية بحفرها قد بلغ خمسة آلاف بئر (١) وهذا يدل على عظم اهتمام الادارة المصرية بأمر الزراعة في السودان ومحاولة تطويرها والنهوض بها ٠

في ختام هذا الفصل يلاحظ الباحث أنّ النظام الاقتصادي في السودان في عهد محمد علي - مثل بقية النظم - وجد اهتماماً كبيراً من الحكومة إلا انها لم تضع سياسة واضحة في هذا المجال بل تركت الأمر لتقدير المسئولين ٠

ملاحظة أخرى، هي أنّ الادارة المالية في القاهرة كانت تتحكم في حسابات السودان فترسل حسابات السودان المركزية والمحلية شهرياً وسنوياً إلى القاهرة لتسجيل مقدار الدخل والانفاق وحساب حصول الفرق بينما سارت سياسة محمد علي على مبدأ ضرورة قيام السودان بدفع نفقات حكمه وقد طالب خورشيد باشا بانشاء ادارة للحسابات خاصة بالسودان (٢) ٠

كذلك طبق محمد علي نظام الاحتكار الزراعي والصناعي في السودان كما طُبق في مصر وإن لم يكن تطبيق هذا النظام في السودان بنفس المستوى الذي طبقه به في مصر، إذ يلاحظ أنّ الاحتكار في السودان لم يشمل الحبوب وغيرها من الغلات الزراعية التي اعتمد عليها المواطن السوداني في معيشته ٠ ولكن بصفة عامة لم يكن السودانيون راضين عن نظام الاحتكار الذي فرضه محمد علي

---

(١) انظر: محمد صبري : الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ٠ مرجع سابق ص ٧٢ ٠

(٢) انظر د٠ ابراهيم شحاته حسن : مصر والسودان ٠ مرجع سابق ص ١٠٨ ٠

على بعض نشاطهم الاقتصادى ، بل لقد عدّوه هو وغيره من النظم الجديدة تقييداً لحريتهم حيث أنّها لم تكن مألوفة لديهم من قبل بغض النظر عن الفوائد والمنافع التي قد تنجم من جراء تنفيذها أو العمل بها[1] .

ولعل من أكبر الأخطاء التى رافقت النظام المالى والاقتصادى ولازمت جهاز الحكم بصفة عامة هى الطريقة التى كانت تجبى بها الضرائب القادحة فقد مورست وسائل قهرية لاجبار المواطنين على الالتزام بما فرض عليهم من ضرائب ، الأمر الذى اضطرهم إلى الهجرة وترك ديارهم مما ترتب عليه خلخلة كبيرة فى بنية الاقتصاد السودانى التقليدى الذى كان يعتمد على العنصر البشرى فى الزراعة والرعى .

هذا ماكان عليه أمر النظم الاقتصادية فى السودان أبان فترة محمد على وسنرى التطور الذى حدث فى هذا المجال خلال مطالعتنا للفصل التالى .

...

---

(١) انظر د. محمد صبرى : الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر ص ٧٢ ود. نسيم مقار : الأسس التاريخية للتكامل . مرجع سابق ص ٥١-٦٢.

الفصل الثانى

النظام الاقتصادى والمالى فى السودان

فى الفترة من ١٨٤٩ - ١٨٨٥ م

تمهيـد :

بعد أن عرفنا التطورات التى حاول محمد على ادخالها فى السودان فى مجال النظام الاقتصادى والمالى وذلك من خلال مطالعتنا للفصل السابق ، نستعرض فى هذا الفصل سياسة خلفاء محمدعلى فى هذا المجال وسنبدأ بفترة عباس الأول وسعيد باشا ثم نستعرض جهود الخديو اسماعيل فى هذا الجانب .

أولاً : فترة عباس الأول :

ذكرت عند الحديث عن النظام الادارى أنّ عباس الأول عندما تربع على حكم مصر وملحقاتها جعل اهتمامه الأول هو تصفية حساباته مع أفراد أسرة محمد على فانشغل بحيك المؤامرات وتنفيذها عن سياسة دولته ورفاهية شعبه . وانقضت السنوات الخمس التى قضاها فى الحكم دون أن ينجز أعمالا كتلك التى أنجزها جده محمدعلى .

انتهز الحكّام فى السودان انشغال عباس عنهم فعاشوا فى الأرض فساداً حيث انتشرت الرشوة بينهم وعمّ الفساد وخربت النفوس وفرضت الضرائب الباهظة على الشعب المسكين .

ولما تفاقم الأمر حاول عباس أن يخفف حدة الرشوة المنتشرة بين الاداريين والموظفين كبارهم وصغارهم فعالج ذلك بأن عيّن موظفين برتب أعلى فى الوظائف المسئولة وكانت أول خطوة قام بها فى هذا المجال هى تعيينه للمديرين برتبة الأمير الاى بعد أن كانوا من قبل فى رتبة القائمقام وكان يظن أنّ الموظف المسئول إذا كان فى رتبة عالية وتناول مرتباً عالياً خفت حدة رغبته فى استلام الرشاوى كما أنّ رتبته العالية وكبرياءها سوف تمنعانه من قبول الرشوة (١) .

---

(١) انظر ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث مرجع سابق ص ٧٠.

كما حاول أن ينظم النواحي المالية في السودان وذلك بوضع أسس صحيحة للحسابات والمراجعة المالية العامة، ولذلك وفدت على السودان أعداد كبيرة من الأقباط للقيام بهذا العمل . وبحث هذا الفريق في الشئون المالية والاقتصادية في السودان وكان التعدين والبحث عن الذهب من أبرز الصعوبات التي واجهتهم لأنهم بعد مراجعة الصرف والدخل وجدوا أن استخراج الذهب يكلف أكثر مما ينتج وهذا ما جعل الخديو عباس يأمر بابطال العمل في استخراج الذهب في السودان[1] .

وفي عهد عباس بدأت مجموعات من التجار الأوربيين تدخل السودان وأخذوا في تنشيط التجارة بين السودان والدول الأخرى ، كما فتحوا المتاجر والمخازن في عدة أماكن من البلاد وكانت تقابلهم بعض الصعوبات في تجارتهم ، خاصة في النيل الأبيض حيث أن الحكومة ومنذ عهد محمد على كانت تحتكر التجارة في هذه المنطقة وسبب هذا الأمر بعض المشكلات بين هؤلاء التجار وبين لطيف باشا حكمدار السودان والذى حاول أن يمنع الأجانب من استغلال جامعي الصمغ، ولذلك فقد حدد له سعرًا خاصا يعاقب من يشترى ومن يبيع بأقل منه . وبالفعل نفذ حاكم كردفان عقوبة الجلد في أحد التجار الانجليز المخالفين لهذا السعر فاحتجت الدول الأوربية على ذلك واعتبرت هذا الاجراء مخالفة لحرية التجارة الممنوحة للأوربيين في الدولة العثمانية كما تقدم هؤلاء التجار بعرائض إلى الخديو يشكون فيها الحكمدار وقد زعموا أنه يقيد تجارتهم ويحتكر لنفسه جزءًا كبيرًا من تجارة السودان ، وتجنبًا لما قد يحدثه القناصل الأجانب ودولهم من متاعب في مصر، فإن عباس باشا قد استدعى عبد اللطيف وعين بدلًا منه رستم باشا الذى اتخذ سياسة ضعيفة تجاه التجار الأجانب وأطلق يدهم في البلاد ليفعلوا مايحلو لهم حتى أصبح نفوذهم كبيرًا في كل أنحاء البلاد[2] .

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٧٠ .

(٢) انظر د مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل / مرجع سابق ص ٥٠٤ وضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ص ٧٢ .

كذلك تذكر المصادر أنّ عباس باشا حاول أن يستفيد من الماشية السودانية فيمصر حيث جلب منها ١١٠١٦ رأساًبيع منها عدد للعمل في المديريات كما بيع الباقى إلى ديوان الجهادية ليوزع لحومها علىالجنود كما أنّه جلب من الأبل حوالى ألف رأس (١)

هذاكل ماذكرته لنا المصادر التى تيسر الحصول عليها عن سياسة عباسالاقتصادية فى السودان وهيكما ترى تعكس عدم الاهتمامبالسودان وادارته الأمر الذى أدى إلى فوضى شديدة حاول سعيد أن يتداركها بعد توليه الحكم.

ثانياً : سياسة سعيد المالية والاقتصادية فى السودان :

بعد تولى سعيد لمهامه انهالت عليه الشكاوى من السودان تتحدث عن ظلم الحكمداريين الذين غرقوا فىالرشوة واستغلال النفوذ حتى إنّ بعضهم أخذ يجاهر بما يقبضه من أصحاب الحاجات (٢) .وسبق أن أشرنا فى النظام الادارى إلى عريضة مجلس الخرطوم التى أرسلوها إلى محمد سعيد باشا يشتكون فيها من الحكمدار علىباشا سرى واستغلاله لمنصبه واهماله لمصالح الناس ، الأمر الذى جعل الخديو يقوم بتغييره،ولم يكتف بذلك بل طلب إلىالحكمدار الجديد محاسبة سلفه على مانسب إليه من جرائم وأخطاء .

اهتم سعيد باشا بالسودان وحاولأن يرفع الظلم الذى لحق بالأهالى وذلك بتعيين حكام أكفاء مثل أخيه الأمير عبدالحليم وبمحاسبة الحكّام السابقين وفوق ذلك قام بنفسه بزيارة للسودان كما أشرنا من قبل . وقد راعته الحالة الاقتصادية المتردية ففكّر فىاخلاء السودان وسحب الادارة المصرية منه ولكن

---

(١) انظر د. مكى شبيكة : السودان عبرالقرون . مرجع سابق ص ١٥٢

(٢) يقصد سواقيهم جمع ساقية وهىالنواعير .

الأهالى وجوه ألا يفعل ذلك، وقد وصف سعيد الحالة التى شاهدها بقوله :
" .. ومع ذلك فأنى لما قدمت إلى هذه الاصقاع شاهدت بعينى رأسى ما يلاقيه أهلها من الضنك والفاقة وسمعت بأذنى صوت أنينهم من أحمال الضرائب التى أثقلت كاهل الغنى منهم فضلاً عن الفقير . وفداحة الخراج المضروب على سقاياتهم وأطيانهم وتسخيرهم فى كثير من الأعمال التى لاقدرة لهم على القيام بها والاتجار فى بناتهم وأولادهم كالسلعة فى الأسواق فكان ذلك مما أحزن قلبى وبلبل فكرى لاسيما وقد علمت أنهم أخذوا يهاجرون من أوطانهم إلى اقاصى البلاد هربًا من هذه الكوارث والمحن المتراكمة بعضها فوق بعض "(١).

هذه هى الحال التى كان عليها شعب السودان ابان زيارة محمد سعيد باشا مما جعله يفكّر فى رفع معاناة الناس وتخفيف الضرائب ولذلك قال فى منشوره الأول الذى أعلنه فى الخرطوم أثناء زيارته لها : " ... فقد عقدت النية على جعل الخراج قدرًا يناسب حالة البلاد وأهلها وعلى أن أبذل جهد المجتهد فى اصلاح أحوالهم وترتيب أمورهم على ما فيه الصالح لهم ولذريتهم من بعدهم(٢) " .

ولقد نفذ سعيد ما انتوى فعله حيث طلب من الأهالى أن يقدروا مبلغ الخراج الذى يسهل عليهم القيام به بلاكلفة ولا مشقة ففرحوا بذلك وطلبوا أن يربط على كل ساقية خراجًا قدره مائتان وخمسون قرشًا فى كل سنة ولكن محمد سعيد رأى أن يخفض هذا المبلغ الذى حدده السكان بانفسهم رأفة بهم ورحمة لما شاهده من ضنك وفقر وقد قال فى ذلك " ... ولكنى حبى لشعبى يحملنى على منحه أكبر قدر ممكن من الرخاء وعلى الاهتمام بشأنه حتى أضمن

---

(١) انظر محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان . مرجع سابق ص ٣٤٢.
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

عطفه ، وحتى يستطيع هو الآخر أن يهتم برعاية شئونه وتحقيق رفاهيته . ولمّا كنت أريد بالاضافة إلى ذلك أن أعيد الطمأنينة إلى قلوب أولئك الذين هاجروا حتى يعودوا إلى أوطانهم وهم لايخشون ظلماً ولاعدواناً ولاضرائب باهظة فقد أمرت ألا تزيد ضريبة كل ساقية عن مئتى قرش وخراج كل فدان من أراضى الجزائر (١) خمسة وعشرون أما اراضى العلو فعشرون قرشاً لاغير (٢) .

وقد أفرحت سياسة محمد سعيد هذه المواطنين فرحاً كبيراً إذ لأول مرة يقوم المواطنون بتقدير مايستطيعون من ضرائب على أنفسهم وفوق ذلك قام الخديو بتخفيض مقدار الخراج الذى فرضوه على أنفسهم تقديراً لظروفهم .

وأمر سعيد الحكّام بعدم الظلم واستخدام القسوة فى جباية الخراج وذلك حين خاطبهم قائلاً : " فاياكم والعنف والجور ولاتجبوا الخراج إلا فى الأوقات المناسبة واعقدوا لتقرير قاعدة ذلك جمعية فى الثلاثة شهور التى لازرع فيها ولاقلع (٣) وقسّموا الخراج على أقساط متساوية يسهل عليكم جبايتها فى آخر كل سنة بصورة تجعل من الممكن تحصيل الخراج فى بحر السنة دون أن يتعرض الأهالى لارهاق ما، ودون ترك متأخرات لديهم، ويجب أن تتألف هذه الجمعية من ١٢ إلى ٢٤ عضواً من أعيان المديرية حسبما ترونه مناسباً للمصلحة العامة، وبوصفكم رؤساء لهذا المجلس فأنتم الذين تقومون بتقسيم الخراج والنظر فى الوسائل الأكثر صلاحية لزيادة الرخاء والهدوء بصورة تؤدى إلى استتباب الأحوال فى المدن والقرى استتباباً تاماً ويجب أن ترفع إلىّ القرارات التى تتخذونها بهذا الشأن واحداً اثر واحد ثم احصوا جميع الكشّاف والجند الموكلين بجباية

---

(١) يقصد بالجزائر الجزر التى تتكون على النيل بعد موسم الفيضان ويقوم السكان بزراعتها . أما أراضى العلو فهى الأراضى التى تغمرها المياه أثناء الفيضان ثم تنحسر عنها بعد ذلك وتزرع.

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٣.

(٣) يقصد بالقلع تنظيف الأرض من سيقان وجذور المحصول السابق .

واُخلعوهم وقلدوا مكانهم مشايخ البلاد فهم أولى بذلك» (١) .

ومن خلال هذا النص من منشور محمد سعيد الذى أصدره فى الخرطوم تتضح بجلاء سياسته الاقتصادية الحكيمة فبعد مطالبته للحكّام بعدم الجور والظلم وعدم جباية الخراج إلا فى الأوقات المناسبة نراه يطالبهم بعقد مجلس يتكون من مشايخ القرى والقبائل حتى يقرروا الخراج بأنفسهم ودونما تدخل من السلطة وطالبهم بأن يكون اجتماع هذا المجلس فى الثلاثة أشهر التى لاتكون فيها زراعة ولا استعداد وربما يكون السبب فى ذلك هوحرص محمد سعيد بألاّ ينشغل هؤلاء المشايخ عن زراعتهم والاعداد لها بأىّ شاغل آخر أو قد يكون السبب هو حرص محمد سعيد أن ياتى تقدير الخراج فى وقت تكون الرؤية فيه واضحة ويستطيع كل شيخ أن يقدر ماعليه من الخراج تقديراً سليماً.

كذلك طلب محمد سعيد من الحكّام بأن يقسموا الخراج المفروض على كل العام إلى أقسام حتى يسهل ذلك على السكان فلا يؤخذ الخراج جملة واحدة كما كان فى السابق فيكون ذلك سبباً فى ارهاق المواطن أو فى بقاء متأخرات عليه .

ومن أكثر القرارات التى أسعدت السكان قرار محمد سعيد بعزل الكشّاف وهم الحكّام العسكريين الأتراك عن جباية الخراج وتعيين مشايخ القرى والمناطق بدلاً عنهم وبهذا القرار يكون محمد سعيد قد رفع عن المواطن الظلم والارهاب والتعذيب الذى كان يمارسه الجند والحكّام أثناء جباية الضرائب .وأكد محمد سعيد على قراره هذا حين قال : " وعلى الجمعية أن تعنى ضمن ماتعنى به الأمور التالية : " عليكم أن تسرحوا الكشّاف الذين هم اليوم حكام تلك الجهات وكذلك الجند الموجودين معهم ثم عليكم ألاّ ترسلوا بعد الآن كما كان الحال سابقاً جنداً لتحصيل الخراج ، فأن القرى وحدها هى التى ترسل شهرياً

---

(١) د. محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان . مرجع سابق ص ٣٤٣-٣٤٤.

خراجها حسب التقسيم بواسطة مشايخها ولاتستخدموا قوة القانون إلا بكل عدل لاجبار المتاخرين على الدفع ولتشجيع المشايخ على القيام بوظائفهم بأمانة واخلاص .، وجدت من الحكمة أن يكافأ المشايخ على خدماتهم وذلك بان تعافوهم (١) فى مقابلة هذه الخدمة برفع خراج سقاية (هكذا) فى كل خمس وعشرين سقاية (هكذا)..ومعنى ذلك ألا تحصلوا خراجًا إلا عن أربع وعشرين ساقية من خمس وعشرين بينما تبقى الساقية الخامسة والعشرين من سواقى المشايخ دون خراج وبالمثل فيما يتعلق بالأراضى فتعفون من الخراج أربعة أفدنة من كل مائة فدان تخص المشايخ (٢) .

وقدعلّل محمد سعيد اعفاء المشايخ من الخراج بقوله : " هذا وحيث أن لأولئك المشايخ والأعيان بيوتًا ينزل عليها كل طارق وقاصد ،فارفعوا عن كل منهم خراج أربعة أفدنة فىكل مائة فدان فأنه لمّا كان المشايخ - وهم أصحاب هذه المنازل - يقدمون المأوى والمأكل للسياح والمسافرين ولمّا كانوا مشهورين بضيافتهم فقد وجدتمن العدل أنيعم كرمى فيشمل نفقات هذه الضيافة وعلى ذلك فقد تركت لتقديركم بحث وتعيين مايمكن أن يمنح لهؤلاء المشايخ وما ترونه أنتم مناسبًا وعادلًا وذلك حسب مركز كل قرية "(٣) .

واستمر سعيد فى شرح سياسته المالية والاقتصادية بقوله : " وعليكم أن تقوموا بقياس الأراضى واحصاء السواقى بواسطة المشايخ الذين يجب عليهم أن يقدموا بيان ذلك إلى المديرية وأمّا إذا أرسلتم رجالًا من طرفكم لهذا الغرض وحدثت أخطاء فسيكونون المسئولين وحدهم عن هذه الأخطاء . والخراج الذى

---

(١) هكذا والصحيح " بان تعفوهم ".
(٢) المرجع السابق ص ٣٤٤.
(٣) الحكم المصرى فى السودان مرجع سابق ص ٣٤٤.

سوف يجرى تحديده على السواقى يجب أن يدفعه زارع الأرض وحاصد غلاتها وذلك حتى لايستطيع أحد أن يقول إن الملزم بدفع الخراج قد تمكن من الهرب . والخراج الذى يجرى تحديده وتعيينه على النحو الآنف الذكر يبدأ العمل به منذ هذه السنة الهجرية سنة ١٢٧٢ ويحتسب الخراج الذى حصل من ابتداء هذا العام من خراج هذه السنة وتمشياً مع هذه القاعدة يؤخذ هذا الخراج عن الأراضى التى تروى بماء الفيضاء أو ماء الأمطار أو السواقى .ولكن إذا – لاقدر الله – انخفض النيل أو احتبس المطر ، فالخراج لايستحق ولايجبى" (١) .

وبعد سفر محمد سعيد إلى القاهرة خشى أن يتهاون ولاته فى السودان فى تنفيذ سياسته المالية والاقتصادية أو أن يفسروها تفسيراً يخدم مصالحهم، فبعث بمنشور من القاهرة يؤكد فيه على سياسته السابقة ويطلب من الأهالى والحكّام العمل على تنفيذها ويقول مخاطباً ولاته وحكّامه : " فى الأمر الذى أصدرته لكم لترتيب الخراج " الضريبة " والمتعلق بوضع الترتيبات الأخرى موضع التنفيذ ذكر أن الضريبة قد حددّت على هذا الأساس منذ سنة ١٢٧٢ هـ وأن مادفعه الأهالى من بداية العام حتى الوقت الحاضر يجب أن يحسب من ضريبة هذه السنة ولكن لمّا كان كل هذ غير مفسر بشكل واضح فى المرسوم السالف ولما كان أهالى هذه البلاد أميين فأننى أخشى أن يعتقدوا أنّ هذه المتاخرات لازالت باقية عليهم وأنهم مدينون بها للحكومة ، ولذلك فأننى أردت منهذا المرسوم الجديد أن أطمئنهم فى هذا الصدد تماماً حتى يكتمل سرورهم وتتم سعادتهم وأبيّن لهم بوضوح ارادتى ورغباتى .

" يجرى طرح المبالغ التى دخلت الخزانة من بداية سنة ١٢٧٢ هـ حتى هذا اليوم بعد عمل الخصم وفق ماذكر فى أمرى السابق من خراج العام الحاضر وذلك بعد التحقق من صحة حسابات الصيارف بكل دقة . وفيما يتعلق بأولئك الذين يظلون

---

(١) انظر نص المرسوم الثانى فى ملاحق هذا البحث .

دائنين للحكومة حتى سنة ١٢٧١ بفضل تقديمهم دفعات من المال تزيد عمّا هو مستحق عليهم ، فمع أنّ العدل يقضى بأن تحل هذه الزيادات مكان المتأخرات فأننى لمّا كنت فى عداد التى لا أريد أن يفقد أحد من رعاياى شيئاً من المستحق له أطلب منكم أن تقوموا بتعويض كافة أولئك الذين ثبت أنهم دائنون للحكومة على النحو المتقدم بعد فحص دقيق عن هذه الزيادات وذلك بحسابها من خراج هذا العام المستحق عليهم[1] .

وتحقيقاً للعدل طلب سعيد من الحكّام فى الخرطوم أن تدفع الحكومة ثمن كل ماتحتاج إليه من مأكولات وأشياء أخرى أو جمال أو رجال بزيادة ٢ ٪ عمّا يدفعه السكان فيما بينهم وحتى إذا ارتفعت أثمان الأشياء فعلى الحكومة أن تدفع دائماً زيادة ٢ ٪ على الرغم من زيادة الاسعار .

وبالرغم من توجيهات سعيد وحرصه على إزالة الظلم وتوفير أسباب السعادة ، للمواطنين إلا أنّ الحكّام استمروا فى تعسفهم وظلمهم وأكلهم لأموال الناس وربما يكون السبب فى ذلك هو بعد المسافة بين الخرطوم والقاهرة وصعوبة المواصلات فيكون هؤلاء الحكّام فى مأمن من رقابة سعيد . كما إنّ تغير الحكام السريع الذى شهدته هذه الفترة كان سبباً من أسباب انتشار الرشوة والاختلاس ، إذ أن الحاكم يأتى وهو يعلم أن مدته لن تطول فيسعى بكل السبل للحصول على أكبر قدر ممكن من الأموال قبل أن يتم تغييره . وهكذا غرقت البلاد من جديد فى لجة الاختلاسات والضرائب الباهظة واستمر هذا الحال حتى عهد اسماعيل .

..

---

(١) انظر نص المرسوم الثانى فى ملاحق هذا البحث .

ثالثاً : النظام المالي والاقتصادي في عصر اسماعيل :

اتخذ النشاط المالي والاقتصادي في السودان في هذه الفترة أشكالا متعددة يمكن أن نلاحظها في أوجه النشاط التالية :

أ ـ الزراعة .

ب ـ الصناعة والتعدين .

ج ـ التجارة والمواصلات .

د ـ المالية والضرائب .

أولاً : الزراعة :

من المحامد التي ينبغي أن تذكر لهذا العهد اهتمام ولاته بالزراعة ومحاولة تطويرها وتحديثها إذ أن طبيعة السودان الجغرافية تجعل منه قطراً زراعياً بالدرجة الأولى . ولقد رأينا من قبل اهتمام محمدعلى بالزراعة في السودان انطلاقاً من هذه الحقيقة الواقعية .

إلا أن حكومة الخديو اسماعيل في السودان قد قامت بخطوة موفقة وعلمية حيث قامت بعمل دراسة لجميع الأراضي الصالحة للزراعة في السودان وقد شملت هذه الدراسة المسحية محافظات سواكن والتاكة والقضارف وسنّار والخرطوم ومديرية البحر الأبيض (النيل الأبيض) ومديرية كردفان ومديرية بربر ومديرية دنقله (١) .

---

(١) انظر الوثيقة الخاصة بهذه الاراضي ومواقعها في كتاب الدكتور السيد يوسف نصر : الوثائق التاريخية للسياسة المصرية في أفريقيا ص ٣١٥ ومابعدها .

كما قام حكام هذا العهد أيضاً بعمل دراسة للأرض فى السودان وطرق تمليكها وقد جاء ذلك فى الرسالة التى أرسلتها مديرية عموم السودان إلى المجلس الخصوصى بالقاهرة فى التاسع من ربيع الثانى سنة ١٢٩٠هـ (١) .

كما وجه الخديو اسماعيل حكّام السودان إلى الاهتمام بالزراعة ويظهر ذلك من خلال مطالعتنا للخطاب الذى أرسله الخديو إلى موسى حمدى باشا حكمدار السودان فى السادس من رجب سنة ١٢٨١ هـ الموافق الخامس من ديسمبر سنة ١٨٦٤م ، وقد جاء فى هذا الخطاب :

" إنّ أحمد أغا من بلوكات (٢) المحافظين بدنقله سابقاً قد قدّم إلى ديوان معاونتى عريظة مطوية بهذه المكاتبة مفادها أنّه فى سنة ٧٢ هـ قد أنشأ ساقية بالغابة والتلول الواقعة خارج زمام مديرية ونقله وأصلح فعلاً قسماً من تلك التلول وغرس فيها نخيلاً وأشجاراً من الليمون والصنط وأنه يريد إنشاء حديقة وسبيل بها . وبما أنه قد فرض مال أميرى على تلك الساقية كما فرض مبلغ ثمان وثمانون قرشاً ونصف القرش سنوياً على النخيل قبل طرحها الثمار، وذلك فى الاحصاء الذى عمل فى سنة ٧٨ هـ وبما أنّه لم يسبق فرض أموال أميرية على بعض الحدائق الموجودة فى المديرية قديماً وأن السواقى التى فرض عليها الأموال واقعة على البحر (٣) فأنه يلتمس رفع المال عن الساقية والنخيل المذكورة فعليكم بأعفائه من الأموال المفروضة على الاشجار التى غرسها والسواقى التى حفرها المذكور هناك وأنّه من البديهى فى حالة اعفاء الحدائق الموجودة بالأراضى السودانية من الأموال سيرغب حينئذ كل شخص فى غرس تلك الأشجار وسيكون ذلك سبباً فى ازدياد الحدائق يوماً فيوماً فى انتظام وعمران الأقاليم السودانية

---

(١) انظر هذه الدراسة فى ملاحق هذا البحث .

(٢) جمع بلوك وهى كلمة تركية تعنى القسم أو الفوج من العساكر. انظر تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى ص ٤٤ .

(٣) يقصد نهر النيل.

والاكثار من اصلاحها ومدنيتها وهذه زبدة أفكارى فى ذلك ، وإنى بموجب أمرى هذا أطلب منك عدم فرض أموال أميرية على الأراضى المنزرعة (هكذا) بها أشجار ولا على الأشجار المنغرسة أو التى ستغرس من الآن فصاعداً مثل أشجار الليمون والبرتقال وأشجار الفاكهة الأخرى فى السودان .

" حاشية : بموجب أمرى هذا يجب اللّا تفرض أموال أميرية على الاشجار المنزرعة بجهة السودان والتى ستغرس من بعد الآن من الأشجار المثمرة ولا على الأراضى التى تزرع فيها تلك الاشجار وأن نقيس الأراضى المنزرعة فيها تلك الاشجار وتحددها وأن تحرر حجج تمليك باسم أصحابها يتصرفون فيها كيفما شاءوا "(١).

ونجد هذا التشجيع الحكومى للزراعة فى السودان أيضاً فى موافقة المجلس الخصوصى على اقتراحات ممتاز باشا وتأييدها بشأن زراعة القطن فى السودان والتوسع فيها وارسال محالج القطن من القاهرة إلى الخرطوم (٢) .

كذلك شمل هذا التشجيع تدريب السكان وتلقينهم أصول الزراعة و طرقها الحديثة واعطائهم التقاوى والحيوانات اللازمة للعمليات الزراعية وتشجيعهم على الاستقرار فى الأرض لاستصلاحها وخدمتها .وبدلاً من بقاء العساكر بلاعمل فى الأوقات التى لاتستلزم منهم تركيز الجهد فى الشئون الحربية ـ طلب من المديرين تشغيلهم فى اصلاح التربة وغرس الأشجار وزراعة الخضر وما إليها فى الجهات التى يقيمون فيها لتكون مزارعهم نموذجاً يعمل الأهالى على منواله . وقد أرسلت من مصر تقاوى الخضر والفواكه والمحاصيل الأخرى وشتلات الأشجار (٣) .

وقد كان من أبرز الحكّام الذين اهتموا بالزراعة فى السودان ممتاز باشا الذى كان محافظاً على سواكن ثم عيّن بعد ذلك حكمداراً لقبلى السودان .وبدأ

---

(١) عابدين ، المعية دفتر ٥٢٩ رقم ٤ صفحة ١٩٧ نقلاً عن الحكم المصرى فى السودان ص ٣٥٨-٣٥٩.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٣٧٥ ومابعدها.

(٣) انظر د. شوقى الجمل : تاريخ سودان وادى النيل ج٢ . مرجع سابق ص ١٢٨.

اهتمام ممتاز باشا بالزراعة فى السودان منذ أن كان محافظاً على سواكن حيث بدأ زراعة القطن فى دلتا فوربركة بطوكر ونجحت التجارب التى أجراها حوالى سنة ١٨٦٥م ومنذ ذلك الوقت أصبحت طوكر من أهم الأراضى التى يزرع فيها القطن بالسودان . وبدأت تجارب زراعته كذلك فى خور القاشى ثم جلب ممتاز من مصر محالج رحلها إلى كسلا لحلج قطن القاشى ولكن ترحيل تلك الآلات كان من الصعوبة بمكان ولذلك فشل هذا المشروع .(١)

كذلك جلب ممتاز من مصر بعض المزارعين لارشاد الأهالى إلى الطرق الزراعية ، كما أحضر من مصر أيضاً بذرة القطن الأشمونى لزرعها فى السودان(٢) .

وعندما نقل ممتاز باشا لمقر عمله الجديد حكمداراً على عموم قبلى السودان " نقل اهتمامه وحماسته للزراعة وللقطن خاصة إلى ادارته الجديدة وظل يواصل طلباته من مصر فيما يتعلق بالمحالج والعُدد الأخرى وطاف بنفسه على المزارعين حاساً لهم على زراعة القطن، وطلب كميات من بذرته بلغت فى احدى طلباته ثلاثة آلاف أردب توزع مجاناً على المزارعين على أن تقسم الأرباح مع الحكومة . وعكف ممتاز على دراسة السودان جميعه من حيث الأراضى الصالحة للزراعة وخاصة القطن وقدّر مايمكن زراعته فى مديريات السودان ماعدا مصوع بما يربو على المليون من الأفدنة، وبيّن الطرق التى يمكن بها ترحيل محصول القطن، ورأى أن أنجح وسيلة هى النيلين الأزرق والأبيض إلى الخرطوم ومنها شمالاً إلى مصر . والأقطان التى تزرع فى اقليم القضارف وعلى ضفاف نهر عطبرة تنقل فى زمن الفيضان إلى النيل الكبير ومن ثم ترحل شمالاً . وزيادة على اهتمامه الزائد بالقطن رأى تحسين نسل الضأن والبقر باحضار الكباش والجاموس من مصر(٣) ".

---

(١) انظر ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ١٠٦.

(٢) انظر محمد صالح ضرار: تاريخ سواكن والبحر الاحمر مرجع سابق ص ٢٤١.

(٣) د. مكى شبيكة : السودان عبر القرون . مرجع سابق ص ١٦٨-١٦٩.

شارك حسين بك خليفة مدير بربر ممتاز باشا فى الاهتمام بالزراعة حيث أنه عمد إلى تشجيع الأهالى على زراعة كل الأراضى التى هجرها أهلها بسبب الضرائب، كما شجعهم على الرى بالقنوات على الطريقة المصرية. ولكن جهوده لم تكن مثمرة بقدر مابذل فيها من جهد وتشجيع.(١) واهتم الخديو اسماعيل بجهود حسين بك خليفة، ومما يعكس هذا الاهتمام الخطاب الذى تلقاه مدير بربر من الخديو فى محرم سنة ١٢٨٨ هـ الموافق الثالث والعشرون من مارس سنة ١٨٧١م وقد جاء فى هذا الخطاب :

" أمر كريم إلى مدير بربر فى غرة محرم سنة ١٢٨٨ هـ (٢٣ مارس ١٨٧١م)

أمر كريم منطوقه صار منظورنا عريضتكم الواردة لطرفنا رقم (٢٦) ذى القعدة لسنة ٨٧ هـ نمرة (١٥) جواباً لأمرنا الصادر لكم باجرى(٢) (هكذا) الطرق والوسايط المؤدية لعمارية (هكذا) جهة طرفكم وثروة أهاليها بواسطة تأليفهم وتشويقهم على زراعة صنف القطن بالأراضى الموجودة هناك والاستحصال بذلك على الثمرات التى تعود بالفوايد (هكذا) المستحسنة كما لايخفى .ولقد علمنا مما ذكرتموه أنكم باذلين غيرتكم ومجتهدين بكل مايمكنكم فى اجرى(هكذا) هذه الأسباب حتى أنه بالنظر لكون أطيان المديرية لاتروى سنوى إلا إذا كان النيل بالغ النهاية فى الزيادة لمناسبة عدم وجود ترع مثل جهة بحرى ، قد شرعتم فى حفر سيالات صغيرة (٣) من البحر بالمحلات المنخفضة التى يتيسر امتدادها بدون كلفة كبيرة ولا مشقة وبها يصير الاستحصال على رى أراضى المديرية على وجه العموم سوا (هكذا) كان النيل بالغ النهاية فى الزيادة أو متوسط واجرى (هكذا) زراعة تلك الاراضى من صنف القطن لآخر ما أوضحتوه (هكذا) قد وقع عندنا موقع الاستحسان والقبول ولابأس من بذل الجهد والاجتهاد فى تتميم

---

(١) انظر ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ١٠٧.

(٢) المقصود باجراء .

(٣) يعنى ترع صغيرة .

وبنائها فهى تشبه محطة أسوان . أمّا محطة حلفا فقد بنيت فى قرية عنجس التابعة لحلفا وكانت هذه القرية تتكون من خمسة عشر منزلًا يسكنها موظفو الحكومة وزودت بطاحونة ، ومخزن صغير للجبخانة . وقد بنى فى محطة حلفا جسر بلغ طوله أربعة عشر كيلو مترًا وذلك لتوضع فوقه القضبان الحديدية [(١)] .

أمّا فى مجال البريد والبرق فقد وجه اسماعيل مدير البريد المصرى بتنظيم البريد السودانى فأنشئت ادارة البريد السودانية فى سنة ١٨٧٣م وأنشئت مكاتب للبريد فى دنقله والخرطوم وبربر وكسلا وسنّار والقضارف وفازوغلى والمسلمية وفشودة والغاشر والأبيض . كما بلغ ما أنشىء من الخطوط البرقية حوالى ألفى كيلومتر [(٢)] .

أمّا فى مجال النقل النهرى فقد وصلت الخرطوم بعض البواخر النيلية وكان بعضها يبحر فى جنوب السودان منذ أن كان صمويل بيكر حاكمًا هناك وبعضها كان فى الخرطوم ويجوب النيل شمالاً والنيل الأزرق والأبيض جنوبًا . وبلغ عدد السفن النيلية حوالى العشرين [(٣)] . كما اهتمت الحكومة اهتمامًا كبيرًا بترسانة الخرطوم .

رابعًا : الضرائب :

على الرغم من اهتمام اسماعيل بمسألة الضرائب فى السودان ومحاولة تخفيضها واعفاء السواقى والأراضى المزروعة بالأشجار إلا أنّ المواطنين ظلوا يشكون من ظلمها وفداحتها، والسبب فى ذلك يرجع إلى الحكام والجباة والموظفين الذين فسدت نفوسهم وأصبح الجشع والطمع والرشوة هى ديدنهم ، خاصة وأنّ الضائقة المالية التى حدثت فى عهد اسماعيل جعلت رواتب الموظفين العاملين فى السودان

---

(١) انظر د. السيد يوسف نصر : الوجود المصرى فى أفريقيا . مرجع سابق ص ١٩٤.
(٢) انظر د. محمد فهمى لهيطه : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ص ٣٥١.
(٣) انظر ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص ١٠٧.

تتأخر كثيراً فامتدت أيدى هؤلاء الموظفين إلى المال العام وزادوا على ذلك بأن أرهقوا كواهل المواطنين بالضرائب .

ويذكر أن غردون عندما عين حكمداراً استشعر عبء الضرائب واستمع أثناء تجواله إلى شكايات المواطنين ،وكان يعلم أن الموظفين لم يتسلموا رواتبهم منذ سنوات ولكنّه لم يسأل نفسه كيف يعيش هؤلاء الموظفين بدون رواتب (١) . وقد عين غردون سلاطين باشا النمساوى مفتشاً لمالية السودان فكتب سلاطين عن الحالة فى السودان بقوله : " وعيننى غردون مفتشاً ماليـاً وطلب إلىّ أن اقوم بالتفتيش فى البلاد وأفحص شكايات السودانيين الذين كانوا يعارضون فى دفع الضرائب التى لم تكن تعتبر فادحة ، واطاعة لهذه الأوامر قمت إلى سنّار وفازوغلى عن طريق المسلمية وعرجت على جبال كوكلى ورقرق وكشنكيرو القريبة من بنى شنقول ثم رفعت تقريرى إلى الجنرال غردون وأوضحت فى هذا التقرير أنّ الضرائب غير عادلة وأنّ معظمها يقع على عاتق أصحاب الأملاك الصغيرة من الأرض - أمّا كبار الملاك فكان من السهل عليهم أن يرشوا الجباة بمبالغ صغيرة فينجوا من الضرائب إلا ماقل منها . وعلى هذا كان مقداراً كبيراً من الارض لاتؤخذ عليه الضريبة بينما يقوم الفقراء بسد العجز ودفع ضرائب ثقيلة عن أملاكهم . وأبنت فضلاً عن هذا النظام السىء أن الأهالى مستاؤون من الطرق الجائرة التى يتبعها جباة الضرائب وجلهم من الجنود والباشيزق والشايقية - ولم يكن هم هؤلاء الموظفين سوى الحصول على الثروة باسرع مايمكنهم على حساب السكان التعساء الذين كانوا يخضعون لسلطتهم الوحشية القاسية . وكنت كثيراً ما أجد خلال أسفارى أنّ الأراضى التى يملكها الموظفون ومعظمهم من الأتراك والشايقية لاتجبى عليها ضرائب ما . وعندما كنت أسال عن علة ذلك كان يقال إن هذا امتياز للموظفين لما يقومون به من الخدمة للحكومة وقد كانوا يستاءون أشد الاستياء عندما كنت أقول لهم أنهم يتناولون

---

(١) انظر المرجع السابق ص١٠١.

أجراً على هذه الخدمة . ولكن عندما قبضت على البعض منهم أقروا جميعاً بأنهم متأخرون فى دفع الضرائب [١] " .

ولكن سلاطين اعترف بأنه عجز عجزاً تاماً عن القيام بوظيفته وذلك حين قال : " وإنى أعترف بأن تجاربى الماضية ومعارفى قد خذلتنى فى هذا الموضوع . وشعرت عندئذ بعجزى التام عن القيام بأى اصلاح ولم يكن لى من الخبرة بالشئون المالية سوى القليل أو العدم فلذلك وجدت من العبث أن أستمر فى عملى وقدمت استقالتى"[٢] .

استمرت مشكلة الضرائب فى السودان فأرسلت الحكومة البريطانية الكولونيل ستيوارت إلى السودان بعد وصوله مباشرة إلى مصر مع القوات البريطانية التى احتلتها سنة ١٨٨٢م لدراسة أحوال البلاد وكتابة تقرير مفصل عنها مشفوعًا بمقترحاته حتى يمكن لتلك الحكومة أن تتخذ من الاجراءات مايتناسب مع سياستها نحو الشطر الجنوبى من الوادى . وقد وصل هذا الضابط الى الخرطوم فى ديسمبر سنة ١٨٨٢م وغادرها فى مارس سنة ١٨٨٣م بعد كتابة تقريره الذى ضمنه بيانات بالقبائل وشيوخها والجبايات السابقة والمقترحة.[٣]

أما عن الادارة المالية فى السودان خلال هذه الفترة فلم تكن ايرادات الحكومة فى السودان تكفى مصروفاتها وذلك لأن الانتاج فى هذه البلاد كان مايزال قليلا بالنسبة لمساحتها وترجع قلة الانتاج إلى قلة نشاط السكان فى استغلال موارد الثروة فى بلادهم ، كما هو الحال فى معظم بلاد المناطق الحارة[٤] .

---

(١) سلاطين باشا: السيف والنار فى السودان . عالم الكتب . بيروت ط ثالثة ١٩٧٨م ص ١١-١٢ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢-١٣.
(٣) انظر المجلة التاريخية المصرية ج ٣ ، ١٩٥٠م ص ١٨٥-١٩٧.
(٤) انظر د.محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، مرجع سابق ص ٣٥٣.

وكانت مالية السودان دائماً تسجل عجزاً يخصم على الخزانة المصرية . وقد حدثت ضائقة مالية فى السودان سنة ١٨٦٥م بسبب القحط وقد ساعدت الحكومة المصرية حكومة السودان على تجاوز هذه الأزمة ويبدو ذلك من خلال الخطاب المرسل من الخديو اسماعيل إلى جعفر باشا حكمدار عام السودان فى ٢٨ من محرم سنة ١٢٨٢ (٢٣ يونيو ١٨٦٥م) وقد جاء فيه : " سبق أن سلفكم المرحوم موسى باشا التمس ارسال ثلاثة آلاف كيس نقداً أو أربعة آلاف إلى مديرية التاكة عن طريق سواكن ، لما علم من المكاتبة الواردة إليه من تلك المديرية أن هناك ضائقة مالية بسبب القحط الحادث فى حاصلاتها هذه السنة وإنه من أجل ذلك لم يصرف للعساكر والمستخدمين رواتبهم بضعة أشهر وقد التمس أيضاً أن ترسل الحكمدارية كمية من النقود لتساعده فى نفقاتها الضرورية فنبلغكم أن تلك النقود على وشك الارسال وقد حررنا يوم تاريخه إلى ديوان المالية ليخابروكم ويتخذوا التدابير اللازمة فى تسوية تلك المسألة . فاذا وصلتم إلى مقر الحكمدارية فابحثوا ايرادها ومصروفها بحثاً دقيقاً ونظموا ميزانيتها نظاماً موافقاً بعد أن تفحصوا عمّا إذا كانت السودان تحتاج إلى نقود بطريق المساعدة علاوة على ايرادها السنوى ، لتصرف فى الاصلاحات الضرورية والتنسيقات المهمة فحرروا بياناً مفصلاً بذلك وأعرضوه علينا "(١) .

كذلك أرسلت الحكومة المصرية كميات من الغلال لتفريج تلك الضائقة المالية فى السودان .

كما إنّ ممتاز باشا عندما كان حكمداراً على السودان حاول أن ينظّم الميزانية ويحدّد بنودها(٢) .

---

(١) محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان . مرجع سابق ص ٣٨٥.
(٢) انظر الشاطر بصيل عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل ، مرجع سابق ص ٢٧٢.

وفى هذا الصدد أرسل الخديو اسماعيل إلى محمد رؤوف باشا حكمدار السودان خطابا يوجهه فيه بالاهتمام بالمالية وتنظيمها وتحديد بنودها تحديداً دقيقاً [١] .

ولما عين غردون حكمداراً على السودان أحسن التصرف حين لاحظ آنذاك أنّ الدول الأوربية التى تطالب الخديو اسماعيل بتسديد الديون التى عليه ، أخذت تنظر إلى السودان على أمل أن يدفع من ميزانيته اقساطا من تلك الديون. ولذلك فإنّ غردون عمد إلى فصل مالية السودان عن المالية المصرية وذلك حتى يجنب السودان أية مضايقات مالية [٢] .

ولبيان العجز الذى كان يحدث دائماً فى ميزانية السودان وتتحمله الخزانة المصرية - نستعرض فيما يلى ميزانية السودان لعام ١٨٧٨م :

٣٢٧٠٠٠ جنيه - دين السودان .

٥٧٩٠٠٠ جنيه - ايرادات الحكومة .

٥٥١٠٠٠ جنيه - مصروفات الحكومة .

٠٧٢٠٠٠ جنيه - العجز فى الميزانية [٣] .

ومن هذه الميزانية تظهر قلة الايرادات عن المصروفات ، كما يظهر أن السودان كان يسد العجز فى ميزانيته بالاستدانة وقد كان مجموع الدين فى الميزانية سالفة الذكر يزيد على نصف الايرادات .

---

(١) انظر نعوم شقير : تاريخ السودان . مرجع سابق ص ٣٠٧.

(٢) انظر ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . مرجع سابق ص١٠٤.

(٣) محمد فهمى لهيطه : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة - مرجع سابق ص ٣٥٤.

وفى ختام هذا الفصل يمكن تسجيل الملاحظات التالية :

(١) اهتمت الحكومة اهتماماً عظيماً بالزراعة وأرست أساساً منظماً لزراعة القطن الذى أصبح فيما بعد محصول السودان الرئيسى .

(٢) كما اهتمت بالتجارة وعبدت لها الطرق وسهلت المواصلات بمختلف أنواعها وقد أفادت هذه المواصلات فى ربط أجزاء البلاد بعضها ببعض .

(٣) لم تهتم الحكومة اهتماماً كبيراً بالصناعة وربما يكون السبب فى ذلك هو تقديرها أن السودان بلد زراعى فقط .

(٤) بالرغم من الدعم الهائل الذى قدمته الخزينة المصرية لمالية السودان إلا أن السودان ظل يسجل عجزاً كبيراً فى ماليته كما يظهر من الأرقام السابقة .

(٥) تسببت الازمة المالية فى مصر فى تأخير رواتب الموظفين مما جعلهم يتعاملون بالرشوة وزيادة الضرائب على المواطنين الفقراء ، الأمر الذى تسبب فى سخط عام على نظام الحكم . ولقد كان هذا السخط من أكبر الدوافع التى جعلت شعب السودان يلتف حول الثورة المهدية باعتبارها المخرج له من حالة الشدة والضنك التى كان يعانيها .

...


الخاتمة

- الخاتمـــة :

منخلال العرضالتفصيلى السابق يمكن أن نشير الى أهم السمــات والنتائج التى خرج بها هذا البحث فى نظم الادارة والتعليم والقضــاء والاقتصاد كما يلى :

- أولاً : فىنظام الادارة :

(١) انأهم مايمكن أن نشير إليه فى هذا المجال هو أن هذا العهد قــد أعطى السودان اسمه وحدوده المعروفة اليوم .

(٢) نقل هذا العهد شعب السودان من النظام القبلى الاقطاعى إلى نظــام حديث يرتبط فيه المواطن بسلطة الدولة. وتم هذا الانتقال بالتدريــج بواسطة مايعرف بنظام الحكومة المحلية أو الادارة الأهلية حيث يكــون النظار والعمد والمشايخ هم الواسطة بين الحكومة والمواطن .

(٣) جرّب هذا العهد أشكالاً مختلفة فىالحكم مثل اللامركزية والمركزيــة أو محاولة ايجاد نظام وسط بينهما .وبالرغم من هذه البدايات المبكرة فى هذا المجال إلا أنّ السودان إلىاليوم لم يأخذ شكلا مستقراً مــن هذه الأشكال .

(٤) كان هذا الحكم حكماً عسكريا فى معظم أحواله بالرغم من أنه حــاول أن ينقل تجربة الحكم التى أقامها محمد على فى مصر.

(٥) كانت مساحة السودان الشاسعة وضعف المواصلات من الأسباب الرئيسيــة فى تعويق أعمال الجهاز الحكومى .

(٦) استطاع هذا العهد أن يبسط الأمن على قطاع كبير من أرض الســودان وقد أشاد بهذه الظاهرة الرحالة الأجانب .

(٧) لم يشهد هذا العهد استقراراً كاملاً بسبب الثورات التى حدثت فــى أماكن متفرقة نتيجة لظلم بعض الحكام وجورهم .

(٨) نقل بعض الحكّام الأتراك إلى شعب السودان البسيط بعض الممارسات الفاسدة مثل تقبل الرشاوى والاختلاس .

(٩) ربط هذا العهد شعب السودان بالخارج كما ربط بين أبناء الشعب بعضهم ببعض .

ثانياً : فى مجال التعليم :

(١) فى بداية هذا العهد اهتم الحُكّام بأمر التعليم فى السودان ولكن لم توضع سياسة واضحة يسير عليها التعليم لتحقيق أهداف مرسومة وانما دعم التعليم الشعبى المتمثل فى المساجد ومدارس تحفيظ القران الكريم وهجرات الطلاب للأزهر الشريف.

(٢) شهد هذا العهد لأول مرة قيام مدرسة نظامية حديثة وذلك فى عهد عباس الأول وقد استمرت هذه المدرسة لعام دراسى واحد ثم أعقبتها فى عهد الخديو اسماعيل خمس مدارس ابتدائية فى المحافظات .

(٣) شهدت هذه الفترة نشاطاً تعليمياً للارساليات الكنسية وقد كانت هذه بداية للتعليم الكنسى الذى مازال موجوداً فى السودان إلى اليوم .

(٤) بدأ فى هذا العهد الفصام بين التعليم الدينى والتعليم المدنى حين أنشات الحكومة مؤسسات للتعليم المدنى موازية لمؤسسات التعليم الدينى واستمر هذا الفصام إلى يومنا هذا حيث كان من ركائز حركة العلمانية فى البلاد .

ثالثاً : فى مجال القضاء :

(١) واصل هذا العهد فى بداية الاحتكام إلى الشريعة الاسلامية حين وجد أنّ الممالك السودانية السابقة كانت تحتكم إليها .

(٢) استمر هذا العهد فى ادخال القوانين الوضعية واحلالها محل أحكام الشريعة الاسلامية وبنهاية هذا العهد أصبح حال السودان كمصر إذ بقيت أحكام الشريعة الاسلامية فى نطاق دائرة الأحوال الشخصية .

(٣) أوجد هذا العهد نظامًا للاستئناف يعتبر متقدمًا فى ذلك الوقت ومحققًا للعدالة ولو أنه يتسبب فى كثير من الأحيان فى تأخير الفصل فى القضايا .

رابعًا : فى النظام الاقتصادى والمالى :

(١) عملت حكومات هذا العهد على تطوير الزراعة فى السودان وخاصة زراعة القطن الذى أصبح ومازال المحصول الرئيسى فى البلاد .

(٢) كما عملت هذه الحكومات على اصلاح الطرق وحفر الآبار والترع وذلك من أجل تطوير الزراعة والتجارة .

(٣) فى مجال التجارة احتكرت الحكومة بعض السلع فى الشمال وعملت على تنشيط الملاحة البحرية والنهرية حتى تتيسر حركة التجارة .

(٤) قامت هذه الحكومات بالتنقيب عن الذهب والمعادن ولكن جهودها لم تصادف نجاحا .

(٥) كانت ميزانية السودان تسجل عجزًا بصفة دائمة وكان هذا العجز تتحمله الخزينة المصرية .

(٦) من أسوأ ما ارتبط فى أذهان السودانيين بهذا العهد النظام الضريبى، الذى حاولت الحكومة فرضه على الشعب السودانى واتبعت من اجل تنفيذه الكثير من الاساليب الوحشية وغير الانسانية .

ويطيب لى فى ختام هذه الدراسة أن أسجل هذين الاقتراحين :

(١) تعتبر هذه الفترة بسلبياتها وايجابياتها بداية للتكامل بين الشعبين المصرى والسودانى على المستوى الرسمى وفى جميع المجالات ، ولذلك فأنى أقترح على لجان التكامل بين القطرين الشقيقين دراسة هذه الفترة لتثبيت الايجابيات وطرح السلبيات ٠

(٢) توجد مجموعة من الكتب التى تناولت هذه الفترة ومكتوبة بلغات أجنبية وخاصة الانجليزية وتحتاج إلى من يقوم بترجمتها لتعم الفائدة ومن هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر :

(1) Hill, Richard - Egypt In the Sudan 1820-1881

(2) Hill, Richard - On The Frontiers of Islam - The Sudan under Turco Egyption Rule 1822-1845.

(3) Gray, Richard - A history of the southern Sudan 1839-1889.

هذا ماوفقت إلى القيام به من جهد فإن كان خيراً فالحمد لله وحده وإن كان غير ذلك فحسبى أنّه جهد بشر،وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين٠

الملحق رقـــم (١)

فرمان بتعيين جعفر باشا صادق حكمدارًا على السودان (١)

في ٢٤ محرم ١٢٨٢ هـ (١٩ يونيه ١٨٦٥م)

صدر هذا الفرمان المطاع الواجب له القبول والاتباع خطابًا لحضرات العلماء والأعلام والقضاة والنواب والملوك وكبار الحلل والمشايخ والعشاير والوجوه والحكّام بكافة أقاليم السودان تحيطون علمًا وتدركون فهمًا أنّه لمناسبة انتقال موسى باشا الذى كان حكمدارًا عليكم إلى دار البقاء قد نصبنا بدله جعفر صادق باشا وجعلناه حكمدارًا على عموم وكافة جهات السودان بما الحق إليها من جهات مصوع وسواكن وهذا بناء على ماتوسمناه فيه من القيام بشعائر هذه الوظيفة ومسعاه فيها بالصدق والاستقامة فى صالح المصلحة ومناظرة أحوال الرعايا بما يجب من حسن رعايتهم وحسن توطنهم والفصل فى شئون قضاياهم المدنية والجنائية بوجه الحق والانصاف ومراعاة الأوامر والقوانين واللوائح فيلزم أن تكونوا جميعكم معه يدًا واحدة لتجرى الادارة والأحكام مجراها على منهج الحق والتقوى مع انقيادكم بتفنيذ أوامره ونواهيه الباعثة لحسن عماريتكم وتنجيز أحوال تكسبكم وتعيشكم واقدامكم أنتم والأهالى لطاعة الحكومة مع القيام بتنجيز المطالب الميرية وأنت أيها الحكمدار عليك بالتقوى والتعضد بالحق الذى هو السنة الأقوى وعامل الناس بالعدل والانصاف وتجنب الجور والاعتساف واصرف همتك فى رؤية مصالح العباد وعمارية البلاد . واعلم أنّ راحة العباد حمل على كاهل الحكّام محمول وأن كل راع لم يراع جانب الحق فهو مؤاخذ ومسئول واجعل حركاتك بما تدعو إليه الأوامر واللوائح والقوانين فأن ارادتنا جبلت على حب رعاية الرعية لانهم وديعة رب البرية فلتعلموا جميعكم هذا وتعملوا به لزم اصداره والحذر من المخالفة ثم الحذر والعاقل من بغيره اعتبر.

---

(١) أمين سامى : تقويم النيل وعصر اسماعيل باشا المجلد الثانى من الجزء الثالث ص ٦١٢-٦١٣.

ملحق رقم (٢)

مرسومات سعيد التى أصدرها بخصوص الادارة فى السودان
المرسوم الأول (١)

موجه إلى المديرين الجدد بمديريات السودان الخمس سنّار وكردفان ، تاكه ، بربر ودنقله .

الخرطوم فى ٢٦ يناير ١٨٥٧م

ليس منكم من يجهل ما الاقيه من التعب فى سبيل إحياء ما اندرس من معالم المدنية والعمران ، وايراد كافة صنوف الرعية موارد العز والرفاهية وقطع شأفة الظلم والاستعباد — ومع ذلك فإنى لمّا قدمت إلى هذه الأصقاع شاهدت بعينى رأسى مايلاقيه أهلها من الضنك والفاقة وسمعت بأذنى صوت أنينهم من أحمال الضرائب التى أثقلت كاهل الغنى منهم فضلاً عن الفقير ، وفداحة الخراج المضروب على سقاياتهم وأطيانهم وتسخيرهم فى كثير من الأعمال التى لاقدرة لهم على القيام بها والاتجار فى أولادهم وبناتهم فى الأسواق . فكان ذلك مما أحزن قلبى وبلبل فكرى لاسيما وقد علمت بأنهم أخذوا يهاجرون من أوطانهم إلى أقاصى البلاد هرباً من هذه الكوارث والمحن المتراكمة بعضها فوق بعض ، فقد عقدت النية على جعل الخراج قدراً يناسب حالة البلاد وأهلها وأن أبذل جهد المجتهد فى إصلاح أحوالهم وترتيب أمورهم على مافيه الصالح لهم ولذريتهم من بعدهم .

فلما نزلت على بربر جمعت المشايخ وجميع من جاء للقائى من أهل البلاد على اختلاف مراتبهم وسألتهم أن يؤمروا عليهم أميراً يختارونه من بينهم ممن يستبشرون بامارته ويتوسمون فيه الخير للبلاد وتحصل على يده

السكينةو الخلود إلى الطاعة وأن يقدروا مبالغ الخراج الذى يسهل عليهم القيام به بلا كلفة ولا مشقة ، ففرحوا بذلك وطلبوا أن يربط على كل ساقية خراجاً قدره مائتا وخمسون قرشاً فى كل سنة ، ولكن حبى لشعبى يحملنى على منحه أكبر قدر ممكن من الرخاء وعلى الاهتمام بشأنه حتى أضمن عطفه ، وحتى يستطيع هو الآخر أن يقوم برعاية شئونه وتحقيق رفاهيته . ولما كنت أريد بالاضافة إلى ذلك أن أعيد الطمأنينة إلى قلوب أولئك الذين هاجروا حتى يعودوا إلى أوطانهم وهم لايخشون ظلماً ولاعدواناً ولا ضرائب باهظة ، فقد أمرت بالاتزيد ضريبة كل ساقية على مائتى قرش فقط وخراج كل فدان من أرض الجزائر خمسة وعشرون قرشاً ، أما أراضى العلو فعشرون قرشاً لاغير. فكان لهذا العمل أحسن وقع فى قلوب سائر الرعية وفرحوا فرحاً لايوصف وأخلدوا إلى السكون والطاعة وهنأ بعضهم بعضاً وأرسلوا يستقدمون من هاجر منهم وترك الأوطان .

ولما وصلت إلى الخرطوم جاءنى المشايخ والأعيان . وإذا كان هؤلاء الأخيرون قد خفوا لمقابلتى فذلك لأنهم شعروا نتيجة لوجودى بينهم بدلائل كرم لم يشعروا بمثله قبل الآن قط . ولكنى لما كنت قد عينتكم مديرين لهذه الأقاليم فأن عليكم أن تقتدوا بى ، وأنى لم أقلدكم المناصب إلا لتكونوا اعوانى على استتباب الأمن واصلاح أمور الرعية فأياكم والعنف والجور ولاتجبوا الخراج إلا فى الأوقات المناسبة واعقدوا لتقرير قاعدة ذلك جمعية فى الثلاثة شهور التى لازرع فيها ولاقلع فيها ، وقسموا الخراج على أقساط متساوية يسهل عليكم جبايتها فى آخر كل سنة بصورة تجعل من الممكن تحصيل الخراج فى بحر السنة دون أن يتعرض الأهالى لارهاق ما ودون ترك متأخرات لديهم . ويجب أن تتالف هذه الجمعية من ١٢ إلى ٢٤ عضواً من أعيان المديرية حسبما ترونه مناسباً للمصلحة العامة . وبوصفكم رؤساء لهذا المجلس فأنتم الذين تقومون بتقسيم الخراج والنظر فى الوسائل الأكثر صلاحية لزيادة الرخاء والهدوء بصورة تؤدى إلى استتباب الأحوال فى المدن وفى القرى استتباباً تاماً ، ويجب أن ترفع الى

القرارات التى تتخذونها بهذا الشأن واحداً إثر واحد • ثم احصوا جميع الكشّاف والجند الموكلين بجباية الخراج وأخلعوهم وقلدوا مكانهم مشايخ البلاد فهم أولى بذلك •

وعلى الجمعية أن تعنى ضمن ماتعنى به الأمور التالية : عليكم أن تسرحوا الكشّاف الذين هم اليوم حكام تلك الجهات وكذلك الجند الموجودين معهم ثم عليكم ألا ترسلوا بعد الآن كما كان الحال سابقاً جنداً لتحصيل الخراج فأنّ القرى وحدها هى التى ترسل شهرياً خراجها حسب التقسيم بواسطة مشايخها ولاتستخدموا قوة القانون إلا بكل عدل لاجبار المتأخرين على الدفع • ولتشجيع المشايخ على القيام بوظائفهم بأمانة واخلاص وجدت من الحكمة أن يكافأ المشايخ على خدماتهم وذلك بان تعافوهم فى مقابل هذه الخدمة برفع خراج سقاية فى كل خمس وعشرين سقاية ومعنى ذلك ألا تحصلوا خراجاً إلا عن ٢٤ ساقية من خمس وعشرين بينما تبقى الساقية الخامسة والعشرين من سواقى المشايخ دون خراج وبالمثل فيما يتعلق بالأراضى فتعفون من الخراج أربعة أفدنة من كل مائة فدان تخص المشايخ •

هذا وحيث أن لأولئك المشايخ والأعيان بيوتاً ينزل عليها كل طارق وقاصد ،فارفعوا عن كل منهم خراج أربعة افدنة من كل مائة فدان فأنه لما كان المشايخ وهم أصحاب هذه المنازل يقدمون المأوى والمأكل للسياح والمسافرين ولما كانوا مشهورين بضيافتهم فقد وجدت من العدل أن يعم كرمى بحيث يشمل نفقات هذه الضيافة وعلى ذلك فقد تركت لتقديركم بحث وتعيين مايمكن أن يمنح لهؤلاء المشايخ وماترونه أنتم مناسباً وعادلاً وذلك حسب مركز كل قرية •

وعليكم أن تقوموا بقياس الأراضى واحصاء السواقى بواسطة المشايخ الذى يجب عليهم أن يقدموا بيان ذلك إلى المديرية ، وأمّا إذا أرسلتم رجالاً

من طرفكم لهذا الغرض ، وحدثت أخطاء فسيكونون المسئولين وحدهم عن هذه الأخطاء ، والخراج الذى سوف يجرى تحديده على الأراضى بعد قياسها وعلى السواقى يجب أن يدفعه زارع الأرض وحاصد غلاتها ، وذلك حتى لايستطيع أحد أن يقول إنّ الملزم بدفع الخراج قدتمكن من الهرب ، والخراج الذى يجرى تحديده وتعيينه على النحو الآنف الذكر يبدأ العمل به منذ هذه السنة الهجرية سنة ١٢٧٢ ويحتسب الخراج الذى حصل من ابتداء هذا العام من خراج هذه السنة وتمشياً مع هذه القاعدة يؤخذ هذا الخراج عن الأراضى التى تروى بماء الفيضان أو ماء الأمطار أو السواقى ، ولكن إذا – لاقدر الله – انخفض النيل أو احتبس المطر ، فالخراج لايستحق ولايجبى .

وكلماتحتاج إليه الحكومة من مأكولات وأشياء أخرى أو جمال أو رجال للخدمة فعليها أن تدفع ثمن وأجر ورواتب ذلك كله بزيادة ٢ ٪ عما يدفعه السكان فيما بينهم وحتى إذا ارتفعت أثمان الأشياء فعلى الحكومة أن تدفع دائماً زيادة ٢ ٪ على الرغم من زيادة الاسعار . وخوفاً من اللا يعلن المشايخ عن الأثمان الحقيقية للأشياء وعن القيمة الحقيقية لليد العاملة إظهاراً منهم لاهتمامهم بصالح الحكومة عليكم تفادى هذا المحظور بالّلاتاخذوا شيئاً إلا بموافقة أصحابه موافقة حرة . وذلك حتى يمكن بفضل هذه الوسيلة أن يزداد رخاء البلاد وحتى أنه عندما يرى أولئك الذين هم فى الخارج الأثمان التى تدفعها الحكومة يدفعون هم الاخرون أثماناً طيبة ممّا من شأنه أن يزيد ثراء البلاد . ويجب أن لا تسخروا الرجال أو الجمال فى الأعمال ويجب أن تشجعوا السكان على زراعة القمح والنيلة والقطن والسمسم وغيره وأن تبذلوا كل جهد حتى يمكن كبس الأقطان وصناعة النيلة حتى يسهل تصديرها وتفيد البلاد من أثمانها وقيمتها . ومن واجبكم أيضا أن تشجعوا الأهالى على استخراج الزيت من السمسم لأن فى ذلك مصلحة لهم .

وحيث يوجد في هذه البلاد الأخشاب الصالحة للعمائر ومد السفن والحريق وغيره شيئاً كثيراً فاشتروا منه من الأهالى كل ماتيسر وسيروا به إلى القاهرة ثم أنقدوهم الثمن معجلاً .

وسوف يكون من السهل انزال هذه الأخشاب إلى مصر على شكل أرماث وقت فيضان النيل . وعليكم أن تفهموا الأهالى ذلك وأن تشجعوهم على العمل ، لأن أكثرهم لايجدون عملاً كافياً وسيكون هذا العمل مصدر ربح جديد .

ومما يوطد الرخاء فى بلد ما ،بناء المنازل فى المدن ولكن عليكم أن تنتبهوا حتى لاتبنى المنازل فى الطرق من غير نظام بارزة أو مختيفة كما هو الحال اليوم بل من الواجب أن تكون البنايات الجديدة فى صف واحد وهذا من غير أن تضطروا لهدم المنازل الموجودة . فالبنايات الجديدة فقط هى التى يجب أن تشيد وفقاً لهذه القاعدة الجديدة ويجب أن يكون لكل منزل حديقة ذات اتساع كاف لاستخدام مياه ساقية أو شادوف أو ماهو أقل من ذلك إذا لزم الأمر . حتى تكون الأمور بهذه الواسطة منظمة تنظيماً حسناً والهواء أنقى وأحسن . ويجب ألا تحصلوا ضريبة عن الأراضى التى تعطونها لهذا الغرض .

وشجعوا الأهالى كذلك على زراعة الأشجار فى الطرق وعلى طول شاطىء النيل إذ أن هذه المزروعات تفيدهم أولاً بانتاجها وثانياً بالأثر الطيب الذى تحدثه بامتدادها على طول الطرق والشواطىء .

ثم علموهم الصنايع والفنون وإنشاء المبانى المنظمة والمساكن المشيدة وغرس الأشجار بالشوارع والطرقات وإذا أعطيتم أحداً أرضاً للفلاحة من الأطيان المتروكة فأخبروا بذلك المديرية التى أنتم فى دائرة اختصاصها وإذا عاد من

هاجر إلى بلده وطلب رد أطيانه وكانت ثابتة إليه وجب ردها إذا لم يمض على انسحابه خمس عشرة سنة . وارفعوا عن الأهالى جميع المتأخرات لغاية سنة إحدى وسبعين ومايتين وألف هجرية والمقاس أنّ مساحة كل فدان أربعمائة قصبة وأنّ كل قصبة ثلاثة أمتار فقط وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء".

أمّا المنازعات والقضايا فيكون بحثها والبت فيها أمام المشايخ ولكن فى الحالة التى يتعذر فيها الوصول إلى حل بهذه الطريقة فأن هذه القضايا يفصل فيها " المكوك " الذين يقبلهم الطرفان المتنازعان . وإذا كانت من نوع لا يحل بهذه الطريقة فأنها ترسل إلى المديرية . وما لم يمكن الفصل فيه فأنه يعرض على المجلس أثناء الشهور الثلاثة التى ذكرت أعلاه . فعلى المجلس أن ينظر فى هذه الأمور ويصدر حكمه فيها.

أمّا فيما يخص المسائل المتعلقة بالقانون فهذه يحكم فيها القضاة ويقوم بتنفيذ هذه الأحكام المشايخ والمديرية . أمّا قضايا القتل فيجب أن ينظر فيها مدنيًا بمساعدة المديرية وتبحثها المحكمة فى المديرية ، وفى المجلس الذى سبق التحدث عنه وذلك بحضور القاضى والذين يخصهم الأمر حتى ترفع إلىّ بعد ذلك بواسطة مدير المديرية . أما قضايا البدو فهذه من اختصاصات شيخ قبيلتهم أو الشيخ الأعلى .

وفى الحالة التى تتحسن فيها ثروة أحد الأفراد ويطلب اعطاء بعض الأراضى فى قريته من بين الأراضى غير المزروعة زيادة على ما يملكه يجب إعطاؤه هذه الأراضى إن كانت من غير صاحب وتخير المديرية بذلك حتى يكون لديها إلمام بالأمر ويطبق نفس الشيء فى الحالة التى يعود فيها أحد الأهالى إلى بلده بعد ان تقرب منها فيجب إعطاؤه أرضًا غير مزروعة . ولكن إذا لم توجد مثل هذه الأرض فالواجب أن تسهل له وسائل العيش فى قريته وأن يعطى بتدخل المشايخ والأعيان قدرًا من الأراضى كافية لعيشه وذلك حسب مركز كل فرد . أما

إذا كان هذا الفرد الذى ترك قريته يملك أرضاً وحدث بسبب تغيبه أن استولى غيره عليها منذ مدة تزيد على الخمسة عشر عاماً تماماً فانه يجب رد أرضه إليه ويعطى لمن أخذت منه الأرض أرضاً أخرى • وتخير المديرية بذلك • وفى الحالة التى لاتوجد فيها أرض حرة بتاتاً فى القرية يكون التصرف معه كما هو مبين فى حالة من عاد إلى قريته بعد أن هجرها وكان لايملك فيها أرضاً وإذا رغب أولئك العائدون الذين لم يكونوا يملكون أرضاً فى قراهم أو أولئك الذين لاتوجد أرض حرة لاعطائهم إياها أن يحصلوا فى نظير دفع الضريبة على أرض متروكة لاأصحاب لها ولاتجاور أية قرية ، وأن يبنوا فيها قرية جديدة للاقامة بها والعيش فيها فمن الميسور اعطاؤهم هذه الأرض من غير أية صعوبة •

ولما كانت الضريبة المفروضة على البدو قد حددت فأنه سوف تصدر إليكم حسب ارادتى – الأوامر اللازمة لتوزيعها على القبائل وتحديد مايعطى للمشايخ نظير قيامهم بأعباء وظائفهم ونظير نفقات ضيافتهم ومع ذلك لمّا كانت ضريبة القبيلة موزعة بين الأفراد بمعرفة شيوخهم وهذا التوريع غير معروف لدى المديرية فأنه نتيجة لذلك ، إذا لم يجد أحد هؤلاء البدو الراحة التى ينشدها فى قبيلته وأراد الذهاب إلى قبيلة أخرى للعيش فيها، ولما كان حرّاً فى التصرف لشخصه وكان ارغامه على المكوث فى قبيلته سيزيد من ألمه – الأمر الذى لايتفق مع رغباتى – بات من الواجب عليكم ألاّ تمنعوا هذا الشخص من العيش فى القبيلة التى يختارها• ولكن يجب أن تنتقص الضريبة التى كان يدفعها فى قبيلته وتضاف إلى ضريبة القبيلة التى اتخذها مقراً له •

وإذا زرع أحد البدو أرضاً فى قرية وسرت عليه الضريبة المقررة فمن الواجب ألاّ يكلف هذا الفرد بدفع ضريبتين احداهما يدفعها فى قبيلته والأخرى عن أرضه • إذ أنّ هذا مخالف للعدالة • وقد قررت أنه فى كافة الحالات

التى يزرع فيها البدوى أرضًا فى قرية ما يجب اعفاء هذا البدوى من ضريبة القبيلة التى يعينها مشايخ القبائل . فلا يدفع غير ضريبة واحدة هى ضريبة الأرض التى يزرعها . وقد أمرت بهذا حتى أشجع البدو على الاقبال على الزراعة وممارستها وعلى السكنى فى المدن .

وفى الأمر الذى سأصدره إليكم فى موضوع ضرائب البدو سوف أعطيكم أيضًا الأوامر اللازمة لارشادكم فى مسألة بعض الأهالى من الرعاة الرحّل.

أما فيما يختص بالجبال التى تفرض عليها الضريبة أقول إنّه لما كان سكانها يعيشون فى حالة همجية وكان من الضرورى قيادتهم فى طريق الانسانية حتى ينعدم ميلهم إلى العزلة فى الجبال وإلى القيام بالثورات فقد قررت أن أعفيهم من ثلث الضريبة فلا أدعهم يدفعون إلا الثلث الواحد فقط . ويجب أن تفهموهم أنهم ليسوا بعبيد بل هم أحرار طلقاء .

ولقد اعتاد هؤلاء أن يزرعوا بعض الأراضى على منحدرات الجبال فمن واجبكم أن تشجعوهم وأن تدخلوا فى أذهانهم فوائد الحياة فى المدن وأن تحضوهم على الاكثار من زراعتهم وأن تبذلوا جهدكم فى اقناعهم لتجلبوهم إليكم، أوضحوا لهم جيدًا أنهم إذا أقبلوا بملء قلوبهم على الزراعة فأننى سوف أعفيهم من الضريبة التى أنقصتها اليوم فلا يدفعون عندئذ سوى ضريبة على الأراضى التى يزرعونها . وهذه أيضا سوف تكون أقل من تلك التى يؤدونها عن جبالهم وأنكم إنما تعاملونهم على هذه الصورة لتوفير راحتهم وأمنهم واجتذابهم الى طريق الحضارة والمدنية . وحتى إذا حدث فى اجتماعاتكم التى تعقدونها لشرح ماتقدّم لهم ولاستمالتهم إن طلبوا منكم إلغاء هذه الضريبة على شريطة أن يعدوا أنهم سيقبلون على الزراعة وأن يدفعوا فقط ضريبة الأراضى التى يزرعونها فعليكم أن تقبلوا ذلك. وأن ترفعوا إلىّ هذه المسالة حتى أعاملهم وفق رغباتهم لغرض واحد هو أن أشير

حب الحياة فى المدن فى نفوسهم وأن أصونهم بذلك من التقلبات التى يتعرضون لها .

هذه هى الطريقة التى تتبعونها مع سكان الجبال الذين يعيشون فى حالة همجية وكالحيوانات المتوحشة . وأما فيما يتعلق بأهالى الجبال أمثال أهالى الفونج المتحضرين قليلاً فسوف أصدر إليكم الأوامر فيما يخص الجبال التى حضر مشايخها إلىّ . وأما أولئك المشايخ الذين لم يحضروا ، فعليكم أن تتفاهموا معهم وبعد التداول مع مشايخهم عليكم أن تخبرونى بما يمكن أن يدفعوه بسهولة ، ومن دون مشقة ، كما عليكم أن تقدموا إلىّ تقريراً مفصلاً عن الضريبة الحالية ، والضريبة التى يريدون دفعها حتى أصدر أوامرى إليكم بهذا الصدد .

وعليكم أيضاً أن تجمعوا المشايخ والأعيان وتقرأوا عليهم أمرى هذا ، وتفهموهم ما قررت القيام به لمصلحتهم ، مدفوعاً إلى ذلك بحبى لشعبى .

وعندما وصلت إلى بربر وشندى عينت المشايخ والمكوك حسب رغبات الأهلين ووفق اختيارهم . ولم يحضر بعض مشايخ القرى وعليكم أن ترتبوا الأمور بهذا الشكل فى مديرية دنقلة وتتموها أيضاً فيما يتعلق بأقاليم بربر والجاعلين (هكذا) وهى التى لم تجر فيها هذه الترتيبات وعليكم أن تعينوا المشايخ والمكوك من أولئك الذين اختارهم الأهالى والأعيان ثم تزورونهم بنصائحكم وارشاداتكم الحكيمة حتى يمكنهم أن يسلكوا مسلكاً حسناً وحتى يتجنبوا بعناية كافة ما من شأنه ابعاد الأهالى عنهم .

ابحثوا المسائل واعدلوا بين الناس دون ماتحيز فإذا استحق انسان السجن لذنب من الذنوب فمن واجبكم الاهتمام بانهاء هذه المسألة حتى لا يبقى المجرم وقتاً طويلاً فى السجن ، لأنه ومع كون السجن ضرورياً لعقاب أحد الأشخاص

على عمل سيء أتاه ومن المنتظر أن ينتج خيراً إذ أنّ هذا من شأنه أن يمنع المجرم من اقتراف آثام أخرى في المستقبل ، وفي نفس الوقت تكون هذه العقوبة مثلاً يردع الآخرين عن الاتيان بأعمال تستحق هذا العقاب ، فإنه لمّا كان السجناء هم من رعاياي وشعبي فإنّ عدلي ورحمتي لايسمحان بأن يبقوا في السجن أكثر من الوقت المقرر ورغبتي أن أكون شفيقاً في معاملتهم .

وفي الحالات التي تحدث فيها منازعات بين السكان والبدو أو بين بعضهم بعضاً فعليكم أن تعاقبوا المذنب فوراً ومن غير امهال .

وإذا دعوتم شيخاً أو عينا من الأعيان ورفض الحضور ، ولمّا كان هذا غير لائق تجاه السلطة وأنه يعمل هذا سيرغم السلطة على إحضاره بالقوة فعليكم أن تعدوا حالة كهذه حالة عصيان وأن تحضروه بالقوة .

وبالنظر لكافة ما أحدثته لصالح أهالي هذه البلاد سواء بتخفيض الضرائب أو بالغاء السخرة أو بمنع الأعمال التعسفية أو الظلم فمن الواضح إذ أنه لاضرورة لبقاء جنود في هذه البلاد إذ أن الاهالي سوف يكونون مرغمين بحكم الضرورة – للمحافظة على أملاكهم – إلى تولي الدفاع عن أنفسهم ضد أي معتد عليهم يريد مهاجمتهم وذلك حتى لايروا الدمار يحل بهم ومع ذلك فقد أقمت عدداً كافياً من الألويات في مختلف الجهات فخذوا احذركم إذن حتى تدفعوا كل من تحدثه نفسه بالهجوم عليكم . وإذا كان من الضروري أن تتعاون المديريات فيما بينها فافعلوا ذلك حتى لاينزل السوء بأحدى الجماعات الموجودة تحت اشرافكم .

ولمّا كانت المدافع الموجودة في السودان من المدافع الكبيرة التي لايمكن جرها على الحبال أو الرمال ولما كانت لهذا السبب غير ذات فائدة بتاتاً لأن المدافع لاتفيد إلا إذا استطاع الانسان نقلها من مكان لآخر ولمّا كانت

المدافع الموجودة فى السودان لاتتوفر فيها هذه الشروط أمرت أن يحطم البعض وأن يجمع الباقى .

وقدتركت فى جزيرة سنّار ماهو ضرورى من المدافع وهى مدافع خفيفة والباقى يوجد فى كورسكو . وقد أمرت أن تنتقل هذه الأخيرة إلى الخرطوم . وعندما يتم جمع كافة المدافع فأنه سيرسل إلى كل جزء من أجزاء البلاد ماهو ضرورى لها .

وكذلك فأنه فى المرتبة الأولى من الاهمية وهذه هى رغبتى الشديدة أن تصلنى فى كل وقت أخبار منكم عن أحوال البلاد وعن مايحدث فيها . ولذلك فمن الواجب أن تنظموا خدمة البريد لجزيرة سنّار وكردفان وتاكة على أن يخرج البريد من الجزيرة إلى أبى حمد وعلى بعد كل عشرة ساعات تقريباً تقطع على ظهر الهجن يجب أن تؤسسوا محطات بها هجانة تنقل الرسائل وأن تعدوا فيها أماكن لاقامة هؤلاء باستمرار وأن تعنوا بالوسائل التى تكفل لهم ولهجنهم الغذاء . فتقيمون ثلاثة محطات بين أبوحمد وكورسكو: الأولى عند أبى حمد والثانية عند مرات والثالثة عند كورسكو . وذلك لتسهيل ووصوله الرسائل وترتبون عشرة من الهجانة لكل مديرية .

وأما إذا اعتدى عليكم أحد وهاجمكم ، وكانت قوات أعدائكم كبيرة ، وأصبحتم فى حاجة إلى نجدات من القاهرة فعليكم أن تخبرونى بذلك سريعاً وفى الوقت ذاته أرسل إليكم مايثير الفزع فى قلوبهم ويقض عليهم ويفرقهم وسوف أحضر بنفسى حتى اقتص من من أولئك الذين يجرؤون على اثارة الاضطراب وفعل الشر .

ولتعلموا جيداً أن الاستعدادات الضرورية تتم دائماً فى القاهرة وكذلك تلك فى الحالات الضرورية التى تستلزم وجودى مع جندى الذين سأقودهم إلى السودان . وسوف اقتص اقتصاصاً شديداً من أولئك المعتدين ويجب

أن تتاكدوا أيضا أنه إذا علمت أن الأهالى قد أصابهم سوء من جانبكم أو من جانب المشايخ فسوف لاينجو أحد منكم من عقابى فلتعلموا ذلك جيداً واسترشدوا بذلك فى تصرفاتكم حيث أن هذه هى أوامرى وهى التى تعبر عن رغباتى وارادتى ٠

٠٠٠

---

(١) نقلاعن محمد فؤاد شكرى الحكم المصرى فى السودان ص ٣٢٢ ومابعدها ٠

الملحق رقم (٣)

المرسوم الثاني (١)

في الأمر السامي الذي أصدرته لكم لترتيب الخراج والمتعلق بوضع الترتيبات الأخرى موضع التنفيذ ، ذكر أن الضريبة قد صدرت على هذا الأساس منذ سنة ١٢٧٢ (ذي الحجة ١٢٧٣) وأن مادفعه الأهالي من بداية العام حتى الوقت الحاضر يجب أن يحسب من ضريبة هذه السنة وأنه نتيجة لما أشعر به نحو شعبي من حب فأنه لاينبغي لكم أن تطالبوا الأهالي بالمتأخرات المستحقة عليهم حتى هذه السنة (١٢٧١) .

ولكن لمّا كان كل هذا غير مفسر بشكل واضح في المرسوم السالف ولمّا كان أهالي هذه البلاد أميين فأنني أخشى أن يعتقدوا أنّ هذه المتأخرات لازالت باقية عليهم وأنهم مدينون بها للحكومة ولذلك فأنني أردت من هذا المرسوم الجديد أن أطمئنهم في هذا الصدد تماماً حتى يكتمل سرورهم وتتم سعادتهم وأبين لهم بوضوح اراداتي ورغباتي .

يجرى طرح المبالغ التي دخلت الخزانة من بداية سنة ١٢٧٢ حتى هذا اليوم بعد عمل خصم وفق ماذكره في أمري السابق من خراج العام الحاضر وذلك بعد التحقق من صحة حسابات الصيارف بكل دقة .

وفيما يتعلق بأولئك الذين يظلون دائنين للحكومة حتى نهاية سنة ١٢٧١هـ بفضل تقديمهم دفعات من المال تزيد عمّا هو مستحق عليهم فمع ان العدل يقضي بأن تحل هذه الزيادات مكان المتأخرات فأنني لما كنت في عدالتي لا أريد أن يفقد أحد رعاياي شيئاً من المستحق له ، أطلب منكم أن تقوموا بتعويض كافة أولئك الذين ثبت تماماً انهم دائنون للحكومة على النحو المتقدم بعد فحص دقيق عن هذه الزيادات وذلك بحسابها من خراج العام الحاضر المستحق عليهم .

ولقد جاء فى المرسوم السابق أنه إذا غيّر أحد البدو قبيلته فأن الضريبة التى كان يدفعها فى قبيلته تنقل إلى حسابات القبيلة الجديدة التى يختارها وإذا زرع أحد البدو أرضاً خارج حدود قبيلته فلا ينبغى أن يدفع سوى ضريبة هذه الأرض فقط ويجب أن تخصم الضريبة التى كان يدفعها فى قبيلته من حساب هذه القبيلة . فأذا وجدت مثل هذه الحالات ولزم نقل الضريبة التى كان يدفعها البدوى فى قبيلته الأولى إلى حسابات القبيلة الثانية التى انتمى إليها فأن ذلك سيثير مناقشات ومنازعات حول موضوع قدر الضريبة التى كان البدوى يدفعها لقبيلته الأولى وهذا يتطلب تحقيقات وضياع وقت كبير .

لذلك وحتى يمكن التخلص من هذه الصعوبات يجب عليكم أن تعوا فى الوقت الذى يتم فيه تحديد الضريبة المفروضة على كل قبيلة بواسطة رئيسها قائمة بقدر الضريبة الموزعة على كل فرد من أفراد هذه القبائل على أن تحتفظوا بهذه القوائم فى المديرية للرجوع إليها عند الحاجة .

وكذلك من الضرورى معرفة حدود كل قرية من القرى مع إجبار المشايخ والأعيان على احترام هذه الحدود وكذلك من الواجب اقامة الحراس اللازمين حتى يكونوا مسئولين عن كل جريمة قتل أو سرقة تقع فى حدود قريتهم ويكونوا مجبرين على تقديم السارق أو القاتل وفى حالة تعذر ذلك يصبحون هم المسؤولين شخصياً وقد صدر الأمر بهذا لغرض المحافظة على الأمن فى الطرق وحتى يمتنع الأفراد من إلقاء المسئولية أحدهم على الآخر مما يجعل النظر فى هذه الامور يتطلب وقتاً طويلاً جداً ويجعل من المتعذر الكشف عن الحقيقة .

وعلى ذلك فواجبكم أن تقوموا بما يلزم لتعيين حدود كل قرية وأن تفهموا المشايخ قدر المسئولية الملقاة على عواتقهم .

وحتى هذا اليوم كان يودع السارقون والقتلة والذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة فى سجون السودان فأذا نقلوا بدلاً من ذلك إلى السجون

الواقعة بعيداً عن عائلاتهم وعن قراهم فأنه من المحتمل أن تمنعهم معرفتهم لهذه العقوبة من ارتكاب الآثام وبناءً على ذلك فقد قررت أن ينقل أولئك الذين تصدر ضدهم أحكام بالسجن المؤبد إلى السجون الموجودة فى مصر حيث تنفذ فيهم العقوبة . بينما يرسل من مصر المجرمون المحكوم عليهم بنفس العقوبة إلى السودان لتنفيذ هذه العقوبة فيهم .

كانت الحسابات فى الماضى ترسل إلى حكمدار السودان ولكن لمّا كانت كل مديرية مستقلة اليوم فأنه يجب ارسال كشوف حساباتكم كل ثلاثة أشهر إلى القاهرة .

وعليكم أن تعلموا كافة المشايخ والأعيان بمحتويات هذا المرسوم وأن تفهموهم مضمونه حتى يعملوا بموجبه . وهذه ارادتى .

المرجع السابق ص ٣٥٣ ومابعدها .

ملحق رقـــم (٤)

عقد استخدام السير صمويل بيكـــــر (١)

نص العقد المبرم بين سمو اسماعيل باشا خديو مصر و السيـــر
صمويل بيكر • الاسكندرية ٢٧ مارس ١٨٦٩م

يتعهد السير صمويل بيكر بالدخول فى خدمة سمو اسماعيل باشا فيخدم الحكومـــة المصرية لمدة سنتين على الأقل • ابتداءً من أول أبريل ١٨٦٩م وتكون مهمتـــــه قيادة حملة غرضها ضم بلاد حوض النيل وأفريقيا الوسطى إلى الأقطار المصرية •

وأول ماترمى اليه الحملة إعلان السيادة المصرية على بلاد النيـــــل الأبيض التى تقطنها اليوم أمم متبربرة لاقوانين لها ولاحكومة ترعى الأمن فيها •

(٢) إلغاء النخاسة فى منطقة النيل الأبيض •

(٣) إدخال الوسائل المشروعة للتجارة التى تعود بالفائدة على مصر •

(٤) إنشاء الملاحة فى البحيرات الكبرى الواقعة فى خط الاستواء وهى منابـــع النيل الرئيسية •

(٥) إنشاء خط من النقط العسكرية ابتداءً من غندوكرو فى حوض النيل المتوسـط تقع الواحدة على مسيرة ثلاثة أيام من الأخرى • وذلك ضماناً للاتصــــال بين أقصى نقطة وقاعدة أعمال الحامية •

(٦) ضم الأراضى التى تمر بها هذه النقط العسكرية بعد إنشائها إلى أراضـــى الامبراطورية المصرية فتمتد إذن هذه الامبراطورية من منابع النيل إلـــى البحر الأبيض المتوسط •

وهكذا تكون مصر قد خطت بهذه الأمم الخطوة الأولى نحو الحضـــارة • هذه الأمم التى لن يتأتى للعالم منها أية فائدة مادامت مقيمة على حالتهـــا الراهنة • فهى ستعيش فى عداء مستمر مع بعضها بعضاً وستكون حجر عثـــرة

فى سبيل كل اصلاح مادامت بعيدة عن النفوذ المصرى وطالما بقيت أبوابها مغلقة فى وجه التجارة ٠

يوافق سمو اسماعيل باشا خديو مصر على أن يقدّم للمدعو السير صمويل بيكر بصفته رئيساً لهذه الحملة مبلغاً قدره عشرة آلاف ليرة استرلينية سنوياً مضافاً إليها نفقات السفر.

ويوافق اسماعيل باشا خديو مصر على أن يخلع على المدعو السير صمويل بيكر الرتبة الملائمة لهذه الرئاسة وعلى أن يخوله السلطة المطلقة - حتى فيما يتعلق بالحياة والموت - على أولئك الذين تتألف منهم الحملة التى أُسندت رئاستها له ٠ ويمنح كذلك نفس السلطة فى البلاد التى تقع فى جنوب خط عرض ١٤ شمالاً وتدخل ضمن نطاق حوض النيل ٠

ويوافق سموه على أن يترك للمدعو صمويل بيكر مطلق التصرف فى إعداد كل مايراه ضرورياً للحملة وكذلك الحصول عليه ويتعهد سمو اسماعيل باشا بأن تدفع الحكومة المصرية هذه النفقات ٠

يوافق سمو اسماعيل باشا خديو مصر على أن يقدّم للمدعو صمويل بيكر حسب طلبه الرجال والذخيرة والمبانى وكل مايجده السير صمويل بيكر ضرورياً للحملة ٠

وفى حالة وفاة السير صمويل بيكر خلال السنة الأولى من مهمته التى كلف بها فان الحكومة المصرية لن تحاول انقاص شيئاً من المبلغ الذى عين له سنوياً بل ستعطى المقدار بأكمله لأرملته وورثته وللمشرفين على تركته ٠

وفى حالة وفاته فى بحر العام الثانى أوفى السنة التالية لتعهده فأن الحكومة ستطبق نفس المبدأ وستدفع المبلغ الذى تدين به للسير صمويل بيكر ثمناً لخدماته عن السنة الجارية برمته لأرملته وورثته ٠

وعلى السير صمويل بيكر أن يبدى كل مقدرة فى توجيه الحملة لصالح صاحب السمو اسماعيل باشا خديو مصر ٠

---

(١) وثائق عابدين افرنجى محفظة رقم ١١٩ ملف رقم ٧٢/١-٧٢ (٢٠٩٢٢ نقلاً عن د٠ محمد فؤاد شكرى - الحكم المصرى فى السودان ص٢٥٩ ومابعدها ٠

ملحق رقم (٥)

نظام ملكية الأراضى فى السودان(١)

كانت الأراضى فى السودان تملك للأشخاص بعدة طرق منها طريقة وضع اليد التى كانت تتم عندما يقوم الملك بأعطاء أية جزيرة تظهر من النيل لأى شخص يختاره من رعاياه سواء كان من رجال العلم أو من غيرهم وكان المالك لهذه الجزيرة أو الأرض يحصل من الملك على عقد مختوم بختامة يخول له ملكيتها وكان من المتبع كذلك أن تنتقل ملكيتها من وريث لآخر طبقاً لما جاء بهذا العقد.

وكان منها الرغبة فى استصلاح الأراضى البور وذلك بغرض زراعتها والانتفاع بها ، وكان من المتبع بالنسبة لامتلاك هذا النوع من الأراضى أن يقوم الراغب فى اصلاحها بتقديم طلب إلى السلطة يحصل بمقتضاه على ملكية هذه الأراضى وذلك بوضع اليد ويصبح المستصلح منذ هذه اللحظة صاحب الحق فى بيعها أو توريثها أو تاجيرها بموجب عقد يحرره أحد الفقهاء الموجودين بجهته.

ومنها كذلك طريقة الأيجار التى كانت تحدث عندما يكون المالك ليس له مقدرة على زراعة أرضه بسبب اتساعها ففى هذه الحالة كان عليه أن يقوم بتأجيرها لمن يرغب فى زراعتها بحيث يحصل صاحب الأرض على الثلث ويحصل المستأجر على الثلثين . وفى بعض الأحيان كانت الزراعة من هذا النوع من الأراضى تتم بالمرابعة بمعنى أن يحصل صاحب الأرض على الربع ويحصل المستأجر على ثلاثة الأرباع الباقية . ومنها طريقة التوريث التى كانت تحدث عندما يموت اى مالك لاى مساحة من الارض ففى حالة عدم وجود وريث له ، كان على احد الاهالى ان يقوم بوضع يده على هذه الارض ثم يقوم بعد ذلك بزراعتها ودفع الضريبة المقررة عليها للميرى . وعندما يهمل هذا المالك الجديد فى زراعتها ففى هذه الحالة تقوم الحكمدارية باخذها منه واعطائها لغيره من المزارعين ليقوم بزراعتها.

وكانت الحكمدارية تقوم بفرض ضرائب على هذه الاطيان ولكن لقلة انتاجها عجز اصحابها عن تسديد قيمة الضرائب المقررة عليها فاضطرهم ذلك

بالتالى إلى تركها والهروب الىأماكن بعيدة كى يمارسون الزراعة فى أراضى غير معروفة المساحة حتى لايدفعوا عنها الضرائب ولكن لمّا علم بذلك حكمدار السودان (موسى باشا) اضطر الىأن يبطل هذه الضريبة المقررة على الأراضى وفرض غيرها على الأشخاص انفسهم ٠

...

---

(١) دفتر ٢٨٣ وثيقة ٣ ص١٣٦ فى ٩ ربيع ثانى سنة ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣م نقلا عن د٠ يوسف السيد نصر ـ الوجود المصرى فىافريقيا ص ١٧٤-١٧٦٠

ملحق رقم (٦)

صورة رقم (١)

صورة من اجازة الشيخ عليش للشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن عيسى السناري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى اله وصحبه اجمعين صلاة وسلاما دائمين الى يوم الدين اما بعد فيقول محمد عليش قدمن الله تعالى علي بصحبة الشيخ المبارك احمد ابن الشيخ محمد ابن الشيخ احمد ابن الشيخ عيسى السناري المشهورين بالعلم والصلاح والبركة مدة مديدة وشاركني في كتب عديدة في فنون من العلوم الشرعية والالية ولما اراد العود الى وطنه التمس مني الاجازة بها ظنا منه اني من اهل ذلك وانا متيقن اني لست ممن سلك تلك المسالك ولكن جبر خاطره ورجاء بركته حملاني على اجابته فقلت اجزت اخي المذكور بما سمعه مني وغيره مما اجازني به اشياخي ضاعف الله لهم الاجور موصيا له بملازمة التقوى فانها للفلاح السبب الاقوى وان لا ينساني من صالح دعواته في جلواته وخلواته ضارعا للمولى الكريم ان يمن علينا بالخير العميم وان ينجينا من الفتن والاهوال وان يصلح لنا ولاخواننا الاحوال وان يختم لنا بخاتمة السعادة وان يجعلنا ممن لهم الحسنى وزيادة الذين دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام واخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين

أصل هذه الاجازة محفوظ بمكتبة جامعة الخرطوم

ملحق رقم (٧)

صورة رقم (٦)

صورة من إجازة الشيخ احمد بن محمد كبوة للشيخ أحمد بن محمد ابن عيسى السناري وولده محمد (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم والحمد منك واليك ونصلي ونسلم على سيدنا
محمد خير من دل عليك وعلى آله واصحابه الهادين
والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين اما بعد فقد
طلب مني الشيخ الفاضل الصالح والكامل الناجح
الشيخ احمد بن محمد بن عيسى السناري وولده
العالم الفاضل محمد [illegible] ان اجيز كلا
منهما بما تصح لي اجازته وصحت لي روايته من
العلوم منقولها ومعقولها وقد اجتمع علينا كل منهما
في قراءتنا بالازهر الانور المعمور بذكر الله وسمع
كل منهما منا من العلوم منقولها ومعقولها فقلت
اجزتهما بما صح لي وعني وسمعاه مني على شروط
الاجازة المقررة المشهورة في بابه المحرر
موصيا لهما بتقوى الله العظيم وان لا ينسياني من
خلواتهما وجلواتهما من صالح دعواتهما وعلى
الله اعتمادي وهو حسبي وكفى وسلام على عباده
الذين اصطفى قاله الفقير احمد بن محمد كبوة الفقر..
حامدا مصليا مسلما

(١) أصل هذه الإجازة محفوظ بمكتبة جامعة الخرطوم

ملحق رقم (٨)

صورة رقم (٢)

صورة من اجازة الشيخ على الذى للشيخ أحمد وولده محمد [1]

احمد بن محمد بن عيسى السنارى وولده محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى اله وصحبه اجمعين اما بعد فقد استجازني كل من اخينا الفاضل والهمام الكامل بركة الوقت وصالح الزمان الحنيف لكاله بان يشاركه بالمران البنان ارجو من الله ان ينفعني ببركته وشريف همته الممنوح من العطايا بامداد المولى البارى الشيخ احمد بن محمد بن عيسى السنارى وولده العالم العامل والفاضل الكامل الشيخ محمد بما اجازني به مشايخي الكرام الذين من جملتهم ما تضمنه هذا الثبت لظنه انى اهل لذلك والامر بخلاف ذلك المسلك فقلت وبالله التوفيق اجزت كلا منهما بما تجوز لى روايته من معقول ومنقول داعيا الله لهما [illegible] راجيا ان لا ينسياني من الدعوات في الخلوات والجلوات والناجي منا يأخذ بيد اخيه يوم لا ينفع مال ولا بنون وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم كتبه بيده الفقير على العذرى المعروف بالمحلاتى [illegible] عنه [illegible] عفا الله عنه ولوالديه واحسن اليهما واليه وجميع المسلمين امين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم

[1] أصل هذه الاجازة محفوظ بمكتبة جامعة الخرطوم.

ملحق رقم ١٩١

السودان المصري في عهد محمد علي (١)

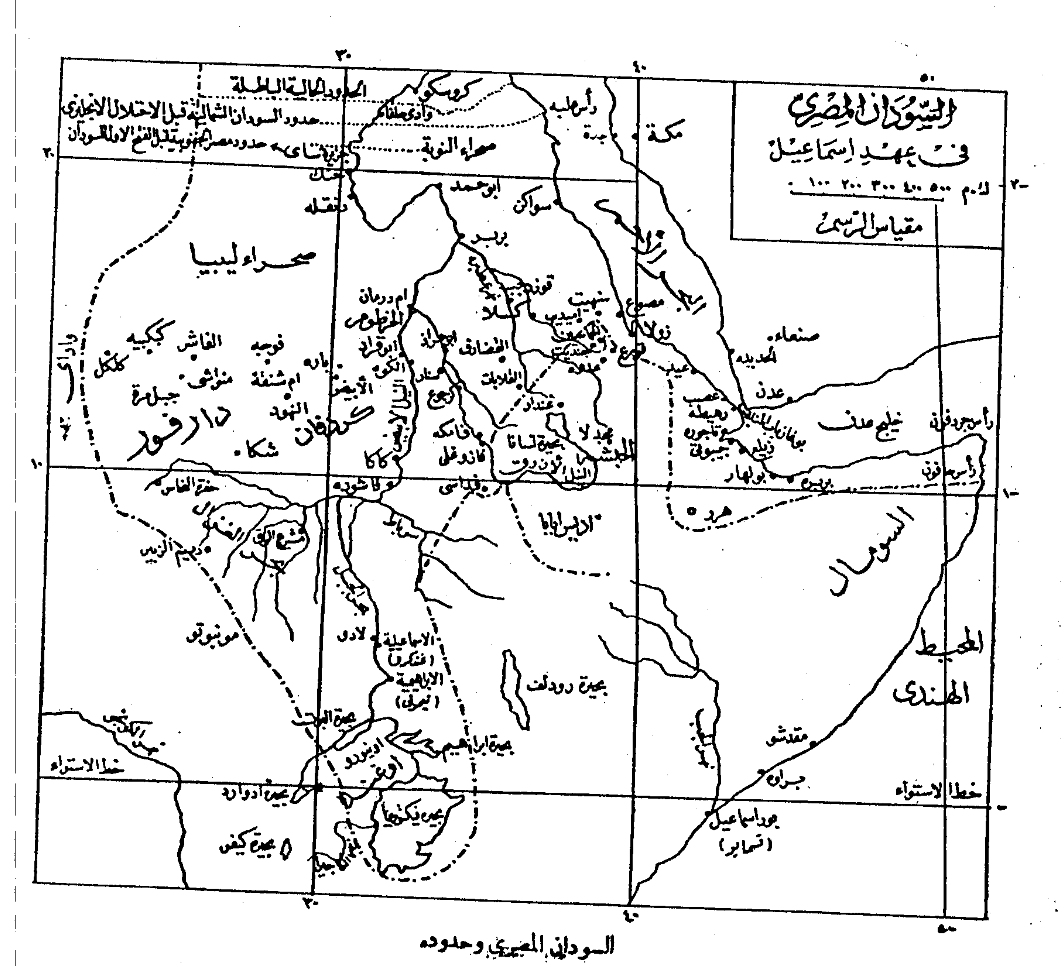


(١) نقلا عن عبد الله حسين المحامي - السودان منذ التاريخ القديم

ملحق رقم (١٠)

السودان المصري في عهد اسماعيل (١)

خريطة رقم (٢)



السوداني المصري وحدوده

في عهد اسماعيل

(١) عبد الرحمن الرافعي - عصر اسماعيل ج ١

المصادر والمراجع

قائمة المصادروالمراجع والدوريات

أولا : المصادر :

ابراهيم فوزى باشا :

السودان بين يدى غردون وكتشنر (جزءان فى مجلد واحد)
طبع على نفقة جريدة المؤيد - القاهرة ، صفر ١٣١٩هـ .

احمد بن الحاج ابوعلى (كاتب الشونة) :

مخطوطة كاتب الشونة فىتاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية ،
تحقيق الشاطر بصيلى عبدالجليل ،مراجعة الدكتور محمد مصطفى
زيادة .
دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦١م.

سلاطين باشا :

السيف والنار فىالسودان .
عالم الكتب - امدرمان . الطبعة الثالثة ١٩٧٨م.

عبدالرحمن الجبرتى :

تاريخ عجائب الاثار فىالتراجم والاخبار (ثلاثة اجزاء)
طبعة دار الجيل ، بيروت ، بدون تاريخ.

محمد بنعمر التونسى :

تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان .
حققه وكتب حواشيه د. خليل محمود عساكر ود. مصطفى محمد مسعد.
راجعه د. محمد مصطفى زيادة .
الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٥م.

محمد النور بن ضيف الله :

كتاب الطبقات فى خصوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء
فىالسودان .
تحقيق د. يوسف فضل حسن .
دار التاليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ، الطبعة الثالثة ،
١٩٨٥م.

محمود طلعت :

غرايب الزمان فى فتح بلاد السودان .

مطبعة الاسلام بمصر ، ١٣١٤هـ.

ثانياً : المراجــــع :

ابراهيم الحاردلو (الدكتور)

الرباط الثقافى بين مصر والسودان .

دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٧م.

ابراهيم شحاته حسن (الدكتور)

مصر والسودان ـ دراسة وثائقية مقارنة فى الأصول التاريخية والفكرية للثورتين العرابية والمهدية .

توزيع منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٨٠م.

أحمد السعيد سليمان (الدكتور)

تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل

دار المعارف ، ١٩٧٩م.

أحمد عزت عبد الكريم :

تاريخ التعليم فى عصر محمد على

مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٣٨م.

الان مورهيد :

ـ النيل الأزرق .

ترجمة د. نظمى لوقا

دار المعارف بمصر ١٩٦٥م.

ـ النيل الأبيض

ترجمة محمد بدر الدين خليل

دار المعارف ١٩٦٥م .

أمين سامـــى :

تقويم النيل وعصر اسماعيـــل

القاهرة ١٩٣٦م٠

جميل عبيد (الدكتور)

المديرية الاستوائية

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨م٠

جلال يحي (الدكتور) :

مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية فىالقرن التاسع عشر ،

دار المعارف ١٩٨٤م٠

حسب الله محمد احمد :

قصة الحضارة فىالسودان

دار يوليو للترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦م٠

حسن أحمد ابراهيم (الدكتور) :

رحلة محمد على باشا إلى السودان ١٨٣٨-١٨٣٩م

كراسة رقم(١٥) معهد الدراسات الأفريقية والاسيوية جامعــــة

الخرطوم ، ١٩٨٠م٠

حسن محمد جوهر وحسنين مخلوف :

السودان ، أرضه وتاريخه وحياة شعبه ،

مطبوعات دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠م ٠

حسن مكى محمد أحمد :

- جزور وأبعاد التبشير المسيحى فىالعاصمة المثلثة ٠
  المركز الاسلامى الأفريقىبالخرطوم ، شعبة البحوث والنشـــر،
  كراسة رقم(١)
- السياسة التعليمية والثقافة العربية فىجنوب السودان ٠
  المركز الاسلامىالأفريقى بالخرطوم ، شعبة البحوث والنشر ١٩٨٣م٠

حسين سيد أحمد المفتى :

تطور نظام القضاء فى السودان

أمدرمان ١٩٥٨م .

حسين مؤنس (الدكتور) :

الاسلام الفاتح

سلسلة دعوة الحق ، مطبوعات رابطة العالم الاسلامى الرقم (٤) ،دار الأصفهانى للطباعة ، جدة ١٤٠١هـ .

زكى مصطفى عبد المجيد (المحامى) :

القانون المدنى السودانى ، تاريخه وخصائصه ،

معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٨م .

رافت غنيمى الشيخ :

مصر والسودان فى العلاقات الدولية ،

عالم الكتب ١٩٧٩م .

رئاسة مجلس الوزراء المصرى

السودان من ١٣ فبراير ١٨٤١م الى ١٢ فبراير ١٩٥٣م .

المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٣م .

رفاعة رافع الطهطاوى :

الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى ، دراسة وتحقيق

د. محمد عمارة .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣م .

زاهر رياض (الدكتور) :

السودان المعاصر منذ الفتح المصرى حتى الاستقلال ١٨٢١ – ١٩٥٣م

مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٦م .

سليمان محمد الغنام (الدكتور) :

قراءةجديدة لسياسة محمد على باشا التوسعية ١٨١١-١٨٤٠م فى الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا.

تهامة ، الطبعة الاولى ١٩٨٠م.

السيد يوسف نصر (الدكتور) :

- الوثائق التاريخية للسياسة المصرية فىأفريقيا فىالقرن التاسع عشر ،دار المعارف ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠م.
- الوجود المصرى فىأفريقيا فىالفترة من ١٨٢٠-١٨٩٩م . دار المعارف ، الطبعة الاولى ١٩٨١م .

الشاطر بصيلى عبدالجليل :

- تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط منالقرن السابع إلى التاسع عشر الميلادى. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢م.
- معالمتاريخ سودان وادى النيل مكتبة العرب ، القاهرة ، الطبعة الثانية ١٩٦٦م.

شوقى الجمل (الدكتور) :

- تاريخ سودان وادى النيل ـ حضارته وعلاقته بمصر من أقدم العصور إلىالوقت الحاضر (جزءان) مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩م.
- سياسة مصر فىالبحر الأحمر فىالنصف الثانى من القرنالتاسع عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤م .

صدقى ربيع :

النوبة بين القديم والجديد

الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ، بدون تاريخ.

صلاح الدين المليك (الدكتور) :

شعراء الوطنية فى السودان .

دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ١٩٧٥م .

ضرار صالح ضرار :

تاريخ السودان الحديث

دار مكتبة الحياة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ١٩٦٨م .

عبدالله حسين (المحامى) :

السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية (جزءان فى مجلد واحد) .

المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٣٥م .

عبدالرحمن الرافعى :

- عصر اسماعيل (جزءان)

دار المعارف ، الطبعة الثالثة ١٩٨٢م .

- عصر محمد على

مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦م .

- مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال

دار المعارف ، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م .

عبدالعزيز امين عبدالمجيد :

تاريخ التربية فى السودان (ثلاثة اجزاء)

المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٤٩م .

عبدالمجيد الشاذلى (الشيخ) :

حد الاسلام وحقيقة الايمان

مركز البحث العلمى ، جامعة أم القرى ، مطابع الصفا بمكة المكرمة ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٣م .

عبد المجيد عابدين (الدكتور) :

تاريخ الثقافة العربية فى السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث

دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

عز الدين الامين (الدكتور) :

- تراث الشعر السودانى

معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٩م .

- قرية كترانج وأثرها العلمى فى السودان

دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم ١٩٧٥م .

على ابراهيم عبده (الدكتور) :

أضواء على المناقشة الاولية فى أعالى النيل .

دار المعارف ١٩٦٣م .

عمر طوسون (الأمير) :

تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها إلى ضياعها ١٨٦٩ -

١٨٨٩م (ثلاثة اجزاء) :

مطبعة العدل ، الاسكندرية ١٩٣٧م .

عوض عبد الهادى العطا :

تاريخ كردفان السياسى فى المهدية ١٨٨١-١٨٩٩م

المجلس القومى لرعاية الآداب والفنون ، وزارة الثقافة والاعلام ،

جمهورية السودان الديمقراطية ١٩٧٣م .

المجلس الأعلى للشباب والرياضة بجمهورية مصر العربية (جهاز الشباب)

التكامل المصرى السودانى

مصنع القاهرة للظروف والطباعة ، بدون تاريخ .

محمد ابراهيم أبوسليم (الدكتور) :

- تاريخ الخرطـــوم
دار الجبيل ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.

- دور العلماء فى نشر الاسلام فى السودان - المجموعة الاولى مـــن
معالم تاريخ الاسلام فى السودان ، دار الفكر للطباعـــة
والنشر والتوزيع ، بدون تاريخ .

محمد أحمد الجابـــرى :

فى شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله
دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٤٧م.

محمد أحمد محجـــوب :

- الحكومة المحلية فى السودان
شركة ومطبعة مصطفى الحلبى ١٩٤٥م.

- الديمقراطية فى الميزان
دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٧٣م.

محمد سليمان :

دور الأزهر فى السودان
الهيئة المصرية للكتاب ١٩٨٥م.

محمد صالح ضـــرار :

تاريخ سواكن والبحر الأحمر
الدار السودانية للكتب . الطبعة الاولى ١٩٨١م.

محمد صبـــــرى :

الامبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر .
القاهرة . مطبعة مصر ١٩٤٨م.

محمد عمر بشيـــــر :

تطور التعليم فى السودان ١٨٩٨ – ١٩٥٦م

ترجمة هنرى رياض واخرين

دار الثقافة ٠ بيروت ١٩٧٠م٠

محمد عوض محمـــــد :

السودان الشمالى سكانه وقبائله

مطبعة لجنة التأليف والنشر٠ القاهرة ١٩٥٦م٠

محمد فؤاد شكرى (الدكتور) :

– الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠–١٨٨٥م ٠

دار الفكر العربى ١٩٤٧م٠

– مصر والسودان – تاريخ وحدقوادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ٠

القاهرة١٩٥٨م ٠

– مصر والسودان – الوضع التاريخى للمسالة ٠

دار الفكر العربى ٠ القاهرة ٠

محمد فوزى مصطفى :

الثقافة العربيةوأثرها فى تماسك الوحدة القومية فى السودان المعاصر٠

الدار السودانية ٠ الخرطوم ، الطبعة الاولى ١٩٧٢م٠

محمد فهمى لهيطـة :

تاريخ مصر الاقتصادى فىالعصورالحديثة

مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٤م٠

مدثر عبد الرحيم :

القومية والامبرياليةفىالسودان

دراسة للتطور الدستورى والسياسى ١٨٩٩–١٩٥٦م٠

دار النهار للنشر٠ بيروت ، ١٩٧١م٠

مكى شبيكـــه :

- تاريخ شعوب وادى النيل مصر والسودان فى القرن التاسع عشر
دار الثقافة - بيروت .

- مختصر تاريخ السودان الحديث .
مطابع دار الثقافة . بيروت ، ١٩٦٥م.

- مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط .
معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٢م.

- السودان عبر القرون .
دار الثقافة ، بيروت .

نسيم مقار (الدكتور) :

- الأسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان
دراسة فى العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية ١٨٢١-١٨٤٨م .
الهيئة المصرية للكتاب .

نعوم شقيـــر :

تاريخ السودان . تحقيق د. محمد ابراهيم أبوسليم
دار الجبيل. بيروت ١٩٨١م.

يوسف خليل يوسف :

القومية العربية ودور التربية فى تحقيقها
الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦م.

يوسف فضل حسن (الدكتور) :

- دراسات فى تاريخ السودان . الجزء الأول .
دار التأليف والترجمة والنشر . جامعة الخرطوم ١٩٧٥م.

- مقدمة فى تاريخ الممالك الاسلامية فى السودان الشرقى ١٤٥٠-١٨٢١م .
معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ، ١٩٧١م.

يوسف فضل حسن وآخرون :

من معالم تاريخ الاسلام فى السودان ، المجموعة الاولى ٠
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الخرطوم ، بدون تاريخ٠

مراجع باللغة الانجليزية :

① Hill, Richard - Egypt In the Sudan 1820-1881
Oxford univer-sity press - London 1959.
② Hill, Richard - On the Frontiers of Islam - The Sudan Under Turco Egyption Rule 1822-1845.
Clarendon press. Oxford 1970.
③ Gray, Richard - A history of the southern Sudan 1839-1889 - London 1965.

ثالثا : الدوريـــــات :

أحمد ابراهيم دياب (الدكتور) :

العلاقة بين جدة وسواكن فى فترة الحكم العثمانى
المؤرخ العربى العدد ٢٠ بغداد ١٩٨١م٠

جميل عبيد (الدكتور) :

بعثة جوبا وكيف أفادت بريطانيا من الايقاع بين مصر وزنزبـــــار
١٨٧٥ - ١٨٧٧م ٠
مجلة كلية الآداب جامعة البصرة ، العدد ١٢ مطبعة الارشـــــاد
بغداد ١٩٧٧م٠

حسن أحمد ابراهيم (الدكتور) :

محمد على واستخدام الأرقاء السود .

مجلة الدراسات السودانية العدد الأول المجلد الثالث اكتوبر١٩٧١م

حسين كامل ابوالليف :

مرحلة من مراحل التطور السياسى والاجتماعى فى السودان

المجلة التاريخية المصرية المجلد الخامس ١٩٥٦م .

سعاد عبدالعزيز أحمد

بدء تحديث السودان عام ١٨٢١م

المؤرخ العربى ١٤ بغداد ١٩٨٠م .

الشاطر بصيلى عبدالجليل

- تحقيق اسماء القبائل والبدنات والشيوخ والجباية الواردة فى تقرير الكولونيل ستيوارت (١٨٤٥-١٨٨٤م) الذى كتبه فى اوائل عام١٨٨٣م

المجلة التاريخية المصرية . المجلد الثالث مايو ١٩٥٠م .

- السلطنة الفونجية فى سودان وادى النيل

المجلة التاريخية المصرية المجلد ١٨ مطابع سجل العرب القاهرة ١٩٧١م .

- سودان وادى النيل

المجلة التاريخية المصرية -المجلد الثانى اكتوبر ١٩٤٩م .

عبدالرحمن زكى (القائمقام) :

حكمدارو السودان

المجلة التاريخية المصرية . المجلد الاول ، مايو ١٩٤٨م .

محمد سعيد القدال (الدكتور) :

الرؤيا - الثورة فى فكر المهدى

مجلة الخرطوم ، يونيو ١٩٨٢م .

محمد فؤاد شكرى (الدكتور) :

صفحة من تاريخ السودان الحديث

مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة العدد الثامن المجلد الثانى ديسمبر ١٩٤٦م٠

مصطفى محمد مسعد (الدكتور) :

سلطنة دارفور تاريخها وبعض مظاهر حضارتها ٠

المجلة التاريخية المصرية ٠ المجلد ١١ القاهرة ١٩٦٣م٠

نسيم مقار (الدكتور) :

رحلة وادنجتون فى السودان ١٨٢٠-١٨٢١م

المجلة التاريخية المصرية المجلد ١٤ مطبعة جامعة عين شمس ١٩٦٨م٠

٠٠٠٠٠


الفهارس

فهرس الموضوعـــــــــات

فهرس الملاحـــــق